الديـــن والفلسفـــة الماديـــة الجدليـــة

احمـــد علـــي جيشــــي

رسالـــة علميـــة

مقدمـــة لنيل درجة الماجستيـــــر

من قسم الدراسات العليا بكليـــة الشريعـــة

بجامعـــة الملـــك عبدالعزيـــز

بمكـــة المكرمـــة

فـــــرع العقيـــدة

١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م

باشـراف الاستـــاذ محمـــد الغزالـــي



كلمـة شكـر وتقديـر

اعترافا بالفضل ، وعرفانا بالجميل ، أسجل خالص شكرى ، وجزيـل تقديرى لسعادة المشرف فضيلة الأستاذ محمد الغزالى ، الذى لم يأل جهدا فى تقديم كل نصح وارشاد ، ونقد وتوجيه . أضف الى ذلك ان سعادته أعطانى من وقته فى الجامعة وفى بيته احيانا ما دفعنى لدائب العمل وسرعة الانجاز. وكنت أجده فى كل لقاء أبا رحيما ، وعالما متفضلا ، وباحثا محقـقا .

كما اسجل خالص تقديرى للأستاذ الجليل محمد قطب ، فقد تشرفت بالتتلمذ على كتبه قبل ان اتتلمذ على يديه . ولا أجد عبارة تحيط بوصفه ـ فهو غنى عن الوصف ـ الا اننى اقول أن مؤلفاته وتوجيهاته كانت لى معينا صافيا ، وفكرا وقادا عميقا ، اهتديت بنورها ، فأضاءت لى الطريق .

كما أسجل شكرى وتقديرى لعالم وفيلسوف اسلامى كبير ، عرفته فى كتبه ولم أعرفه فى شخصه ـ واسأل الله ان ييسر لى معرفة فضيلته ـ انه السيد محمد باقر الصدر . ولعله خير من نسف الأسس الفلسفية الالحادية بأسلوب فلسفى ومنطقى واع .

وأخيرا فلا يسعنى الا أن اقدم شكرى وتقديرى لكل من أسهم فى هذه الرسالة بنصح أو توجيه أو فائدة . وأخص بالشكر القائمين على ادارة مكتبة الحرم بما يسدونه من خدمة جليلة لطلبة العلم والباحثين ، وأيضا مكتبة الجامعة ، والمكتبات الأخرى فى مكة المكرمة .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــــــــــه

لقد ساورنى احساس بالضيق وشعور بالوجل لهذا الانتشار الذى شهدته الماركسية فى الآونة الأخيرة • لقد سيطرت على مساحات واسعة من الأرض ، واستهوت عقول كثير من الناس ، لاسيما بعض شبابنا فى العالـــم الاسلامى من فارغى العقل والقلوب • وأصبحت النظرية الماركسية ـ كوجهة نظر ـ تعرض نفسها بين وجهات النظر الأخرى دون حرج أو ملام • بل ان اتباع هذا المذهب أصبح من السمات التقدمية التى يرى فيها الشباب الفارغ سبيلا طبيعيا فى مدارج التقدم ، ومسالك التطور • وفاظنى أن يرجع ذلك النجاح العجيب الى براعة العارض لا الى جودة السلعه •

ان الماركسية لو عرفها الناس عارية على حقيقتها فى مجالها النظرى والعملى لولوا عنها ـ حتى انصارها ـ كارهين مزدرين •

وكلمة حق قالها استاذنا الغزالى : " ان الفراغ الدينى الرهيب فى الأمة الاسلامية المترامية الأطراف ، هو أول ما يعين الشيوعية على خداعها ، ويوقع القاصرين فى حبائلها ، وهو فراغ لا يملأ جزءاً منه علماء الدين المحنطون فى معارضهم التقليدية الباهتة ، ولا رجال السياسة المتخلون عن عقيدتهم وشريعتهم ، الحارسون لحكم مدنى ، ميت الروح ، وضيع الهدف • " "1"

حقا لقد أعانهم على نشر باطلهم ما يعانيه العالم الاسلامى من تعثر فى الخطى ، وحيرة فى التصور • وذلك لبعدهم عن دينهم الصحيح أولا • ونتيجة للاستعمار الثقافى بعد الاستعمار العسكرى ثانيا •

---

(1) الاسلام فى وجه الزحف الأحمر • محمد الغزالى • المقدمة •

كل ذلك وغيره ـ كان دافعا لي لأن القي بدلوي في معترك هذا الصراع الفكري ، والذي لا نجد له مبررا الا الجهل بالحق الذي عندنا . وصدق المثل القائل " الانسان عدو مايجهل " . فالأمر يستدعي نوعين من البيان .
أولا : الكشف عن الحقائق الناصعة في ديننا الحنيف تكون منارا يهتدي به شبابنا في حالك المسير ، ووعورة الطريق . وثانيا : الكشف عن الحقائق العارية في الفكر الماركسي ، وعرضها في مقابل الحقائق التي لدينا . وذلك كي ندرك الحق واضحا ، وخاليا من عوامل التضليل والتزييف .

وليس هدفنا مناقشة الماركسيين فقط وكشف اباطيلهم ، بل الى جانب ذلك نهدف الى تحصين شبابنا من مثل هذه الأفكار المضلله .

ان ذلك هو الذي دفعني الى البحث في هذا الموضوع . ومعلوم أن للماركسية جانبين ، جانبا نظريا ، وجانبا عمليا ، أي أن لها فلسفة وسلوكا . ولما كان البحث في التطبيق ليس مما كلفت به ، فقد جعلت محور البحث حول الجانب الفلسفي الذي يمثل العقيدة عند الماركسيين ، والذي يطول تبجحهم به كلما وجدوا معارضة ، لأنهم يحسبونه قمة المعرفة ، وشارة التقدم والارتقاء .

ولكن ثمة عقبتين واجهتهما وأنا في بداية السبيل ، أما العقبة الأولى : فهي أنه لم أجد من كتب في هذا المجال كتابة علمية دقيقة من وجهة نظر اسلامية . نعم لقد كتب السيد محمد باقر الصدر كتابه " فلسفتنا " كمجابهة فلسفية واعية ، من وجهة نظر فلسفية بحته ، وليس من وجهة نظر اسلامية مقابل النظرة الماركسية للكون والانسان . لذلك فقد كانت رسالتي هذه جهدا متواضعا في بداية طريق طويل امام الباحثين والعلماء ، ولا أزعم انني قدمت شيئا ايجابيا في هذا الحقل سوى انني ربما فتحت الباب للباحثين في مجال دراسة حيوية شاقة وذات قيمة .

والعقبة الأخرى : عدم توفر المصادر الأساسية والتي يمكن ان اعتمد عليها خلال البحث والدراسة ، لهذا فقد تكرمت الجامعة بابتعاثي الى القاهرة وبيروت مدة ثلاثة أشهر بغية استقصاء مصادر البحث ، ومظان وجوده . وفعلا

فقد كانت رحلة علمية ذات فائدة كبيرة ، حيث جمعت من المصادر الأساسية في الفكر الماركسي ما مكنني من الاطلاع على أصول الفلسفة الجدلية من أقوال مؤسسيها . فجزى الله القائمين على أمر الجامعة خير الجزاء ، وأخص بالشكر الدكتور راشد الراجح عميد كلية الشريعة والدراسات الاسلامية الذى لقيت منه كل تشجيع ومساعدة وتسهيل .

أما مخطط البحث العام : فقد فرضته علينا طبيعة البحث نفسه ، اذ أن الفكر المادى الجدلى (الديالكتيكى) يعتمد على أربعة أسس نظرية تحدد نظرتها الى الكون كله وهى :
الترابط فى الكون ، والحركة المستمرة فيه ، ثم تناقض الحركة ، وقفزاتها . وهذا النظام ينطبق على الطبيعة ، كما ينطبق على الانسان ـ كجزء من الطبيعة ـ فكان الباب الأول حول الطبيعة والكون ، من خلال الأسس الفلسفية للمادية الجدلية . اما الباب الثانى فعن الانسان من وجهة نظر مادية مقابل النظرة الدينية له ـ وقد افردناه بباب لأهميته ـ أما الباب الأخير فقد خصصناه لبحث صلة الانسان بالدين ، وذلك ردا على المزاعم الهزيلة التى تجعل من الدين طارئا على الكيان البشرى ومتأخرا عن وجوده ، بل مخدرا له ، وبالتالى التنكر للخالق سبحانه ـ نستغفر الله ـ وما يترتب على ذلك من تخبط وتناقض فى تصور الماركسيين أنفسهم .

وعلى الله قصد السبيل وبه نستعين .

احمد على حيشى

مكة المكرمة فى : ٢٠ ربيع الثانى ١٣٩٦ هـ
١٩ نيسان ١٩٧٦ م

ملخص الرسالة

ان كل فكر ناشز متداع لابد له ـ كي ينبت ويترعرع ـ من بيئة فاسدة تساعد منطلقه ، وتستبقى وجوده ، وكلما كانت البيئة محرومة من عناصر الرشاد وجد هذا الفكر الناشز الظروف الطبيعية التى تعين على تكاثره ، واجتذاب الاغرار اليه .

وهكذا الشأن فى المذاهب والأفكار التى ولدت فى اوربا : من وجودية وحسية ، ومادية جدلية ، ومثالية ، وشكية ... الخ كلها [illegible] ما كان لهما أن تمضى وتجد الأنصار والأتباع لولا فساد العقيدة ، وسوء الأوضاع الاقتصادية التى كانت تعانى منها اوربا تحت وطأة الكنيسة ، وسلطانها .

لقد كان هناك تثليث فى العقيدة ، وصكوك غفران ، وخضوع مذل لرجال الكنيسة الاقطاعية ، كما كان هناك سوء توزيع للثروة ، وضيق فى سبل العيش ومقاومة للعلم بتعذيب العلماء ، واضطهادهم . وعلى اثر ذلك قامت هنا وهناك دعوات اصلاحية ، تنشد الخلاص ، وترأب الصدع ، بعضها يدعو الى اصلاح الكنيسة بتهذيب تعاليمها أو تقليم اظفارها ، وبعضها يبحث عن اله ليس له وحى ولا سلطان ، وبعضها الآخر جعل من العقل مرجعا واساسا لكل شىء فى الوجود .

وكان ذلك نتيجة طبيعية لفقدان سبل الهدى ، ومظان النجاة الحقة . لقد ضيعوا تعاليم السماء فضلوا وأضلوا .

وكان لا مناص من ظهور فكر أكثر تطرفا نحو المادية ، وبعدا عن معطيات السماء ، فكان الفكر المادى الجدلى الذى أسسه كارل ماركس فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، والذى صبه فى قوالب فلسفية عقلية ليجد له قبولا فى القلوب الخاوية ، والنظرات الحائرة .

وقد مهد الماديون لهذا الفكر بشىء من الحق ، كواجهة براقة تغرى الناظرين ، وذلك كى يكدسوا فوقه ركاما من الخرافات والأضاليل . فقالوا

بترابط الطبيعة ،وخضوعها بجملتها لسنة متماسكة مطردة فى حركة دائبة مستمرة ،وهذا الزعم معروف انه لم يكن من مخترعاتهم فى فهم الكون ، بل ان الفلسفات الأخرى الى جانب تعاليم الدين تؤمن بهذه النظرة ايمانها بباقى الحقائق الأخرى فى الكون ،ولكنها لم تبن عليه فكرا معوجاً وفلسفة عقيمة •

أما الماركسية فقد مهدت بهذه النظرة الى القول بتناقض الحركة وقفزاتها • ذلك أنهم يسخرون كل شئ فى سبيل مصالح سياسية ، وأهداف استراتيجية باسم قوانين الطبيعة ، ومعطيات الواقع •

فالصراع بين طبقات المجتمع ،والتدافع نحو الثورة التى ينشدونها لاتتم - بزعمهم - الا بواسطة قانون التناقض ،وصراع المتناقضات • ولكنهم أرادوا ان يجدوا لفكرهم اساسا فى عالم المادة والطبيعة ،فحاولوا ان يبرهنوا على وجود التناقض فى محتوى كل شئ فى الكون • فهل استطاعوا ان يبرهنوا على ذلك ؟كلا .لقد ساقوا أمثلة عدة للتدليل على التناقض المزعوم ،ولكنها خرجت أبعد ما تكون عن التناقض بالمعنى الذى يقصدون •

وأيضا ،فالانقلاب أقرب سبيل لتحقيق أهدافهم السياسية فى المجتمعات ؟ فقالوا : ان الحركة فى الطبيعة تتصف بالانقلاب والدفعية ، وجعلوا من ذلك قانونا عاما يطبقونه على كل شئ • ولكن هذا الاستدلال قاصر لايؤدى الى النتائج السياسية التى يهدفون اليها لأمرين :

ألاول : ان التغيرات فى الطبيعة بعضها يحدث تدريجيا ،وبعضها الآخر دفعيا ، فلماذا نأخذ بنوع فقط ونطبقه على النظام الاجتماعى دون الآخر •

الثانى : ان الحركة فى الأمثلة التى مثلوا بها كانت نتيجة لعوامل خارجية ، وليست نتيجة لعوامل التناقض الداخلى فى محتواها • فهلا يطبقون ذلك على التطورات الاجتماعية ؟

اما الانسان فقالوا : انه جزء من الطبيعة ولا ميزة له على غيره ،وأضافوا الى ذلك أن فكره عبارة عن نتاج عال للمادة الراقية ،فهو يعكس الخصائص

الواقعية للمادة ، ولهذا فهو لا يفكر الا في الأمور المادية التي تنقلها اليه احساساته من الطبيعة .

ولكن يرد على ذلك أمور عدة أولها : ان الحس لا يعكس الا الظواهر الخارجية للمادة دون جوهرها . ثانيها : انه لابد من حس وفكر سابق حتى يتم الادراك ، وثالثها : ان العقل يتطرق لأمور ليس مصدرها الحس . وأهم من ذلك كله أنه مخلوق لله عز وجل ومتفرد بخصائص جعلت منه سيدا لهذا الكون ، وأكرم شيء فيه . وقالوا بعد ذلك : طالما ان الفكر يعكس الخصائص الواقعية لحركة الطبيعة ، اذن فالفكر يحتوي على حركة دائبة أيضا ، وتريد الماركسية من ذلك نفي الحقائق الأزلية التي تؤمن بها الاديان من الايمان والعدل والاخلاق ، وحب التملك ، وحب الذات وغير ذلك .

ويرد على هذا أمران : الأول : ان في الطبيعة قوانين ثابتة تشير الى وجود حقائق ثابتة في الفكر كذلك . ثانيا : ان الفكر لا يعكس الخصائص الواقعية للطبيعة ـ كما ظن الماديون ولكن يعكس مفاهيمها فقط ، وبذلك تنهار نظرتهم الى الفكر الانساني . ويقولون أيضا : ان التطور الذي حصل في تاريخ الانسان كان سببه التغير في ادوات الانتاج والوسائل المادية الأخرى عبر تاريخ طويل ـ وسموه التفسير المادي للتاريخ ـ ولكنهم نسوا أو تناسوا ان في فطرة الانسان قدرة على التحسين والتطوير ، وهي بالوقت نفسه مرنة تجعله يتأثر بواقعه الاقتصادي نوعا من التأثير الذي يدل على حيوية فطرته ، وليس على عدمها .

أما الانسان في مفهوم الدين ، فهو مخلوق لله عز وجل مكرم متميز على غيره تميزا جعله أهلا لحمل الامانة والعهد من خالقه . فهو عبد لله وسيد لهذا الكون في الوقت نفسه ، يستغله ويستثمره ، ويتفكر في بديع صنعه ، وجلال خالقه .

حقا هو مخلوق من تراب ، لكنه نفخة من روح الله أيضا ، فهو ذو طبيعة مزدوجة ، وبمقدار ما يحقق التوسط في هذا الازدواج يحقق الهدف من وجوده كانسان متميز متفرد .

والاسلام ينظر الى الفرد نظرة تحافظ فيها على حقوقه كانسان يعيش ضمن مجتمع كبير ،بحيث لا تطغى حقوقه على مصلحة المجتمع ،وفى الوقت ذاته تصان حقوقه كاملة غير منقوصة .

أما الدين : فتراه المادية الجدلية أنه غريب عن الكينونة البشرية ، وتصور واهم لأمور غيبية اختلقتها الطبقات البرجوازية ،كمخدر للشعوب ،ومثبط لها عن بلوغ أمانيها ،وذلك ليسهل استغلالها ، وامتصاص جهودها .

ولكن الأمر أبعد من ذلك . اذ أن الماركسية وجدت أن فكرها المادى العقيم لايجد قبولا الا فى فكر خاو ، وقلب فارغ من كل ما يشده نحو السماء والمثل العليا ، فراحت تسعى جاهدة لاجتثاث الايمان من النفوس بغية أن تحقق أهدافها السياسية البعيدة . وقد تنجح المادية الجدلية فى هزيمة اوربا المسيحية واستغلال النقائض الدينية هناك ، لنشر مبادئها . لكن ذلك صعب أو مستحيل بالنسبة الى المجتمع الاسلامى . ان الحملة على دين محرف وخرافى شئ ممكن ، لكن حاربوا الاسلام ،هذا النظام الخالد الذى لا تصطدم به نظرية علمية يقينية ، وفيه انصاف الفقير ، ونصرة المظلوم .

انه مغروز فى طبيعة الانسان التوجه الى الخالق جل شأنه . وقد يضل الطريق فيعبد غيره ، او يشركه معه فى التوجه والقصد ،ذلك لأن ايقاعات شديدة تقرع حسه من هذا الكون توقظ فيه هذا التطلع ، وتدفعه الى البحث عن الخالق .

ان الانسان عاجز رغم ماحققه من منجزات ضخمة ، وكون عظيم فى جملته دقيق فى صنعه ،بديع فى جماله ، والموت والحياة كل ذلك وغيره يجعله يتساءل عن الخالق فيتصل به ويعبده .

ان العقيدة الصحيحة خير ضمان لتصرفات الفرد من أن تتبدد أو تضيع والتدين ــ بدين صحيح ــ خير حافز للثورة على الظلم ،ونبذ الاعتداء بجميع اشكاله ،وهو حصانة ضد العبودية لغير الله سبحانه . والدين ــ الى جانب ما قدمنا ــ خير كفيل لاحترام القانون ، وأنجع وسيلة لترابط المجتمع ، وتماسك بنائه .

وأخيرا ترى الماركسية أن العالم أزلى وبالتالى ليس له خالق ، وهى دعوة مجردة عن كل دليل ، بل بدع من القول • نعم لقد قال الفلاسفة الالهيون بقدم العالم ، ولكنهم كانوا يؤمنون بوجوده سبحانه ، وكان ذلك لشبهة وقعت لهم ، فنذها الامام الغزالى وردها • أضف الى ذلك ان الادلة العلمية القاطعة قد برهنت على خلافه • لقد برهنت العلوم على حدوث الكون ، بل وحددت الفترة الزمنية التى بدأ منهـــا •

فتضافرت الأدلة العلمية والعقلية والفطرية على حدوثه • والذين بحثوا فى مادته ، واستنتجوا قوانينه جزموا بأن هذا الكون الكبير أثر لرب قدير بصير بكل شيء حكيم فى كل صنع •

أما الفكر المادى الجدلى فهو واحد من الأفكار الطفيلية التى نشأت فى وسط مريض معتل ، ومهما استشرى بلاؤه ، وعظم خطره ، لايعدو ان يكون مرضا مــن الأمراض • ولن تصح المجتمعات الا بالشفاء منه والبعد عنه ، والباطل مهما راج لن ينقلب حقا ، والحق مهما حورب لن ينقلب باطلا •

ان المذهب الماركسى لايستند الى اثارة من علم اوعقل ، بل ان الواقع يكذبه والدليل يقرر بطلانه ، فشأنه شأن الأساطير والخرافات البالية التى عفى عليها الدهر لولا أن قيض له دوله تحميه ، وثورات تقوم باسمه ، وتنادى بشعاراته •

ونخلص من ذلك الى النتائج التالية :

أولا : ان الفكر المادى الجدلى يجب ان ينظر اليه من زاوية الظروف السيئة التى كانت تحيط بنشأته •

ثانيا : انه ليس هناك فلسفة مادية علمية ، بل اهداف سياسية وابعاد استراتيجية •

ثالثا : ان المادية الجدلية دعوة رجعية تقف بالتطور عند حدود معينة "١" •

رابعا : الدين الحق خير ضمان لسلامة التفكير ، وضبط السلوك ، وحفظ الحقوق ، وسعادة الانسان •

---

١) ذلك ان التطبيق الاجتماعى للديالكتيك ، بسعيها نحو اقامة المجتمع المنشـــود ـــ موحد الطبقة ـــ الذى يقضى فيه على التنوع الطبقى فى المجتمع المقترح ، فتنطفىء شعلة الصراع ، وتتلاشى التناقضات نهائيا ، وبذلك يجمد المجتمع على شكل ثابــت لايحيد عنه • لأن الوقود الوحيد فى التطور الاجتماعى ـــ فى زعمهم ـــ هو اسطورة التناقض الطبقى التى اخترعتها ، فاذا زال هذا التناقض ، كان معناه تحرر المجتمع من اســـر الديالكتيـــك ، وعلى ذلك فتكون قد وضعت حدا نهائيا لهذا التطور ، فتقف عجلة التقدم •

فهرســــت الموضوعـــــات

الفهرست

الموضــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــوع :	الصفحـــة

تعريف الدين :

كلمة (دين) تصدق على جميع الأديان التي ظهرت في الوجود ،كدين الاسلام ،ودين النصرانية ، واليهودية ، والبوذية ، وغيرها ٠

وان تفاوتت هذه الأديان في نفسها ،أو في مصادرها ،أو اهدافها ، أو قيمتها ، كل ذلك لايمنع أن تشترك في اسم واحد هو كلمة (دين)٠ لذا فمن الواجب التعرف على المعنى الكلي الذي يجمعها ٠ ذلك أنه لابد أن تكون هناك وحدة معنوية تنتظمها ، وتعطيها هذا الاسم المشترك ٠

الدين في اللغة :

والواقع اننا اذا نظرنا في اشتقاق هذه الكلمة " ووجوه تصريفها ،نرى أن وراء هذا الاختلاف الظاهر تقاربا شديدا ، بل صلة تامة في جوهر معناها ٠ اذ نجد أن هذه المعاني انما تعود الى ثلاثة معان تكاد تكون متلازمة فيما بينها ، وأن التفاوت اليسير بينها انما يعود الى أن اللفظ الذي يراد شرحه ليس كلمة واحدة بل ثلاث كلمات ٠

" ان كلمة دين تشتق من فعل متعد بنفسه ،(دانه يدينه) ، وتارة من فعل متعد باللام (دان له) ، وتارة من فعل متعد بالباء مثل (دان به)٠ وباختلاف هذه الاشتقاقات تختلف الصورة المعنوية التي تعطيها الصيغة٠

أولا : فاذا قلنا : (دانه دينا) ، عنينا بذلك أنه ملكه ، وحكمه ، وساسه ، ودبره ،وقهره ، وقضى في شأنه ، وجازاه ، وكافأه ٠ فالدين في هذا الاستعمال يدور على معنى الملك والتصرف بما هو من شأن الملوك من السياسة والتدبير ، والحكم والقهر والمحاسبة والمجازاة ٠ ومن ذلك (مالك يوم الدين) "[1]" أي المحاسبة والجزاء ٠ وفي الحديث (الكيس من دان نفسه) "[2]" أي حكمها وضبطها ٠

---

(١) سورة الفاتحة آية (٣)

(٢) " الكيس من دان نفسه " والحديث بتمامه : وعمل لما بعد الموت ،والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله)٠ " رواه الامام احمد في مسنده ج ٤ ص ١٢٤ وأيضا رواه الترمذي ج ٩ ص ٨٢ في باب القيامه وقال حديث حسن ٠

(والديان) الحكم القاضي .

ثانيا : واذا قلنا : (دان له) ، أردنا أنه أطاعه وخضع له . فالدين هنا هو الخضوع والطاعة ، والعبادة ، والورع . وكلمة الدين لله يصح أن يفهم منه كلا المعنيين ، الحكم لله ، والخضوع لله . وواضح أن هذا المعنى الثاني ملازم للأول ومطاوع له . (دانه فدان له) ، أي قهره على الطاعة فخضع وأطاع .

ثالثا : واذا قلنا : (دان بالشيء) ، كان معناه أنه اتخذه دينا ومذهبا ، أي اعتقده ، أو اعتاده ، أو تخلق به . فالدين على هذا هو المذهب والطريقة التي يسير عليها المرء نظريا أو عمليا . فالمذهب العملي لكل امرئ هو عادته وسيرته . كما يقال : (هذا ديني وديدني) ، والمذهب النظري هو عقيدته ورأيه الذي يعتنقه ، ومن ذلك قولهم : (دينت الرجل) ، أي وكلته الى دينه ، ولم اعترض عليه فيما يراه سائغا في اعتقاده .

" ولا يخفى أن الاستعمال الثالث تابع أيضا الى الاستعمالين قبله ، لأن العادة أو العقيدة التي (يدان بها) لها من السلطان على صاحبها ما يجعله ينقاد لها ويلتزم اتباعها " "١"

<u>الدين في الاصطلاح :</u>

اختلف الناس في تحديد مدلول كلمة (دين) وحصر معناها اختلافا كبيرا ، أما تعريفه عند علماء المسلمين فقد اشتهر عندهم بأنه (وضع الهي سائق لذوي العقول السليمة — باختيارهم — الى الصلاح في الحال والفلاح في المآل . ويمكن تلخيصه بأن تقول : وضع الهي يرشد الى الحق في الاعتقادات ، والى الخير في السلوك والمعاملات . "٢"

أما عند النصارى فالدين عندهم " هو عبارة عن مجموع النواميس الضابطة

---

١) دراز ، محمد عبدالله . <u>الدين</u> — بحوث ممهده لدراسة تاريخ الأديان ص٢٦ ، القاهره ، مطبعة السعادة ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م .

٢) نفس المصدر ص٢٩

لنسبة الانسان الى الله ، أو بين صفات تلك النسبة "١".

وهناك تعريفات أخرى لبعض المفكرين :

فكانت "٢" يرى : بأن الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر الهية سامية . والدين عند هيجل "٣" : هو أسمى ما تصبو اليه الروح الانسانية في محاولة تحقيق كمالها ، وفي سبيل تحقيق المثل الأعلى للجمال .
أما تعريف (ماكس مولر) "٤" الذى يفترض فيه : أن الدين هو محاولة الى تعبير عما لا يمكن تصوره ، والتطلع الى الله باعتباره الكمال المطلق اللانهائي "٥".

أما الفلسفة :

فهى كلمة يونانية معربة ، معناها (الحكمة) . و (الفيلسوف) هو صاحب الفلسفة معرب أيضا ومعناه (محب الحكمة) "٦".

---

١) البستاني ، بطرس . كتاب دائرة المعارف ح ٨ ص ٢٣٧ ، بيروت ، دار المعرفة .
٢) كانت هو عمانوئيل كانت فيلسوف المانى ١٧٢٤ — ١٨٠٤م ولد فى مدينة كونفسبرغ الواقعة فى بروسيا ، وقد انحدر من عائلة فقيرة هاجرت من اسكتلندا وهى عائلة متدينة تراعي بدقة وصرامة الممارسة والمعتقدات الدينية ولاسيما أمه ، ولهذا فقد نشأ كانت متدينا . وفى عام ١٧٥٥ بدأ حياته كمحاضر فى جامعة كونفسبرغ . وفى عام ١٧٧٠ عين استاذا للمنطق والميتافيزيقا . راجع قصة الفلسفة ويل ديورانت ، ترجمة احمد الشيباني منشورات المكتبة الأهلية بيروت ص ٤٣٣ . وأيضا عبقرية العرب فى العلم والفلسفة عمر فروخ ص ١٠٨ طبعة ثانية المكتبة العلمية بيروت ١٩٥٢ .
٣) هيجل ١٧٧٠ — ١٨٣٠ فيلسوف المانى مثالي صاحب الجدلية المشهور درس فى جامعة هيدلبرج وجامعة برلين الى آخر حياته وكانت وفاته بالكوليرا
٤) ماكس مولر — ١٨٢٣ — ١٩٠٠ م مستشرق المانى قضى زمنا فى انجلترا وتجنس بالجنسية الانكليزية ، ولد فى ديساو بالمانيا وتعلم بها ثم فى ليبسيل وبرلين وباريس حيث انصرف الى دراسة علم اللغات والمقارنة بين الأديان . وله بحث فى أصل اللغة العربية وكيف تفرعت عنها لغتا افريقيا والحبشة . انظر الاعلام لخير الدين الزركلى ح ٥ ص ٢٤٧ .
٥) الخشاب ، احمد . الاجتماع الدينى مفاهيمه النظرية وتطبيقاته العملية ص ٧٥ — ٨٣ ، الطبعة الثانية دار الحمامى للطباعة ، ١٩٦٤ م .
٦) راجع الطرابلسى ، ظاهر احمد الزاوى . ترتيب القاموس المحيط ح ٢ ص ٥٩٧ طبعة أولى القاهره ، مطبعة الرسالة مصر ١٩٥٩م .

والفلسفة : علم يبحث في الوجود مجردا عن كل قيد ، وبقطع النظر عن كونه طبيعيا أو غير طبيعي ، أي يبحث في الوجود كما هو.

الجدليــــة :

الجدل في اللغة لفظ مشتق من (جدل) الحبل (يجدله ويجدله) من حدي ، ونصر ، وضرب . جدلا (أحكم فتله) فهو مجدول وجديل .. "١".

ويقول صاحب لسان العرب : " الجدل شدة الفتل ، وجدلت الحبل أجدله جدلا ، اذا شددت فتله ، وفتلته فتلا محكما " "٢".

وقد وردت معان كثيرة في القاموس لتصريف فعل (جدل) معظمها يتضمن معنى الاحكام والضبط والتماسك . اذ " الجيم والدال واللام أصل واحد ، وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه . وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام . " "٣"

ويبدو التقارب الشديد بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للكلمة اذا علمنا أنها تدل في الاصطلاح عن الكيفية التي نفهم بها كلام الخصم والبرهنة على صحة ما نعتقد ، ثم مناقشة الآخرين فيما لديهم من آراء ومعتقدات .

اذن فكلمة (جدل) تتضمن فن البرهان ، وفن دحض كلام الخصم ، لأن المجادل يدري كيف ينظم معرفته فيضعها في نظام متماسك ، كما يعرف بصفة خاصة كيف يجد أساسا منطقيا لآرائه ، كما أن المجادل يتميز ايضا بمقدرته على اكتشاف موطن الضعف في نظرية الخصم ، وادلائه بالحجج القاطعة التي تستطيع ان تحمل المعترض على السكوت.

---

١) الزبيدي ، محب الدين ابو الفيض السيد محمد مرتضى الحسني الواسطي . تاج العروس ج ٧ ص ٢٥٣ ـ الطبعة الأولى المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦هـ.

٢) ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم . لسان العرب ج ١١ ص ١٠٣ بيروت ، دار صادر للطباعة والنشر ، ودار بيروت للطباعة والنشر لبنان ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م.
راجع أيضا اسس البلاغة للزمخشري ص ٨٥ .

٣) ابن الحسين احمد بن فارس بن زكريا . معجم مقاييس اللغة ج ١ ص ٤٣٣ بتحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الاولى القاهره دار احياء الكتب العربية مصر ١٣٦٦ هـ.

وقد وردت مادة الجدل في القرآن الكريم في مواضع كثيرة منها قوله تعالى :
" وجادلهم بالتي هى أحسن " "١" . ومعناه جادلهم بالأسلوب الذى يفهمونه بدعوتك لهم الى آيات الله ، وحكمه وشرعه ، بالطريقة التى تراها أفضل وأقوم في ايصال دعوتك اليهم.

وقد نسبت فلسفة نفسها لهذا الاصطلاح ، مما أخرجها عن معناها الذى وضعت له ، فصار عند اطلاقها على هذه الفلسفة يراد منها شىء آخر وتصور مختلف.

ويمكننا موقتا أن نحدد الجدلية بأنها " نظرية اتحاد الاضداد " "٢" . وان أول من قال بذلك الفيلسوف الألمانى هيجل الذى قال : بأن المتناقضات موجودة فى أصول كل شىء ، وأنها ذات أهمية كبرى ، وذلك لأنه من طريق تعارضها وحده يتيسر تحقيق أى تقدم فى سبيل الوصول الى الحقيقة .

" الجدلية اذن هى فكرة ونقيضها ، ثم تآلف النقيضين . فالفكرة تؤيد القضية ، والنقيض ينكرها ، أو بتعبير أدق ينفيها . أما تآلف النقيضين فيحتضن ما هو حقيقى فى الفكرة ونقيضها . وبهذا يقربنا خطوة من الحقيقة . ولكن حالما يتعرض تآلف النقيضين الى فحص أدق نجدها هى أيضا ناقصة ، وهكذا تعود العملية كلها ، فتبدأ من جديد بفكرة أخرى ينفيها نقيضها ، ثم يجرى التوفيق بينهما بتآلف جديد للنقيضين ، وبهذه الطريقة المثلثة يمضى الفكر حتى نصل الى النهاية ، الى المطلق ، وعندئذ يمكننا أن نواصل التفكير الى ما لا نهاية دون أن نشهد أي تناقض " "٣"

تلك بداية الجدلية التى يعتبر رائدها بلا منازع الفيلسوف الالمانى الجدلى هيجل . ولا شك فان اى قارئ لهذه النظرة سيقف عند قضية تلاقى الأضداد مستغربا أو منكرا ، وهذا ما سيكون محور بحثنا ان شاء الله .

ولكن كارل ماركس صاحب المادية الجدلية الحديثة لم تعجبه نظرية هيجل

---

١) سورة النحل آية ١٢٥ .
٢) كاريو هنت . الشيوعية نظريا وعمليا ص ٢٨ دار الكتاب المصرى.
٣) نفس المصدر ونفس الصفحة .

وذلك لأن بحثها محصور في مجال الفكر فحسب ،فنبذ ها كارل ماركس واحتفظ بطريقته الجدلية فقط ،وقد عاب على نظام هيجل أخطاء كثيرة.

وقد ورد انتقاده الجوهري لهذا النظام ضمن عبارة مشهوره قالها فـــي مقدمة كتابه (رأس المال) في الجزء الأول منه مانصه : " ليست طريقتي الجدليـــة مختلفة فحسب عن طريقة هيجل ، وانما هي نقيضها المباشر . فهيجل يرى أن عملية التفكير هي (الخالق) للعالم الحقيقي ، والعالم الحقيقي ليس الا المظهرا لخارجي (للفكرة) ، أما أنا فأرى من ناحية أخرى أن المثل الأعلى ماهو الا العالم المـــادى الذى يعكسه العقل البشرى ، وتترجمه عبارات التفكير " "١" .

ان العالم الذى يجب ان يشتغل به الفيلسوف نفسه ،ويكون جديرا بالبحـث والتفسير عند كارل ماركس هو العالم المادى ، والوجود الواقعي الطبيعي . ولذلـك فقد جعل جدليته مادية خالصة ، بحيث اذا قيل مادية جدلية علم منها أنها تعبيـر عن نظرية كارل ماركس في تصوره للكون والانسان .

واننا نلاحظ أن هذا الاصطلاح الذى اصبح علما لعقيدة معينة في تفسير الواقع والتاريخ ، نجد أيضا أنها تسمى باسم المادية الديالكتيكية ، ومع أن الاشتقاقيـــن لكلا الاصطلاحين مختلف — جدل وديالكتيك — عن الآخر كل الاختلاف ، فقد درج بعض الكتاب — حين يعرضون للفلسفة الماركسية — الى تسميتها بالمادية الجدلية تارة وبالمادية الديالكتيكية تارة أخرى ، مع ان مقصدهم في الاطلاقين واحد .

ولذلك كله فلابد من الاشارة الى اصل اشتقاق كلمة ديالكتيك ، وكيـف صار استعمالها .

<u>الديالكتيـك :</u>

ان كلمة ديالكتيك ليست عربية في مادتها أصلا . " بل أخذت كلمة ديالكتيك من الكلمة اليونانية (دياليغو) ، ومعناها المجادلة والمحادثة "، وكان الديالكتيـــك

---

١) كارل ماركس . <u>راس المال</u> ،ج ١ عن كتاب كاريو هنت نفس المصدر ص١ ٤ .

يعنى فى عهد الأولين فن الوصول الى الحقيقة باكتشاف التناقضات التى يتضمنها استدلال الخصم ، والتغلب عليها ، وكان بعض الفلاسفة الأولين يعتبرون أن اكتشاف التناقضات والمصادمة بين الآراء هما خير وسيلة لاكتشاف الحقيقة .

فهذا هو الأسلوب الديالكتيكى فى التفكير الذى طبق فيما بعد على حوادث الطبيعة ، واصبح الطريقة الديالكتيكية لمعرفة الطبيعة ودراستها .

" ان حوادث الطبيعة بموجب هذه الطريقة متحركة متغيرة دائما وأبدا ، وتطور الطبيعة هو نتيجة تطور تناقضات الطبيعة ، نتيجة الفعل المتبادل بين القوى المتضادة فى الطبيعة " "١"

وقد قلنا سابقا ، انه لما كانت المادية الجدلية تعتبر المادة ـ الوجود ـ هى النقطة المركزية فى فلسفتها "٢" ، لأنها هى التى تحدد نظرتها الى الحياة وتنشئ لها منهجا خاصا للواقع ، لذلك فقد سميت فلسفة مادية ، وصارت تعرف فيما بعد بالفلسفة المادية الجدلية .

---

١) ستالين . المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ١٤ دار دمشق للطباعة والنشر .

٢) انظر صفحة رقم ٦

تمهيـــد عـــــام :

حول الظروف التي مهدت لقيام فلسفة مادية جدلية :

ان التفكير وحب المعرفة طبيعة في الانسان ، وأصل في كينونته ، الا أنه ليس كل فرد في المجموعة البشرية يعمل فكره ، ويسعى لمعرفة كنه الحقائق وسبرها •

فان الدهماء من الناس قد وقفت عند ادنى مبادئ المعرفة ، وأقرب غاياتها مكتفية من كل فصيلة من الظواهر الكونية المتشابهة بأن تلحظ من ورائها مبدأ يدفعها وينظمها ، ومن أمامها قبلة تتجه نحوها ، وقلما يعود هؤلاء الى السؤال عن منشأ كل واحد من هذه المبادئ ومآله ، أو الى السؤال عن مبدأ الكائنات الحية وغايـــة وجودها •

ومع ذلك كله فلم تعدم ساحة التاريخ في سائر اطوارها وجود مفكرين وفلاسفة ، لم يقفوا بالمعرفة عند غيبتها ، بل تجاوزوها الى سبر اغوارها وكشف اسرارها •

وقد اتخذ الفلاسفة والمفكرون من الكون والانسان موضوعا لفكرهم ومسرحـــا لتأملاتهم • وهم لم يكتفوا بدراسة هذه العوالم المحسوسة المشاهدة ، بل تجاوزوها الى أسبابها ودراسة غاياتها ، وفقا لطبيعة المعرفة وخصائصها •

بيد أن هذه العقول في تصورها للحقائق الكبرى لم تكن على درجة واحـــدة من الاتفاق والوحدة ، بل كانت مختلفة مضطربة ، حيث تصرفت العقول على انحـــاء شتى ، حتى صار التفكير الفلسفي فنا من الفنون ، تابعا للذوق الشخصي ، والتجربـــة الذاتية • وزاع الشك في امكان الوصول الى حقيقة مشتركة ، ولكن ما لهذا فكر العقـــل ، ولا بهذا يمكن أن يقتنع ، فلم يفكر الانسان الا ليعلم أي طريق يسلك في الحياة •

اختـــلاف فـــي التصـــور :

واذا أردنا أن نوضح هذا الحكم ، فلنضرب لذلك أمثلة لتصورات بعـــض الفلاسفة والمفكرين للكون والانسان ، وما وراء الطبيعة بغية ان نضع اصابعنا على محال اختلافهم واضطرابهم•

أما في الحضارة اليونانية : فاننا نجد أن افلاطون "١" مثلا قال بعالم المثل حيث " حاول فيه افلاطون ان يتخيل نظاما للوجود ، وأن يرد أعمال البشر وسلوكهم الى مقاييس من الخير والجمال • لقد اراد ان يرى العالم كما يجب ان يكون ، لا كما هو فعلا ، كأنهم في عالم أمثل مجردون عن عواطفهم ، معزولون عن بيئتهم ، لا كما تملى عليهم حاجاتهم الطبيعية والاجتماعية ••• "٢" ومما اشتهر عن افلاطون تصوره للمدينة الفاضلة التي تخيلها كصورة مثالية للدولة ، يتراوح سكانها بين اربعة آلاف وستة آلاف نسمة • ينقسمون الى ثلاث طبقات : الأولى طبقة الحكام وهم الفلاسفة ، والطبقة الثانية — الحماة (الجند) وهم المحاربون الذين يدفعون العدو الخارجي عن المدينة ، والطبقة الثالثة ، أصحاب الأعمال ، وهم الزراع والصناع والتجار ، الذين يقدمون للحكام وللحماة اسباب العيش المادي من مطعم وملبس ومسكن ومال • "٣"

أما عن الصورة والمادة فقال : " ان كل شيء في العالم الذي نعيش فيه مؤلف من (صورة) ، ومن (مادة) • فالمادة هي الشيء القاسي الذي تتألف منه الأجسام المختلفة ، فالخشب مادة الطاولة والباب ، والطين مادة الابريق •• الخ فالمادة

---

١) افلاطون : ٤٢٧ — ٣٤٧ ق م — ولد في اثينا موطن اسرته كان في اول امره شاعرا ، ثم اختص بالفلسفة ، وبعد موت سقراط غادر افلاطون اثينا • ثم حمله الاضطراب السياسي في اليونان كلها الى ان يترك اثينا مرات أخرى زار في اثنائها مصر وايطاليا وصقلية • ثم استقر نهائيا في اثينا حيث توفى • راجع تاريخ الفكر العربي الى أيام ابن خلدون لعمر فروخ ص٩٧ وأيضا جمهورية أفلاطون تأليف نظله الحكيم ومحمد مظهر سعيد •

٢) فروخ ، عمر • تاريخ الفكر العربي الى ايام ابن خلدون ص٩٧ بيروت طبعة دار العلم للملايين لبنان ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م •

٣) راجع عمر فروخ نفس المصدر ص١٠٣ وايضا جمهورية افلاطون لنظله الحكيم ومحمد مظهر سعيد •
القاهره دار المعارف مصر ١٩٦٣ •

فى الطاولة والكرسى وحدة هى الخشب أو الحديد ، لكن الصورة مختلفة . انها فى الكرسى غيرها فى الباب ، وهى فى الباب مخالفة للطاولة ، ولابد من القول بأن المادة والصورة فى عالمنا تكونان دائما متلازمتين لاتفترقان أبدا .

أما الله ونشأة العالم فى نظر افلاطون ، فانه لم يجمع الكلام على الله ولا على نشأة العالم الطبيعى فى مكان واحد ، ولا هو عالج الالوهية ونشأة العالم بكلام بات أوقول واضح " ١ " .

أما ارسطو " ٢ " فانه يرى : أن ثمة عالما حقيقيا واحدا هو العالم الذى نعيش فيه ، ان هذا العالم غير متكامل ، وان كان فى صورته الحاضرة على اتم مايمكن ان يكون وهو ابدا فى تطور تصاعدى نحو الكمال .

والعالم بمادته قديم ، موجود منذ الأزل لم يكن ثمة زمن سابق عليه ، وذلك لأننا لانستطيع ان نبحث فى هذا العالم الا اذا افترضنا ان المادة موجودة منذ الأزل . وأن الموجود الحقيقى هو الشئ نفسه كما هو فى عالمنا لا صورته المثلى فى الملأ الأعلى على مارأى افلاطون .

وأقدم أشكال الوجود عند ارسطو الهيولى " ٣ " أو المادة الأولى ، وهذه الهيولى

---

١) عمر فروخ . نفس المصدر ص ٩٩ .

٢) ارسطو — ٣٦٧ — ٣٢٢ ق . م — اشتهر باسم ارسطوطاليس حكيم اليونان ، وهو من اهل اسطاغيرا فى تراقية . وقد تلقى العلم فى بداية حياته على افلاطون ومكث فى ذلك عشرين عاما . وبعد موت افلاطون ذهب ارسطو الى البلاط المقدونى وأصبح (٣٤٢ ق . م) مؤدب الاسكندر بن فيليبس الذى اشتهر فيما بعد بالاسكندر المقدونى (الكبير) ذى القرنين . ولما اصبح الاسكندر ملكا (٣٣٦ ق . م) رجع ارسطو الى اسطاغيرا ثم الى اثينة واسس هناك دار التعليم المنسوبة الى الفلاسفة المشائين والتى لم تعمر اكثر من اثنى عشر عاما . وبعد موت الاسكندر وانقلاب الاثينيين على المقدونيين اتهم ارسطو بالالحاد ، فانسحب الى اسطاغيرا وهنالك توفى بعد ذلك بقليل ، راجع عمر فروخ نفس المصدر ص ١٠٧ .

٣) الهيولى : لفظ يونانى بمعنى الأصل والمادة ، واصطلاحا جوهر فى الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال ، ومحل للصورتين الجسمية والنوعية راجع تاج العروس للزبيدى ج ٨ ص ١٧٧ .

أزلية ليس لها بدء ، وليس ثمة زمان سابق على وجودها ، على أنها في شكلها الأزلي الأول كانت فوضى لا (صور خاصة لها) ، ثم اخذت هذه الهيولى تتطور فتنوعت ، وبدأت تظهر فيها صورة بدائية لم تكن بعد متحيزة في مكان ، ولكنها كانت على كل حال متميزة بذاتها ، فنشأت العناصر ، ثم مرت بمراحل متعددة حتى نشأت منها الأجسام التي اصبح كل واحد منها متحيزا في مكان خاص ومتميزا عن كل ماعداه بحجمه وماهيته .

أما قوله فيما وراء الطبيعة : فهو يرى أن كل خروج من القوة الى الفعل محتاج الى محرك بالفعل . فاذا كان لكل جسم بمفرده محرك ، فيجب ان يكون لهذا العالم بجملته محرك ايضا ، ولكن هذا الأول مفارق للمادة غير متصل بها ، فهو صورة مطلقة وبما أنه صورة مطلقة بريئة من المادة فهو اذن برئ من التكثر والتنوع ، وهو يحرك العالم بعقله من غير ان يتحرك هو أو يجهد ، اذ ليس خارج ذاته غاية يتحرك اليها بل هو الغاية القصوى المطلقة التي يتشوق كل شئ اليها ، ويتحرك نحوها وينجذب الى الكمال ، وعلى هذا فالله عند ارسطو هو محرك العالم ، وأما العالم فهو موجود دائما ولن ينعدم وهو يتطور دائما : صعودا نحو الكمال "١"

أما الفلسفة العقلانية الغربية فهي وان كانت بدورها وريثة للحضارة اليونانية في اتجاهها العقلاني ، لكن الاتجاه العقلي الذي سارت فيه الحضارة الغربية كان الأصل فيه الصراع مع الكنيسة ، اذ لم يجد الفلاسفة الغربيون الا العقل الانساني ليؤكدوا من خلاله استقلال الانسان الفرد عن الدين ، وأصبح العقل في الانسان رمزا للحرية .

وجاء ديكارت "٢" الفرنسي وكانت اول عبارة نادى بها (العقل أعدل الاشياء

---

١) عمر فروخ . نفس المصدر مقتطفات من ص ١١٣ — ١١٤ — ١١٥ .

٢) ديكارت : ١٥٩٦ — ١٦٥٠ م واسمه رنى ديكارت ، ولد بلاهى من أعمال مقاطعة تورين بفرنسا . دخل في اول حياته مدرسة (لافاليش) للآباء اليسوعيين التي يغلب عليها الطابع الفلسفي ثم غادرها بعد ثماني سنوات ، وبعد اربع سنوات اخرى نال الاجازة في القانون — بعدها تطوع للخدمة في جيش الأمير موريس دى ناسو بهولانده حليفة فرنسا على اسبانيا ثم عدل عن المهنة العسكرية للعمل في معالجة المسائل الطبيعيه بالطريقة الرياضية وتجريدها من المبادئ الفلسفية راجع تاريخ الفلسفة الحديثة ليوسف كرم ص ٥٦ .

قسمة بين الناس) • ولذلك فقد اسس ديكارت الوجود على الفكر فقال : (انا أفكر فانا اذن موجود) • فالافكار دليل معرفتى بوجود الأشياء ووجود الآخرين كذلك • فانا لا اعرف ان هذا الكرسى الذى أجلس عليه الآن موجود بمادته التى صنع منها ، والتى تصطدم بيدى عندما أمسك به محاولا تحريكه ، بل اعرفه بامتداده العقلى ، أو بصورته الذهنية فى عقلى باعتباره جسما • ان كل جسم لابد أن يكون ممتدا أولا بعد أن يشغل حيزا فى مكان ما • فبالاضافة الى أنه جعل العقل الانسانى رمزا لحرية الانسان تجاه الكنيسة ، فقد جعله ايضا رمزا الى الحرية فى مقابل الحتمية فى عالم الطبيعة أو عالم المادة•

أما كانت "١" فقد رأى أن وجود الله من المسائل الشائكة (أو من النقائض) التى لا يستطيع المرء ان يقطع فيها برأى لأنه ليس من عالم الظواهر التى ينبغى للفيلسوف أن يحصر نفسه فيه • "٢"

ومقابل الفلسفة العقلانية الغربية تقف الفلسفة المادية والتى تقول : " تقنعنا الحياة اليومية ان العالم موجود بشكل موضوعى مستقلا عن الانسان وادراكه واحساسيسه ورغباته • اذ ان الأرض قد نشأت قبل ظهور الانسان والكائنات الحية بوقت طويل • فالمادة هى كل مايحيط بنا ، وهى العالم المادى الخارجى غير المحدود ، الذى يؤثر على أعضاء حواسنا ، ويسبب الاحساسيس ، والمادة كذلك من صفاتها انها ابدية وجدت دائما منذ الأزل ، وهى لم تنشأ أبدا ، وجدت دائما ، وستوجد دائما فهى ابدية ولهذا لا يمكن ان تخلق ، فلا يمكن ان يخلق مالا يمكن افناؤه ، ومثلها الزمان والمكان فهما ابديان • "٣"

---

١) كانت مرت ترجمته فى ص٣ من هذا البحث •

٢) هويدى ، يحى عن مذكرة المذاهب الفكرية المعاصرة من مقررات السنة الأولى فرع العقيدة بقسم الدراسات العليا بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة لعام ١٣٩٣هـ — ١٩٧٣م•

٣) سبيركين ، وياخوت • اسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ٤٤ ترجمة محمد الجندى ، دار التقدم موسكو•

لذلك فقد كان البحث فيما وراء الطبيعة أو المادة ، وهما وخرافة ، ولا يقدم لنا أي معرفة ، أو حقائق يقينية ، وانما هي تخيلات واوهام من صنع الانسان في فترة من فترات تطور البشرية والتي نظمتها واشاعتها بعض طبقات المجتمع تمشيا مع منافعها ومصالحها الشخصية •

وهكذا نكون قد استطعنا ان نلم بشيء ما عن صورة الاضطراب والتعارض بين وجهات النظر المختلفة للفلاسفة والمفكرين في تصورهم للكون والانسان وما وراء الطبيعة مما حدا ببعض الفلاسفة المعاصرين الى ان يسجلوا احساسهم المريب بقيمة تلك النتائج والتصورات • ولنسمع الى تقرير للفيلسوف جود "١" ، الذي هو أحد الفلاسفة المعاصرين من حالة الاضطراب والضياع التي آل اليها الفكر البشري فيقول : لقد كانت وجهة النظر في القرن التاسع عشر تنحو الى الظن باننا قد اشرفنا على بلوغ اقصى ما يمكن من اكتمال الفهم للانسان وللكون ، اما في الوقت الحاضر فقد اخذنا نكتشف جهلنا نسبيا بكليهما • فقد ظهر ان كثيرا من المعلومات التي جمعت قبلا انما هي معلومات مضللة ، وأصبحنا نميل الى القيام بتجربة أساليب جديدة حيثما فشلت الأساليب القديمة • لقد كان المظنون في القرن التاسع عشر ان الحضارة الأوربية قد بلغت تمام نضجها واكتمالها ، وانها التعبير الاخير والكلمة النهائية للعقل البشري ، وقد ادركنا الآن انها لا تزال في صباها لم تكتمل بعد ، بل لا يزال الجنس البشري عامة في مرحلة الطفولة ، فكأنه فيما حققه الى الآن لم يتجاوز دور الحبو الا الى دور الخطوات المتعثرة التي تسبق المشي ، والتي هي ليست المشي بتمامه •

---

١) جود سي ، أي ، ام • ولد الاستاذ جود من ابوين انكليزيين سنة ١٨٩٠م درس في الثانوية في مدرسة بلندسرشم في كلية بوليول في اكسفورد حيث درس التاريخ والفلسفة • شهار رئيس قسم الفلسفة وعلم النفس في كلية (بربيك) في جامعة لندن ١٩٣٠ ، وقد منحته الجامعة شهادة الدكتوراه عام ١٩٣٦ • ومن مؤلفاته ، (النابهون) وهي قصة روائية هجا فيها القابيين هجاء مرا • و (الدليل على الفكر الحديث) و (تحت الضلع الخامس) و (الدليل على دراسة الاخلاق والسياسة) و (الدليل والفلسفة) و (المدخل الى الفلسفة الحديثة) و (كتاب جود وميثاق جود) و (جوانب فلسفية للعلم الحديث) و (فلسفة عصرنا) وكتابه الاخير (الله والشر) وهذا الكتاب يبين رجوع جود الى الدين واتخاذه اياه موضع آماله وايمانه •
راجع مقدمة المدخل الى الفلسفة الحديثة لجود ترجمة كريم متى مطبعة الرابطة بغداد ١٩٥٠م •

الى أن يقول : ان الفكر الحديث ، من ناحية ثانية يتصف بنزعة من الشك فى أحكامه ، واستنتاجاته ،ينتج عنها ميل الى الحرية والانطلاق فى امتحان مختلف الفرضيات وتمحيصها • فالكون كما يبدو لنا نحن المحدثين ملئ بالغموض والأسرار الخفية خلافا لنظرة القرن التاسع عشر • لقد أصبحنا نشعر بضآلة معارفنا على أنه كلما ضاقت حدود المعرفة المقررة ،اتسعت ميادين النظر الى الاحتمالات الممكنة وأوغل الخيال فى تصورها ، ولا تتعلق شكوكنا فى الاحكام التى تقررها فحسب ،بل تتجاوز ذلك الى أساليب البحث فى الوصول اليها •

ومن هنا تستولى على الناس رغبة ملحة فى ارتياد مختلف السبل لفهم طبيعة الكون فى جوانبه المتعددة ،سواء من طريق العلم أو الفن أو من طريق النشوات الدينية فى حالات العبادة• وليس ذلك فقط ،بل هناك رغبة ضمن نطاق الدراسات العلمية نفسها فى التجريب بمختلف مناهج البحث ،مع استخدام أدوات جديدة لهذا الغرض ، فنحن نسعى الى فهم الكون من جوانب متعددة وأساليب متباينة •

ويبدو لدى المتأمل أمرا لا مفر منه ،ذلك أنه كلما اتسعت دائرة معارفنا مست أمورا لا تزال خافية علينا ، وبذلك يزداد شعورنا بالجهل ••• وشبيه بذلك ماحصل فى ميدان الدين ، فان الشك فى العقائد الدينية التقليدية يقترن بالاهتمام الذى يتزايد شيئا فشيئا بالنظرة الدينية للكون عامة ، وبالاعتقاد بأن العلم لا يلزم أن يكون قد قال كلمته الأخيرة بعد " "١"

<u>لابـد مـن تصـور صحيـح :</u>

ان الباحث المنصف يقف حيال تلك الآراء والمذاهب موقف المتسائل عن وحدة قياسية يسبر بها غور هذا السيل العارم من التصورات ، ثم ليرى أقربها الى الحق والصواب فيأخذه ويعتنقه ، وماخالف ذلك منه يجتنبه ويتركه•

والحقيقة " ان الحركة قانون من قوانين هذا الكون — فيما يبدو — وهو كذلك قانون الحياة البشرية — بوصفها قطاعا من الحياة الكونية — ولكنها ليست حركة مطلقة

---

(١) جود ،<u>منازع الفكر الحديث</u>• عربه عباس فضلى خماش ، ونقح الترجمة عبد العزيز البسام ص١٦ — ١٧ — طبعة المجمع العلمى العراقى ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م

من كل قيد ، وليست حركة بغير ضابط ولا نظام . فلكل نجم ولكل كوكب فلكه ومداره ، وله كذلك محوره الذى يدور عليه فى هذا المدار . وكذلك البشرية لابد لها من محور ثابت ولابد لها من فلك تدور فيه والا انتهت الى الفوضى والى الدمار ، كما لو انفلتت نجم من مداره أو ظل يغير محوره بلا ضابط ولا نظام " . "١"

ومن ثم كان هذا المحور وهذا الفلك من وضع خالق النفس البشرية . انه تصوير ربانى ثابت للكون والانسان . تدور الحياة البشرية حوله وتتحرك فى اطاره ، وهو مصنوع بحيث يسعها دائما ويشدها دائما ، وهى تنمو وترتقى وهى فى تطورها وتحركها الى الأمام .

ومن ثم فقد كان هذا المنهج الربانى متكاملا من جميع جوانبه لا يقبل تنمية ولا تكميلا ، لأنه من صنع الله ، ولا يتناسق معه ما هو من صنع غيره من اضافة او تعديل ، وهو من ناحية أخرى تصور شامل لكل جوانب الوجود المختلفة ومنظور فيه الى جميع مراحل تطور الادراك البشرى وسبل معرفته.

ان صانع هذا المنهاج هو صانع الانسان ، ولهذا فهو الميزان الوحيد ، والصراط المستقيم الذى يرجع اليه الانسان فى كل مكان وفى كل زمان ، بتصوراته وقيمه ومناهجه ونظمه ، وليس هناك ميزان آخر يرجع اليه سواه ، وهو اذ يتلقى هذا المنهاج القويم يكيف به عقله وقلبه ، ويطبع به شعوره وسلوكه ، ويرجع اليه فى كل أمر يعرض له ، حتى يأمن من غوائل الضلال ونزغات الهوى . قال سبحانه :

" فان تنازعتم فى شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا " "٢" .

ان تنكب هذا السبيل والابتعاد عنه وتجاهله سبب فى الضلال وبعد فى أغوار الشقاء والضياع الذى نلحظه فى الجاهليات القديمة والحديثة منها على السواء ، ان انحراف البشرية عن منهج الله يتشابه قديمه وحديثه ، وهو لا يعدو انحرافا عن الصراط

---

١) قطب ، سيد . خصائص التصور الاسلامى ومقوماته ص ٤٦ ، الطبعة الثانية ، دار احياء الكتب العربية ١٩٦٥م.

٢) سورة النساء آية ٥٩ .

الذى رسمه الخالق جل شأنه " أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ؟ " "١"

ديانات محرفة :

ولماكان محور بحثنا عن المادية الجدلية التى نبتت وترعرعت فى اعماق اوربا ورويت من معين ثقافاتها وتصوراتها ، لذا فقد كان جديرا بنا ونحن نكتب عن هذا الفكر فى تاريخ أوربا أن نلمح ولو بفكرة موجزة الى الحالة الفكرية والعقائدية فى اواخر العصور الوسطى واوائل عصر النهضة — كما يسمونه — وماكان للكنيسة المسيحية التى تمثل سلطان الدين فى الغرب وقتئذ من اثر بالغ فى ظهور تيارات منحرفة فى تاريخ الفكر الاوربى بعد عصر التحرر من قيود الكنيسة وما تدعو اليه .

اذ المعروف ان الدين اليهودى "٢" دين مغلق منطو على نفسه ، بدافع من الدعوة العنصرية لشعب الله المختار — كما يسمون أنفسهم — فان اليهود لم يفكروا يوما ما فى نشر ديانتهم فى أوساط المجتمعات الأوربية ، لذلك فلم يكن له الأثر الظاهر فى تطوير الحياة الأوربية كدين منفصل له ميزاته وخصائصه .

وان الوثنية بمعناها العرفى قد اختفى اثرها خلال القرون الوسطى فى تلك المجتمعات ، ومع ذلك فان المؤرخين الاوربيين يكادون يجمعون على ان الدين هو المسيطر طيلة هذه الحقبة من تاريخ اوربا . انه الدين النصرانى — دين الكنيسة .

وان كانت لا تعنينا تلك التفاصيل التى مرت فيها العقيدة المسيحية ابان تحريفها عن وضعها الالهى الخالص ، لكن الذى يعنينا منها فقط هو الوضع الذى كانت عليه الكنيسة المسيحية ورجالها فى أواخر العصور الوسطى واوائل عصر النهضة ، والذى كان أرضا صالحة لظهور تلك الأفكار والآراء ، والتى نحن بصدد الحديث عن واحد منها .

---

١) سورة الملك آية ٢٢

٢) واليهودية دين محرف سواء فى العقيدة أو الشريعة ، ففى العقيدة فانهم يشبهون الخالق سبحانه بصفات المخلوقين ، وهولهم دون غيرهم ، ثم صوروا الأنبياء بأبشع الصور واقذرها ، وأيضا فان التوراة يكاد يخلو تماما من ذكر الآخرة ، فالنعيم هو نعيم الدنيا والشقاء هو شقاء هذه الحياة أيضا .

ان الدين النصراني — ككل دين منزل من عند الله — عقيدة وشريعة ، وان كان لم يأت بتفصيلات تشريعية فذلك لأن شريعته الأساسية كانت هي التوراة مع التعديلات الطفيفة التي نزلت على عيسى عليه السلام في الانجيل " ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم " "١" .

فكان المفهوم الطبيعي للمسيحية أن تحكم بشريعة الله في التوراة مع مراعاة التعديلات الواردة في الانجيل ، وفعلا فقد بدأت الكنيسة حاكمة في أول امرها فترة طويلة من الزمن ، وكان لها كل الحق في السلطة الزمنية من تعيين الملوك ، وقيادة الجيوش ، واعلان الحروب ، وابرام المعاهدات .

ولكنها عندما تسلمت هذا الحق الالهي ، لم تحكم فيه بما انزل الله ، بل كانت تستغله كوسيلة للتسلط والقهر والاستعباد ، لقد تواطأت مع الاقطاع ، تبارك تصرفاته وتحمدها ، وتواسي المظلومين ، والبائسين ، الذين كانوا يرزحون تحت نير ظلم المستغلين ، فتعدهم بجنة الخلد التي لا تفنى ، والنعيم الذي لا يبلى ، لقاء صبرهم ، واحتسابهم على ما يلقونه من سوء حالهم وبؤس مصيرهم .

لذلك كله فقد قامت الشعوب الأوربية معلنة الحرب على الكنيسة ومناديسة باقصائها عن مركزا لقيادة مدعين ان الدين لا علاقة له بالحكم ، ومنذ ذلك الحين فقد فصل الدين عن الحكم ، الذي كان السبب الوحيد فيه سوء تصرف الكنيسة ورجالها في هذا الحق الالهي .

ولهذا فقد تركت الكنيسة الحكم مرغمة ، وتزعمت السلطة الروحية التي وكل أمرها اليها ، أما السلطة الزمنية فقد آلت الى الملوك والأمراء .

أما العقيدة ، فقد حرفت عن وضعها الالهي الخالص : عقيدة التوحيد ، الى عقيدة التثليث ، الآب والابن وروح القدس آلهة ثلاثة .

ولم تقرر عقيدة التثليث دفعة واحدة بل مرت بمراحل كان أولها مجمع نيقية سنة خمس وعشرين وثلاثمائة ميلادية ، في زمن الامبراطور قسطنطين الأكبر ، حيث تقرر فيه

---

١) سورة آل عمران آية ٥٠

ألوهية المسيح ، وثانيها مجمع القسطنطينية سنة واحد وثمانين وثلاثمائة ميلادية ، الذي تقرر فيه ألوهية روح القدس . " ١ "

وبهذا فقد تم تقرير عقيدة التثليث كاملا تعتنقها الكنيسة وتدعو اليها ، ولا يجد العقل البشري الى فهمها سبيلا ، بل يسلم بها تسليما من غير مناقشة أو مجادلة .

ومن ذلك الحين كانت الكنيسة بعقيدتها هذه تمثل السيطرة على الجانب الروحي في نفوس المسيحيين ، وعلاوة على ذلك فقد ادعت الكنيسة ورجال الكهنوت فيها لأنفسهم حق التوسط بين الله والناس ، وابتدعت صكوك الغفران ، والاعتراف امام الكاهن ، ولم تكتف بذلك ، بل راحت تفرض على الناس ضرائب مالية وعقلية فادحة ، فالعشور والاتاوات والعمل المجاني في اراضي الكنيسة الاقطاعية ، والتجنيد في جيوشها التي تحارب الملوك والعصاة ، وتؤدبهم والخضوع المذل لرجال الدين الذي يبلغ حد السجود في الأرض الموحلة عند مرور أحد من رجال الكهنوت . " ٢ "

مقاومة الكنيسة للعلم :

وحدث أن الكنيسة قد اعتنقت بعض النظريات العلمية على انها مقدسة لا يجوز مخالفتها ، ولما اثبت العلم والتجريب بطلان هذه النظريات على يد كوبرنك " ٣ " و جاليليو " ٤ " وغيرهم ، راحت الكنيسة تعذبهم حتى يموتوا أو يرتدوا عما هم فيه . وهكذا

---

١) راجع الأب بولس الياس ، يسوع المسيح ص ١٧ — عن كتاب مقارنة الأديان (المسيحية) احمد شلبي ص ٨٥ ، وأيضا الأب بولس الياس في كتابه الانجيل والصليب من احمد شلبي نفس المصدر ، وأيضا الشهرستاني الملل والنحل ج ١ ص ٢٢٣ .

٢) قطب ، محمد . جاهلية القرن العشرين ص ٣٤ ، مكتبة وهبه القاهره ١٩٦٤ .

٣) نقولا كوبرنيك : ١٤٧٣ — ١٥٤٣ م . فلكي بولندي واضع نظرية دوران الأرض والكواكب حول الشمس ، التي على اساسها بني علم الفلك الحديث ، وقد اهدى هذا البحث الى البابا بول الثالث ، ولكنه لم ينشر الا في ١٥٤٣ في اخريات ايام كوبرنيك .

٤) جليلو : ١٥٦٤ — ١٦٤٢ م . ولد بمدينة بيزا من أعمال ايطاليا ، ودرس الطب بجامعتها ، وفي الوقت نفسه كان يتلقى الفلسفة والرياضيات والفلك ، ثم أصبح استاذا في الجامعة عام ١٥٨٩ م ، وفي سنة ١٦٠٩ م صنع التلسكوب وله كتاب بعنوان " رسول من النجوم " .

فقد حاربت الكنيسة العلم ، لأن الجهالة سندها الأكبر في الاحتفاظ بسلطانها على الجماهير • ويوم تتعلم الجماهير ان ما تلقنه اياها الكنيسة يشتمل على الأساطير ، والخرافات التي لا تثبت للمناقشة والبحث ، يومئذ لن تسلم الجماهير قيادتهـا للكنيسة بالسهولة التي يتم بها الأمر في ظل الجهالة والظلام •

ويذكر هـ ـ ج ـ ولز في معرض حديثه عن حال الكنيسة ورجالها في العصور الوسطى اذ يقول : " ونظرا لأن كثيرا منهم (الاساقفة والقساوسة) كانوا علـى الأرجح يسرون الريبة في سلامة بنيان مبادئهم الضخم المحكم ، وصحته المطلقـة ، لم يسمحوا بأية مناقشة فيه ، كانوا لا يحتملون أسئلة ولا يتسامحون في مخالفة ، • • • وقد تجلى في الكنيسة عندما وافى القرن الثالث عشر ما يساورها من قلق قاتل حول الشكوك التي تنخر بناء مدعياتها بأكمله ، وقد تجعله اثرا بعد عين • فلم تكن تستشعر أى اطمئنان نفسي ، وكانت تتصيد الهراطقة في كل مكان • • • كان هذا التعصب الأسود القاسي روحا خبيثا لا يجوز ان يخالط مشروع حكم الله في الأرض ، وأنه لروح يتعارض تماما مع روح عيسى الناصري " [1] ، فما سمعنا قط أنه لطم الوجوه ، أو خلع المعاصم لتلاميذه المخالفين أو غير المستجيبين لدعوته ، ولكن البابوات كانوا طوال قرون سلطانهم في حنق مقيم ضد من تحدثه نفسه بأهون تأمل في كفاية الكنيسة الذهنية ، ولو أن هذا التعصب نشأ عن عمق يقيني حقيقي لكان فيه من السوء ما فيه ، ولكن كان يصحبه عنصر لا يكاد يستتر من الاحتقار للذكاء والكرامة العقلية •

وكانت خاتمة حماقتها في القرن السادس عشر بيع (صكـوك الغفران) التي يمكن افتداء الروح من عذاب التطهير بدفعة مالية • • • وكان يخيم على المسيحيـة شعور واضح القوة يوحى الى الناس بأن حال الجو الروحاني ليس على ما يرام ، ثـم ابتدأت داخل الكنيسة الحركات ، والتي كانت تضمر في نفسها النقد لكفاية طرائقها وتنظيماتها القائمة أكثر مما تنطق به ، وعندئذ أخذ الناس يلتمسون اشكالا جديدة من حياة البر والهدى خارج الأديرة وصفوف الكهنوت • الى أن يقول : " وقد نظمـت محاكم التفتيش كأداة تحقيق مستديمة تحت ادارتهم ، وبهذه الاداة نصبت الكنيسـة

---

(١) نسبة الى مدينة في فلسطين واسمها الناصرة يقال ان المسيح نشأ فيها •

نفسها لمهاجمة الضمير الانسانى بالنار والعذاب وعملت على اضعافه مع أنه مناط عملها الوحيد فى السيادة على العالم ، وقبيل القرن الثالث عشر لم تنزل عقوبة الاعدام الا نادرا بالملاحدة والكفار ، فأما الآن فان كبار رجال الكنيسة كانوا يقفون فى ساحات الأسواق فى اوربا ليراقبوا اجسام اعدائها — وهم فى غالبية الأمر قوم فقراء لاوزن لهم — تحترق بالنار ، وتخمد انفاسهم بحالة محزنة ، وتحترق وتخمد معهم فى نفس الحين الرسالة العظمى لرجال الكنيسة الى البشرية فتصبح رمادا تذروه الرياح " [١] .

فلاعجب اذن — والكنيسة فى حالتها هذه — من حدوث الصراع بين الكنيسة والعلم التجريبى ، وان يؤمن الناس بما يثبته العلم ، ويكفروا بما تقوله الكنيسة ، وان ينتهزوا هذه الفرصة السانحة ليقفوا فى وجه طغيانها وسطوتها ، وأن يعيدوا النظر مجددا فى مبادئها وتعاليمها ، وقد امسكوا بأيديهم السلاح الذى يحطمون به أوهامها ، ويزلزلون كيانها ، وينزعون قداستها من نفوس المؤمنين بها ، وقد كان ذلك السلاح الجبار هو العلم ، ومن هنا نشأ الصراع بين العلم والدين فى أوربا .

حركات اصلاحية داخل الكنيسة وخارجها :

ان غياب العقيدة الصحيحة وأفولها من مسرح الحياة الأوربية ، لايعنى جمود الفكر وخموله ، بل ان الفكر حسب طبيعته سيجرى خلف كل ما يظنه سبيلا للحق والهدى ، ولكن انى لهم ذلك السبيل بعد ان فقدوا معالم المحور الربانى الذى كان يجب ان يدور العقل حوله ويحلق فى فلكه . " والذى خبث لا يخرج الا نكدا " [٢]

على أن شرود اوربا من نير الكنيسة ومن سلطان الدين لم يحدث طفرة واحدة ، بل تدرج فى مراحل ثلاث ، بدأت بالاصلاح الدينى الذى تلاه عصر التنوير ، ثم عصر المادية أو المذهب الواقعى . ولم يهدأ هذا الشرود الا فى مطلع القرن العشرين حيث جعل بعضهم يقف ليسترجع أنفاسه اللاهثة ، وهو يحس بالخواء

---

١) ولز ، هـ . جـ . معالم تاريخ الانسانية ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الثالثة ج ٣ ص ٩٨٥

٢) سورة الاعراف آية ٥٨ .

الروحي يملأ حياته من آثار الرحلة الجاهدة نحو أربعة قرون ·

ان الكفاح الذي بدأه (فرنسيس الأسيسي) "١" و (ويكليف) "٢" والتي يسمونها بالحركات الانتعاشية داخل الكنيسة " سرعان ما اصبح كفاحا ناشبا بين ما نسميه الديانة العقلانية ، أو ديانة الرجل العلماني التي اخذت تحتكم الى ما للبشرية من ذكاء حر وضمير حر ، وبين الديانة المستبدة ، التقليدية الطقوسية الكهنوتية ، وكان الاتجاه النهائي في هذا الكفاح المعقد هو تجريد المسيحية حتى تصبح كالاسلام عارية تماما من كل اثر من آثار الكهانة العتيقة ، والانقلاب الى وثائق الكتاب المقدس بوصفها حجة يستند اليها ، والى استرجاع تعاليم يسوع الناصري الأصلية ان كان ذلك في الامكان · "٣"

وقد تمخض هذا الحال عن ظهور النزعة البروتستانتية التي نادت بالاصلاح الديني على يد " مارتن لوثر " "٤" في المانيا و (جان كالفان) "٥" في فرنسا

---

١) فرنسيس الأسيسي ١١٨١ — ١٢٢٦ ، ايطالي كان شابا ظريفا مترفا في اول حياته ثم انصرف الى الله اذ أصابه تحول فجائي الى الهداية ، وهب نفسه لحياة تشبه حياة المسيح ، ولخدمة المرضى والمصابين بالبرص خاصة الذين كانوا يكثرون في ايطاليا وقتئذ ·

٢) ويكليف (١٣٢٠ — ١٣٨٤) كان قسيسا عالما في اكسفورد ثم اشتغل بالتدريس في كلية (باليون) وتولى مناصب متنوعة في الكنيسة ثم شرع وقد علت به السن يوجه سلسلة من النقد الصريح الى ماعليه رجال الدين من مفاسد وماعليه الكنيسة من الحماقة ·

٣) ولز ، هج المرجع السابق ج ٣ ص ٩٧٨ ·

٤) مارتن لوثر ١٤٨٣ — ١٥٤٦ — زعيم الاصلاح البروتستانتي الماني الأصل نال شهادة استاذ في العلوم من جامعة ايدفورت (١٥٠٥) وبدأ يدرس القانون ، ثم تحول عنه — ودخل ديرا للرهبان الا غسطينيين حيث رسم قسيسا ١٥٠٧ م ثم عين لرعاية كنيسة فتنبرغ بالمانيا ، ثم اخذ يضع خططا لاصلاح عقيدة الكنيسة وطرق العبادة فيها لما وجد من الانحلال الروحي المتفشي في الأوساط الكنسية · راجع الموسوعة العربية الميسرة ·

٥) جون كلفن ١٥٠٩ — ١٥٦٤ ، لاهوتي فرنسي بروتستنتي من رجالات الاصلاح ولد في مدينة نويون وكان ضليعا في اللاهوت والقانون ، تحول ١٥٣٣ عن الكثلكة وصار من قادة البروتستانت المرموقين ، وكتابه (انظمة الدين المسيحي) الذي كتبه بعد ١٥٣١ يوضح مبادئ اللاهوت على مقتضى مذهبه الجديد ·

وأهم ما نادت به تلك النزعة هو رفض عصمة البابا وكثير من الرسوم والعقائد المسيحية المعقدة ، ودعا كل منهما الى تقليم أظافر الكنيسة وتضييق سلطانها " "١"

وحركة لوثر وكالفان تعرضت مسيحية الكنيسة لجدل فكرى كبير ، وأصبحت موضوعا للنقاش العقلي والمذاهب الفلسفية.

وعلى الرغم من كل ذلك فقد استمر اعتبار الوحي كمرجع للمعرفة على اختلاف فى تحديد تعاليمه ،حتى كان النصف الثاني من القرن الثامن عشر وهو عصر التنوير فى تاريخ الفلسفة الأوربية.

وفى عصر التنوير هذا كان للعقل فيه دور السيادة والقيادة ،وهو يختلف عن سابقه الذى ساد فيه الدين ،وعن لاحقه الذى ستسود فيه المادة والمفهوم الطبيعى .

وقد كان لهذا العصر طابعه المشترك فى الفكر فى كل من المانيا وانكلترا وفرنسا فى الفترة الزمنية التى تحدده ، وله فلاسفة فى دوائر الفكر الثلاث كونوا الطابع الفكرى الذى يعرف به ،وهاكم بعض أمثلتها :

فمن فلاسفة المانيا "كانت" الذى يقول فى كتابه (تأسيس ميتافيزيقا الاخلاق) : فان العقل الذى يمدنا بمعنى الواجب هو الركن الركين فى الاخلاق ، أما معانى الله والنفس والحرية والخلود التى كانت الفلسفة السلفية "٢" تقيم الاخلاق عليها فلاسبيل الى اعتبارها اساسا لها بعد ان تبين نقد العقل النظرى استحالة العلم بها .

وفى كتابه الدين فى حدود العقل الخالص يرجع فيه الى مجرد العاطفة ويؤول العقائد تأويلا رمزيا " "٣"

---

١) يحى هويدى مذكرة المذاهب الفكرية المعاصرة.

٢) الفلسفة السلفية يريد بها الفلسفة التقليدية التى سار عليها اسلافه.

٣) كرم ، يوسف . تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٢٠٥ — ٢٠٦ القاهرة ، دار المعارف مصر .

أما فى انجلترا نجد (ديفيد هيوم) "١" يقول فى معرض حديثه عن الفكر والوجود " لا يمكن ان يحضر فى الذهن سوى ادراكات ، فيلزم أنه من الممتنع علينا ان نتصور أو ان نكون معنى شئ يختلف بالنوع عن المعانى والانفعالات ، فلنوجه انتباهنا الى الخارج ما استطعنا ، ولنثب مخيلتنا الى السماوات أو الى اقاصى الكون فلن نخطو خطوة الى ما بعد انفسنا . وفكرة الوجود لايقابلها أى انفعال ، وتبعا لهذا الموقف لا يبقى محل للحديث عن وجود الماديات والنفس والله اذ أن كل ما عدا الفكر مغيب عنا " "٢" .

أما فى فرنسا مثلا فنرى (فولتير) "٣" قد اقتنع بالمذهب التجريبى الذى اتفق عليه (بيكون ولوك ونيوتن) وضد رده على (بسكال) "٤" الداعى الى المسيحية فى رسالته الأخيرة من كتابه (الرسائل الفلسفية) يقول : " حتى لو سلمنا بوجود التناقضات التى يدل عليها بسكال فى الانسان ، لم يكف هذا التدليل على حقيقة المسيحية ، اذ اننا نجد فى الديانات الوثنية اساطير تكون طبيعتنا من عناصر متعارضة . ثم ان حجة بسكال ترجع الى اعتبار المسيحية مذهبا ميتافيزيقيا متفوقا

---

١) ديفيد هيوم ــ ١٧١١ ــ ١٧٧٦ م . شغف بالفلسفة منذ صباه ، حيث ضحى فى سبيلها بكل شئ . فى عام ١٧٣٩ نشر مجلدين من كتاب " فى الطبيعة الانسانية " الأول فى المعرفة والثانى فى الانفعالات . وفى السنة التالية نشر المجلد الثالث والأخير فى الاخلاق ــ لكنه كان فيه معقد الاسلوب صعب العبارة ، فعدل الى تحرير المقالات القصيرة الواضحة ونشرها فى ثلاث مجلدات بعنوان " محاولات أخلاقية وسياسية " فاصابت نجاحا ، وله ايضا كتاب " فحص عن الفهم الانسانى " " وفحص عن مبادئ الاخلاق " وكتاب " مقالات سياسية ثم كتاب " محاورات فى الدين الطبيعى " ، وبعد ذلك عين سفيرا لبلاده فى باريس ثم وزيرا لاسكتلندا ، لكنه اعتزل الوزارة فى السنة التالية واقام فى مدينة ادنبره مسقط رأسه ، وتوفى بها .

٢) يوسف كرم . المرجع السابق ص ١٧٠

٣) فولتير ١٦٩٤ ــ ١٧٧٨ ــ كاتب شهير أهم كتبه " رسائل فلسفية " وكتب اخرى مثل ، مابعد الطبيعة ، ومبادئ فلسفة نيوتن ، والفيلسوف الجاهل ، وكتاب النفس ومحاورات افيمير ، والقاموس الفلسفى وهو أشهرها .

٤) بباسكال هو بليز بسكال ــ ١٦٢٣ ــ ١٦٦٢ م وهو عالم ومفكر وكاتب مجيد ، ولد فى مدينة كليرمون فى فرنسا . وقد ظهرت النباهة والذكاء عليه فى اول حياته فدرس الفرنسية واللاتينية واليونانية ثم اتجه نحو العلم الطبيعى ودرس =

على سائر المذاهب ، ولا تبرهن على أن المسيحية الدين الحق . وما المتناقضات فى الانسان الا العناصر الضرورية المركبة له ، من خير وشر ولذة والم — وهوى وعقل ... وقد آمن معلوك بأن العقل محدود فكفى نفسه موءونة البحث فى الميتافيزيقا ، بل راح يتهكم عليها بكل قول ظريف ... بيد انه كان يوءمن بالله ويقول شعرا فى ذلك " ان الكون يحيرنى ولا يسعنى ان اعتقد ان توجد هذه الساعة ولا يكون لها صانع " "١" .

وبناء على ذلك يمكننا القول ان الطابع الفكرى الذى تميز به هذا العصر هو نمو شعور العقل واحساسه بنفسه ، وبقدرته على ان يأخذ مصير مستقبل الانسان فى يده ، بعد ان يزيل كل عبودية ورثها من قبل — وهى عبودية الكنيسة وتعاليمها — حتى لا تحجبه عن التخطيط الواضح لهذا المصير ، واخضاع كل حدث تاريخى لامتحان العقل ، وكذلك فى تكوين الدولة والجماعة والاقتصاد ، والقانون والدين والتربية ، تكوينا جديدا على الأسس العقلية السليمة — والايمان بتعاون جميع المصالح والمنافع ، بالاخوة الانسانية على اساس من هذه الثقافة العقلية وحدها المستمرة فى التزايد والنمو .

ومعنى ذلك كله وجوب سيادة العقل كمصدر للمعرفة على غيره ، وغيره الذى ينازعه السيادة فى ذلك الوقت هو الدين أى المسيحية (الكاثوليكية والارثوذكسية أولا . وقد تكون معها البروتستانتية كمذهب عرف للاصلاح الدينى هناك) .

والانسانية هى هذه الحياة للجميع وليس الله ، أو المجتمع الخاص أو الدولة الخاصة ، ويسمى كذلك عصر الايمان الفلسفى باله ليس له وحى وليس بخالق للعالم .

فالتنوير لا يقصد به الا ابعاد الدين عن مجال التوجيه واحلال العقل محله فيه ، والاله الذى ليس له وحى ولا خلق يتفق مع تحكيم العقل وحده وطلب سيادته على أحداث الحياة واتجاهاتها .

= المسيحية اذ اتصل بقساوسة علماء وقرأ كتبا دينية فأدرك ادراكا قويا ان المسيحية تقتضى ان يعيش الانسان لله — وهو الذى اسس حساب النهايات كحساب التكامل وحساب الاحتمالات . وفى آخر حياته لجأ الى ديـر (بور رويال) وعاش فيه يعانى الام المرض الذى اصابه بصبر وتسليم حتى توفى .

(١) يوسف كرم ، المرجع السابق ص ١٨٢ .

وكانت فى عصر التنوير اذن خصومة فكرية بين الدين والعقل ،واتجه التفكير فيه الى اخضاع الدين للعقل . ولكن مع ذلك كان للدين فى هذه الفترة أنصار من أرباب الفكر كما كان للعقل وقت سيادة الدين فى العصر السابق أنصار من رجال الدين ، وهم المصلحون ، ورجال الفلسفة كذلك . "١"

على أن عصر التنوير هذا لم تكد تأفل شمسه ويبزغ فجر القرن التاسع عشر حتى ابتدأ عصر جديد من تطور الفكر الأوربى ومع ان الصراع العقلى عند الأوربيين واحد لم يختلف عن ذى قبل فى اطار الدين والعقل والطبيعة ولايهم مرجع المعرفة الحقيقية واليقين . نجد أن هذا العصر تميز بفلسفة مالت الى سيادة الطبيعة على العقل والدين معا ،والى استغلال الواقع كمصدر للمعرفة اليقينية ،مقابل الدين والأخلاق وهو ما يسمى بعصر الواقعية أو سيادة المادة والطبيعة . فكان هذا العصر بما فيه مناخا صالحا لظهور الفكر المادى الجدلى كفلسفة مستقلة .

ارهاصات قريبة للمادية الجدلية :

مر الفكر الاوربى ابان تطوره بارهاصات مختلفة مهدت لقيام حركة فلسفية مادية اتسم بها القرن التاسع عشر ،حيث تقول الفلسفة المادية الجدلية : " ان الفلسفة الكلاسيكية الالمانية فى القرن التاسع عشر وعلى رأسها فلسفة هيجل وفورباخ "٢" تعد مصدرا نظريا مباشرا لفلسفة الماركسية " "٣"

والحق ان هناك عوامل أخرى مهدت لمثل هذه النظرية المادية ومن اهمها

---

١) البهى ،محمد . الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٢٩٨ — ٢٩٩ — الطبعة الرابعة ،القاهره مكتبة وهبه مصر.

٢) فورباخ ١٨٠٤ — ١٨٧٢ فيلسوف المانى مادى ، كان فى صف المناهضين للدين المسيحى فى اوربا حيث الف كتابه " جوهر المسيحية " كنقد لها .

٣) سبيركين وياخوت ،أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ١٧ .

نظرية دارون "١" فى النشوء والارتقاء الذاتى .

أما هيجل فقد استخدم مبدأ النقيض أو الجدلية الذى يعتبر اساسا هاما فى التصور المادى الجدلى ، وقد استخدمه قبله (فيشتــــه) "٢" ، وذلك لتأكيد قيمة العقل ، ثم لدعم فكرة الالوهية ، وتأكيد الوحى كمصدر اخير للحقيقة على اعتبار ان الله عقل .

وطريقة "٣" هيجل فى توضيح مبدأ النقيض بأن تصور بأن هناك أولا دعوى وثانيا مقابل الدعوى ، وثالثا جامع الدعوى ومقابلها . "٤"

على ان هذه الجدلية فى اعتبارها ان اساس الطبيعة والمجتمع هى الفكرة المطلقة والروح العالمية — كما مر بنا سابقا — اعتبرتها المادية الجدلية فلسفـــة مثالية غير سليمة ، على الرغم من أنها تضمنت افكارا قيمة — فى نظر المادية الجدلية ، لاسيما فيما يتعلق بالحركة والتطور الدائمين للروح العالمية . وقد قدر ماركـــس وانجلس هذه الجدلية تقديرا عاليا ، وأصبحت فيما بعد النواة المعقولة التى استخدماها بعد تحويرها بالشكل المناسب ، وفقا لقوانين الجدل المادى (الطبيعة أو المجتمع) بدل جدلية المفاهيم .

---

١) تشارلس دارون ١٨٠٩ — ١٨٨٢ عالم طبيعى انجليزى ، وضع نظريتـــه تطور الاحياء ادت به الى نظرية فلسفية فى الطبيعة . بدأ دراسته فـــى الطب ، ثم عدل الى دراسة اللاهوت ثم انصرف عنها ثم اشترك فى رحلة حول الأرض دامت خمس سنوات ١٨٣١ — ١٨٣٦ — التى كانت ملاحظاته فيها اساسا لنظريته من كتبه اصل الأنواع ١٨٥٩ — وكتاب تغيـــــــر الحيوان والنبات فى حالة الدجن ١٨٦٨ — ثم كتاب تسلسل الانسان والانتخاب الطبيعى ١٨٧١م وكتاب التعبير عن الانفعالات فى الانسان والحيوان ١٨٧٢م .

٢) فختى أو فيشته ١٧٦٢ — ١٨١٤ ، ابن فلاح من اهل سكسونيا درس اللغة وفقه اللغة والفلسفة ، ثم وقف على كتب كنط ، وبعد ذلك عين استاذا بجامعة ابينا ١٧٩٣ ، وفى هذه الجامعة بسط مذهبه فى كتابه المبادئ الأساسية لنظرية المعرفة ١٧٩٧ . ومن كتبه ايضا القانون الطبيعـــى ١٧٩٦ — والفلسفة الخلقية ١٧٩٨ — ومصير الانسان ١٨٠٠ وكتب اخرى .

٣) انظر صفحة رقم ٥

٤) محمد البهى المرجع السابق ص ٢٠٧

أما فورباخ ، فهو فيلسوف الماني كان من ثمرات الفكر المادى الذى ساد القرن التاسع عشر ، والذى اشتد فيه الجدل ضد الدين (المسيحى) على وجه خاص ، وضد المثالية العقلية أيضا .

يرى فورباخ : " ان الفلسفة هى علم (الواقع) فى حقيقته وفى عمومه ، وجوهر الواقع هو الطبيعة الشاملة ، التى تدرك بطريق الحواس ، وعنده ان الحقيقة والواقع والحس كلها سواء ، وان الحقيقة هى علم الانسان فقط ، وعلم الانسان هو الدين ، فالدين اذن محصول للعقل الانسانى ، وليس موحى بها من خارج الانسان . والطبيعة الالهية كذلك هى طبيعة الانسان نفسه ، التى تجردت من قيود الفردية والشخصية ، هذه الطبيعة الانسانية المتجردة تنظر اليها باحترام وخشية وقدسية ، على انها شئ آخر مقابل لطبيعة الانسان الفرد .

أما الله بالنسبة للانسان ، فهو كتاب جامع لاحساسات الانسان العالية وأفكاره وآماله ، والحياة الآخرة ليست شيئا آخر غير هذه الحياة الانسانية على اعتبار ان الله ليس شيئا آخر غير الانسان ، والفجوة القديمة — على نحو ما تصورها الاديان — بين هذه الحياة والحياة الآخرة يجب ان تزول كى تركز الانسانية نفسها بنفس غير مشتتة وقلب موحد فى عالمها المشاهد وفى حاضرها القائم .

ويقول بعد ذلك : اذا انقطع ايماننا بحياة افضل هى الآخرة ، وأردنا ان نوجد حياة أفضل غيرها فلابد ان نضع مكان محبة الله محبة الانسان ، كدين وحيد حق ، وأن نضع مكان الايمان بالله ، الايمان بالانسان نفسه ، وبامكانياته الخاصة وبعظمته " "١" .

وفكرة التعويض عن الدين السماوى بدين انسانى كما هو الحال عند فورباخ ستجد لها صدى قويا فى المذهب الماركسى عندما تجعل من الطبيعة والمجتمع معبودا والها .

أما نظرية دارون ، فهو الحدث الذى هز العقيدة والافكار التقليدية هزا عنيفا خلال القرن التاسع عشر فى كتابه (اصل الانواع) الذى نشر عام ١٨٧١م .
" وقد انتهى الى ان الأنواع الحالية على اختلافها يمكن ان تفسر بأصل واحد ، او

---

١) يوسف كرم تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٢٤٠ .

بيضعة أصول ،نمت وتكاثرت وتنوعت في زمن مديد بمقتضى قانون الانتخاب الطبيعي أو بقاء الأصلح "،فالنظرية الداروينية آلية بحت تستبعد كل غائية ولا تدع للكائن الحي قسطا من التلقائية ،بل تعتمد على محض الاتفاق والصدفة في حياة النبات والحيوان . وقد أخذ على دارون ان نظريته مادية الحادية ،مع انه كان مؤمنا بالله الى وقت ظهور كتابه (اصل الأنواع) ،الذى قال في ختامه : (ان الصورة الحية الأولى مخلوقة) ،ثم تطور فكره شيئا فشيئا حتى أعلن اسفه لاستعمال لفظ الخلق مجاراة للرأى العام ،وصرح بأن الحياة لغز من الألغاز ،وأن ما في العالم من ألم يعدل بنا عن القول بعناية الهية ، وان الكلمة الأخيرة عنده (أن المسألة خارجة عن نطاق العقل ولكن بوسع الانسان أن يؤدى واجبه) ".(١)

ومن ثم ظهور كارل ماركس بفكره ،والمادية الجدلية كتصور عام للكون مهدت له جميع السبل والعوامل ،والتى وجد فيها معينا كافيا لنظريته ،وما كان له الا أن ينسق بين تلك العوامل والسبل تنسيقا جديدا ،ويفرغها في قوالب منتظمة حيث خرج منها بنظرية فلسفية عقدية ،اضفى عليها سمة العلمية حينا ، والتقدمية حينا اخرى ،وفسر كل شيء في الوجود على ضوئها ومقتضاها .

وما كان لهذا الفكر ان يستمر لولا أن قيض له ثورات قامت باسمه "،وسادت بشعاراته ،ونهضت دول على اساسه فكان مثار تفكير كثير من المفكرين الأوربيين وغيرهم وانتقلت العدوى الى العالم الاسلامى بدافع التقليد والتبعية للمنتصر ،وذلك بعد ان ضعف الايمان برسالة السماء ووهن تأثيرها في حياة الناس .

ونتساءل بعد ذلك كله من هو كارل ماركس صاحب النظرية ،وما هو مجمل نظرته للكون وللانسان .

كارل ماركس :

عندما قامت الثورة الصناعية وتركزت وسائل الانتاج في ايدى افراد قلائل اعلن كثير من المفكرين استياءهم من توقع الظلم الذى سيلحق بعامة الشعب من جراء ذلك ،وناشدوا ان تكون وسائل الانتاج في يد الدولة التى هي بمثابة ممثل شرعي

---

(١) يوسف كرم نفس المصدر ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ .

للشعب ،وذلك كى لا تكون وسيلة لتسلط عناصر محدودة على سواد الأمة ،وسميت تلك الافكار وقتئذ بالاشتراكية ،أو التأميم ، ومعناه جعل وسائل الانتاج ملكية عامة قومية •

" وقد سبق كارل ماركس وفريد ريك انجلس مفكرون اشتراكيون كبار نذكر منهم سانت سيمون "١" Saint Soimon وفوريه "٢" Fariey وروبرت أوين "٣" Robert Oien " م "٤")

ولد كارل ماركس فى عام ١٨١٨ فى بلدة تريف فى المانيا ،حيث تغلغل النفوذ الفرنسى وسط جذوره اكثر مما تغلغل فى اى جزء آخر من المانيا •

" وقد انحدر من سلسلة طويلة من الحاخامات اليهود ،ولكن والده كان محاميا •

---

١) سان سيمون ١٧٦٠ – ١٨٢٥ ،كان مغامرا فى الحياة وفى الفكر ،دعا الى تسليم زمام الحكم الى رجال الصناعة والعلم بدل الاشراف والقانونيين ،ورفع مستوى الطبقة العاملة من الوجهتين العقلية والاقتصادية•

٢) تشارل فوريى ١٧٧٢ – ١٨٣٧ م هو أحد آباء الشيوعية الحديثة ،وقد دل على طريقة عملية للاصلاح ،قال ان العناية الالهية التى يشهد بوجودها نظام العالم فطرتنا على نزعات اذا اتبعناها بلغنا الى السعادة الفردية والاجتماعية – فعلى كل فرد ان يختار العمل الذى يوافق ميله – ولا يتسنى هذا الاختيار الا فى فرق تمثل كل فرقة منها المهن الضرورية لبقائها ،وفى كل قسم من اقسام المهنة يؤلف العمال جماعة أصغر بحيث يشعر الكل بتعاون الكل وكان يشير الى نظام السوفخوز/الكولخوز الذى طبق فيما بعد فى روسيا / يوسف كرم نفس المرجع

٣) روبرت اوين ،مصلح ومفكر اشتراكى انجليزى ،ومؤسس الحركة التعاونية كان من رجال الأعمال الناجحين فى مانشستر ،وقد حاول اقامة مجتمعات اشتراكية فى انكلترا وامريكا واهم كتبه (نظرة جديدة الى المجتمع) و(تقرير الى مقاطعة لانارك)•

٤) خان ،وحيد الدين ،الدين فى مواجهة العلم ترجمة ظفر الله خان مراجعة عبد الحليم عويس ص ٣٣ الطبعة ثانية المختار الاسلامى القاهره ١٩٧٣ •

وعندما بلغ ماركس السادسة من العمر ، اعتنقت أسرته المسيحية ، ونشأ هو بروتستانتيا ، ولكنه لم يلبث ان تخلى عن الدين • وكان لانحداره من اسرة الحاخامات اليهود أهمية كبيرة لسببين ، أنه استمد منها روح السلطة التي تميز بها ، وأنه تأثر بشخصية المسيح المخلص ، وهى العقيدة التى تلعب دورا هاما فى الفكر اليهودى (واليهود يعتقدون ان المسيح لم يظهر بعد وانما سوف يظهر) ، ولم يكن التفكير اليهودى فى يوم ما تفكيرا فى العالم الآخر وانما يصر على واجب اقامة عهد سلام وسعادة فى العالم الحالى • وهكذا لم يكن من محض الصدفة ان يكون كثيرون من زعماء الشيوعية من أيام ماركس الى الآن من اليهود " • " ١ "

" درس ماركس فى الجامعات الالمانية حتى حصل على درجة دكتوراه فى الفلسفة ، ولم يستطع أن ينال عملا بالجامعة بسبب اتجاهاته الديموقراطية ، التى كانت تعد تطرفا آنذاك ، فلجأ الى الصحافة ليعمل بها ، وأصبح محررا بمجلة (الرين) بكولونيا ، لكن حكومة بروسيا ضاقت ذرعا بمقالاته ، فاوقفت صدور هذه المجلة •

وعلى اثر ذلك انتقل ماركس الى باريس حيث تقابل مع مجموعة من المفكرين الذين شغلوا أنفسهم بمشكلات المجتمع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، واشتبك معهم فى نضال عنيف ، اذ كانت آراؤهم بعيدة عن اتجاهاته ، فلما تقابل مع فريدريك انجلس أدرك الاثنان ان افكارهما متقاربة ، فسارا معا طيلة حياتهما ، وارتبطت باسمهما (الاشتراكية العلمية) وكان لماركس قصب السبق ، ولكن انجلس أتم بعد وفاة ماركس أيضا اتجاهات هذا الرائد ، فكان انجلس بذلك امتدادا لحياة ماركس " • " ٢ "

وقد حفل العقد الخامس من القرن التاسع عشر باضطرابات بالغة حتى سمى عام الثورات ، وقد ناضل الأحرار والقوميون فى سبيل الديموقراطية والاستقلال وكانت ثورة فرنسا من أبرزها •

---

١) كاريوهنت ، الشيوعية نظريا وعمليا ص ١٧
٢) احمد شلبى ، الاشتراكية ص ١١٧ •

وقد كان من أسباب الثورات المتالية وقتئذ التعطل ، وانخفاض الأجور وسوء حالة العمال ، مع كثرة ساعات العمل .

وحدث أن تكونت جمعية سرية دولية ، سميت باسم (عصبة العدول) وبحلول عام ١٨٤٨ م بثوراته واضطراباته اعلنت هذه الجمعية عن أهدافها ، وطلبت من ماركس وانجلس ان يكتبا بيانا يحمل صيغة أهدافهما ، فاستجاب ماركس وانجلس لذلك واصدرا البيان الشيوعي .

وبعد ان انهارت ثورة ١٨٤٨ م انتقل ماركس الى لندن عام ١٨٤٩ ليقضي بقية حياته في عمل متواضع يكسب به عيشه ككاتب في صحيفة (نيويورك تريبيون) في حين كان صديقه انجلس — وكان ابن رجل انكليزي ثرى — يسدد نقص نفقات صديقه ماركس بما يقدمه له من مساعدات .

وبعد لجوئه الى لندن دون كتبه الكبرى وهي (نقد الاقتصاد السياسي) ١٨٥٩ و (نداء الى الطبقات العاملة في اوربا) عام ١٨٦٤ ، وكتابه الأشهر (رأس المال) ١٨٦٧ . وفي نفس الوقت كان يواصل دعوته الثورية متخذا هذه الكلمة شعارا " أيها المعوزون في جميع البلدان اتحدوا " فأسس في ١٨٦٦ (الدولية الاشتراكية الأولى) التي ظلت قائمة الى ١٨٧٠ . ومات سنة ١٨٨٣ م .

البـــــاب الأول

الطبيعـــة أو الكـــــــــــون

الفصـــل الأول :

التـرابط في الطبيعـــة

الفصـــل الثاني :

حركة التطور في الطبيعة وتناقضها

الفصـــل الثالـــث:

قفـــزات التطور

البـــــاب الأول

الطبيعــة أو الكـــون

توضيح :

ان الطبيعة فى اللغة تختلف عن الكون اختلافا بينا . فالطبيعة فى اللغة تعنى الخلق والسجية . وقد جاء فى تاج العروس قوله : (والطبع والطبيعة والطباع ككتاب) الخلقة والسجية ، التى جبل عليها الانسان" . "١"

أما الكون فى اللغة فهو " الحدث " "٢" . اذ أن الكاف والواو والنون أصل يدل على حدوث شىء اما فى زمان ماض أو زمان راهن . "٣"

والكون عند المتكلمين مرادف للوجود . "٤" وأول ما نلاحظ ان القــرآن الكريم يشير الى ان التكوين — وهو اخراج المعدوم من العدم الى الوجود — صفة لله تعالى ، وهو تكوينه للعالم ، ولكل جزء من اجزائه لوقت وجوده على حسب علمه وارادته . "٥" . وقد وردت الاشارة الى التكوين فى قوله تعالى : " اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون" "٦".

ويستخلص من تعريفات الكون فى كتب اللغة والمصطلحات : أن الكون هو عبارة عما تكون بالارادة الالهية من الموجودات على اختلاف ألوانها وأشكالها بعد ان لم تكن . وان الكون والعالم كلمتان مترادفتان فى المفهوم الدينى ، وتطلق على كل شىء ماعدا الله عز وجل اذ كل شىء دونه متصف بالحدوث بعد العدم .

وبناء على ذلك فان كان هناك عوالم يمكن ان توجد فى أمكنة وأزمنة مختلفة فيحق اعتبارها على هذا عالما واحدا او ان شئت فقل كونا .

---

١) الزبيدى . تاج العروس من جواهر القاموس ج ٥ ص ١٤٣٨

٢) ابن منظور . لسان العرب ج ١٣ مادة الكون

٣) ابن فارس . مقاييس اللغة ج ٥ مادة الكون

٤) البستانى ، بطرس . محيط المحيط مادة الكون مكتبة البيان

٥) التهانوى . كشاف مصطلحات الفنون مادة التكوين

٦) سورة مريم آية ٣٥

وقد استعمل الأوربيون كلمة الطبيعة بمعنى الكون او العالم ،وان كان الاستعمال لا يتفق وأصله اللغوى ـ كما مر بنا سابقا ـ •

فالطبيعة فى اصطلاحهم : هى العالم بما فيه من أشياء مختلفة • وهى تنقسم الى قسمين :

القسم الأول : أشياء يمكن لمسها وقياسها وتسمى بالأشياء المادية •

القسم الثاني : أشياء لا يمكن لمسها أو قياسها ولكنها موجودة مع ذلك ،كأفكارنا ، وعواطفنا ، ورغباتنا ، وذكرياتنا ، ٠٠٠ الخ ،ولكى نعبر عن كونها ليست مادية نقول بانها فكرية • وعبارة أوضح ان للواقع جانبين جانبا ماديا ، وجانبا فكريا • (ومنهما تتكون الطبيعة)" "١"

اذن فالكون او العالم بمعناه العام يوافق معنى الطبيعة فى عرف الأوربيين ،وبناء على ذلك فقد جعلنا الطبيعة او الكون محور حديثنا بين الدين والمادية الجدلية •

وقد اعتبر الماركسيون جدليتهم تقوم على أربعة أسس رئيسية تميزها عن غيرها من الفلسفات الأخرى وهى :

١) الترابط فى الطبيعة

٢) الحركة والتطور فى الطبيعة

٣) قفزات التطور (انتقال التغير الكمى الى التغير الكيفى)

٤) حركة التطور فى الطبيعة وتناقضها

ووفقا لهذه الميزات فقد جعلنا الباب الأول ينقسم الى ثلاثة فصول تبعا لتلك الميزات والخصائص • "٢"

---

١) بولتزر ،جورج وجى بيس• وموريس كافين • أصول الفلسفة الماركسية ج ١ ص ٤٧ • تعريب شعبان بركات ، بيروت وصيدا المكتبة العصرية لبنان •

٢) كان يجب ان يكون اربعة ابواب طبقا للخصائص الفلسفية للديالكتيك ولكن جعلناه ثلاثة أبواب لأمر يقتضيه سياق المناقشة والبحث •

الفصـــــل الأول

الترابط في الطبيعة : بين الدين والمادية الجدلية

ان المادية الجدلية تدرس الطبيعة على أنها كل مترابط لا انفصام بين اجزائها ولا تنافر ، وهو ما حدده ستالين بقوله : " ان الديالكتيك خلافـــا للميتافيزيقا "[١] لايعتبر الطبيعة تراكما عرضيا للأشياء ، أو حوادث بعضها منفصل عن بعض ، أو احدهما منعزل مستقل عن الآخر ، بل تعتبر الطبيعة كلا واحـــدا ومتماسكا ، ترتبط فيه الأشياء والحوادث فيما بينها ارتباطا عضويا ، ويتعلق أحدهما بالآخر ، ويكون بعضها شرطا لبعض بصورة متقابلة .

ولذلك تعتبر الطريـــقة الديالكتيكية أن أي حادث من حوادث الطبيعـــة لا يمكن فهمه اذا نظر اليه منفردا بمعزل عن الحوادث المحيطة به ، اذ أن أي حادث في أي ميدان من ميادين الطبيعة يمكن أن ينقلب الى عبث فارغ لا معنى له اذا نظر اليه بمعزل عن الشروط التي تكتنفه ، ... وعلى العكس ، يمكن فهم أي حادث من الحوادث وتبريره اذا نظر اليه من حيث ارتباطه ارتباطا لا ينفصـــم بالحوادث المحيطة به ، أي اذا نظر اليه كما تحدده وتكيفه الحوادث التـــي

---

(١) ميتافيزيقا : كلمة مشتقة من " ميتا " اليونانية وتعني ما وراء ، و (فزيقيــا) وهي تعني (علم الطبيعة) . والميتافيزيقا : فرع من الفلسفة يبحث عن الحقائق الأولية للوجود . سماها ارسطو الفلسفة الأولى . والوجود : موضوع الميتافيزيقا باعتباره معنى مجردا لايقتصر على ماهية معينة ، وينشأ اما عن التجريد الذي يقوم به العقل مستخلصا اياه من الموجودات العينية ، واما أن يكون روحيا بطبيعته غير مجسم في المحسوسات الجزئية كالله والنفـــس البشرية . والميتافيزيقا عند " الكندي " الفلسفة الأولى ومبحث الربوبيـــة وعند " ابن سينا " العلم الالهي . وعند " ابن رشد " النظر في الموجود بما هو موجود . وكلها تعريفات تشير الى الوجود الذي يخرج من عالم الواقع الى عالم المعقول فهي مدخل للعلوم . وأما " كانت " فيراها تحليلا للقضايا العلمية ينتهي بها الى المبادىء والمقولات التي لابد من فرضها لتفسير المعرفة . والميتافيزيقا في عرف الماديين الجدليين تشمل الأديــــان

تحيط به "١"

فالطبيعة وما تحويه من أشياء وحوادث لا تدرسها المادية الجدلية حال فصل بعضها عن بعض وتجريدها عنه ، كما تفعل النظرية الميتافيزيقية التي تنظر الى الطبيعة نظرة تجريدية خالصة ، لا ترابط بينها ولا اتصال • اذ لا مكان لهذا الفهم في الفكر الجدلي الذي اقام نظرته على أن كل شيئ في الطبيعة يؤلف وحدة متصلة مع غيره من الاجزاء الأخرى •

والحقيقة أنه لو كان الصاق التهم الباطلة بفلسفة ماكافيه لاسقاطها في خطوطها العريضة ، لكانت النظرة الميتافيزيقية للكون نظرة اعتزاليه مناقضة لروح العلم والحس ، لاسند لها من واقع ولا برهان ، بل عبارة عن مجموعة من الأساطير والأوهام لا تمت الى الواقع بصلة ، ولا يربطها بالعقل رباط •

وهنا يجدر بنا أن نسأل الجدليين سؤالا مفاده : من هو الذي يقر هذا الانفصام والتجريد بين اجزاء الطبيعة وحوادثها ؟!!

اذ لا نظن ان انسانا مهما كان عريقا في الجهالة والبلاهة أنه يفهم حوادث الطبيعة وأشياءها منفصلة بعضها عن بعض ومنقطعة عن أسبابها "٢" وعللها • ذلك أن الالتفات الى الأسباب أمر مشاع بين المجموعة البشرية ، ومن ضروريات العقل الأولية ، وليس من ضروريات عقول الفلاسفة والمفكرين فقط ، بل من ضروريات من له أدنى شعور واحساس ، يميز الأشياء حوله ويدركها •

---

* والفلسفات التي تجعل من موضوعها فيما وراء الحس والواقع المادي ما يعطي علما ومعرفة تامة • يراجع في هذا الموسوعة العربية الميسرة ج ٢ ص ١٧٩٤ •

١) ستالين ، جوزيف • المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ١٦ دار دمشق للطباعة •

٢) العلة والسبب تستعملان مترادفتين في الغالب — راجع (دائرة المعارف الاسلامية ج ١١ — مادة السبب • كتبها دي بور • ترجمة د / محمد عبد الهادي ابو ريده •

ان علماء الأديان والمحققين من الفلاسفة يرون : ان كل شيء في الطبيعة مرتبط بعضه ببعض بأسباب وعلل لا تنفك عنه ، وان لكل حادثة سببا كان علة في وجودها . وأن هذا من البدهيات التي لا ينكرها عاقل فضلا عن تلك الديانات السماوية التي نزلت وفق قواعد العقل ومعطياته والمنطق العلمي السليم .

وان كل شيء في الطبيعة وجد بسابق تقدير وتخطيط لا يشذ عنه حادث في ماض أو مستقبل . قال سبحانه " الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى " "١" . وقال : " انا كل شيء خلقناه بقدر " "٢". وقال أيضا : "وكل شيء عنده بمقدار " . "٣"

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ان الله عز وجل لم ينزل داء الا أنزل له شفاء ... " "٤"

أما كتب اصول الفقه فقد افردت بحثا خاصا للعلة ، وتسمى عندهم السبب والمناط ، والدليل ، والباعث ، والوصف الجامع . "٥"

---

١) سورة طه آيه ٥٠

٢) سورة القمر آية ٤٩

٣) سورة الرعد آية ٨

٤) الحديث أخرجه الطيالسي (٣٦٨) والحاكم ج ١ ص ١٩٧ ، والامام احمد ج ٤ ص ٣١٥ . وقد خرجه الشيخ ناصر الدين الالباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٥١٨ المجلد الثاني ص ٤٧ طبعة المكتب الاسلامي ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م .

٥) انظر شاكر الحنبلي . اصول الفقه الاسلامي بحث العلة مطبعة الجامعة السورية ١٣٦٨ هـ ـ ١٩٤٨ م .

" اذ القول بانكار وجود الأسباب الفاعلة التي تشاهد في المحسوسات قول سوفسطائي • والمتكلم "١" بذلك ، اما جاحد بلسانه لما في جنانه ، واما منقاد لشبهة سوفسطائية عرضت له في ذلك " "٢"

ان الحيوان اذا سمع صوتا انطلق من ناحية معينة تراه يدير رأسه جهة تلك الناحية ، وكأنه يتساءل عن مصدر الصوت وسببه • ان هذا يحدث للحيوان العادي فما بالك بالانسان الذي حلي بالعقل الذي من أهم مبادئه الأساسية ، العلل والأسباب ، وأنها شرط في وجود المعلولات والمسببات •

ان الحوادث في الكون لا تحدو أن تكون أحد احتمالات ثلاثة :

أولا : اما أن تكون مجموعة من الصدف المتراكمة ، وجدت باتفاق صرف دون أن تكون هناك أي ضرورة تدعو الى وجودها •

ثانيا : واما أن تكون اجزاء الكون ضرورية ضرورة ذاتية ، فكل شيء فيها يوجد بسبب ضرورته الذاتية من نفسه دون الحاجة الى شيء من خارجه يؤثر به •

وسواء كانت النظرة الأولى أو الثانية فانهما لا تنسجمان مع مبدأ العلية الذي يقول : ان كل حادثة مرتبطة في وجودها بأسبابها وشروطها الخاصة • وذلك لأن هذا القانون يرفض رفضا قاطعا مبدأ الصدفة والاتفاق والضرورة الذاتية معا •

ثالثا : وهو الذي يقرر أن كل شيء في الكون مرتبط بجملة أسباب وعلل لا ينفك عنها • وعلى هذا فان جميعها في الطبيعة مرتبط بعضه ببعض ارتباطا يجعل من الكون كلا متكاملا في جميع اجزائه •

ان الأديان السماوية والفلسفات قد اقامت نظرتها للكون على أساس هذا القانون ووفق مقتضياته •

اذن فالسؤال عن العلل والأسباب من البواعث الفطرية ، والمبادئ العقلية الضرورية ، اذ لو كان السؤال عن العلة والسبب باطلا لما كان هناك مبرر للبحث

---

١) والمتكلم بذلك : أي المجادل فيه والشاك في امره

٢) العراقي ،محمد عاطف • النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد ص ١٦٣ ، القاهره دار المعارف مصر •

عن المجرمين الذين اكتشفت جرائمهم ، ولم يعرف المجرم بعينه .

وقد ورد السؤال عن السبب كثيرا وكثيرا في كتاب الله الكريم في مواضع يصعب حصرها . ومنها سؤال الله الكافرين عن سبب الكون وعلته . وهم مع جحدهم وانكارهم قد وجدوا أنفسهم أمام مسألة لا محيص لهم من جواب واحد لا ثاني له . قال سبحانه : " ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله " "١" . وقال ايضا " ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله " "٢" . انهم مع ضلالهم وانحرافهم عن مقتضيات الفطرة السليمة لا ينكرون السبب الأول الذي كان علة في وجود الكون بعد ان لم يكن .

اذ على أساس مبدأ العلية يتوقف :

أولا : اثبات الواقع الموضوعي للاحساس .

ثانيا : كل النظريات والقوانين العلمية المستندة الى التجربة "٣"

ان مفهوم الترابط والاتصال بين اجزاء الطبيعة وحوادثها ، وانها لا تخفى حتى على نظر العامي من الناس أمر صرح به بعض الكتاب الماركسيين أنفسهم . يقول الكاتب الماركسي (أميل برنز) عن الارتباط في مفهوم الديالكتيكي : "ان الطبيعة أو العالم ويضمنه المجتمع الانساني ، لم تتكون من اشياء متمايزة مستقلة تمام الاستقلال عن بعضها البعض ، وكل شخص يعرف ذلك ، ويجد صعوبة قصوى في تحديد التقديرات ، حتى لأهم العوامل التي قد تؤثر في الأشياء الخاصة التي يدرسها . ان الماء ماء ، ولكن اذا زيدت حرارته الى درجة معينة ، تحول الى بخار ، واذا انخفضت حرارته استحال ثلجا . كما أن هناك عوامل أخرى تؤثر عليه ، ويدرك كل شخص علمي ايضا اذا ما خبر الأشياء أنه لا يوجد شيء مستقل بذاته كل الاستقلال

---

١) سورة لقمان آية ٢٥

٢) سورة العنكبوت آية ٦١

٣) الصدر ، محمد باقر . فلسفتنا ص ٢٧٩ .

وان كل شيء يتأثر بالأشياء الأخرى" "١"

وبعد هذا كله يبدو جليا ان الميتافيزيقا والأديان لا تقر مطلقا عزل الحادثة عن محيطها ، وشروطها التي تكتنفها ، وتجريدها عن علاقتها بالحوادث الأخرى .

اذن فليس الاعتقاد بترابط اجزاء الطبيعة وقانونها العام ، واعتبارها كلا متصلا ، وقفا على الفهم الديالكتيكي للطبيعة ، بل هو مما يعتبر من البدهيات في المفاهيم الدينية ، والأسس العقلية والفلسفية ، التي تثبت بمقتضاها بحوثها العلمية وقوانينها العقلية .

أما تفاصيل هذا الترابط بين اجزاء الطبيعة ، واكتشاف تفاصيله وأسراره فهي ما تسنده النظرة الدينية الى الكشوف العلمية على شتى الوانها واختصاصاتها . فهي تضع الخطوط العريضة على ضوء العلية وقوانينها ، ثم تكل امر الكشف والبحث عن الجزئيات للتجارب العلمية .

ان العلوم بسائر فروعها واختصاصاتها انما تقوم على اكتشاف قوانين الطبيعة أو كما نسميها نحن السنن الربانية ، وذلك لتبنى نظرياتها ، واستنتاجاتها على اساس تلك القوانين والسنن .

ان الباري سبحانه قد وضع في الكون قوانين هي أسباب يستغلها الانسان وفق مصلحته وسبل تقدمه .

قال سبحانه : " ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الألباب " "٢" وقال ايضا : " سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد " "٣"

---

١) اميل برنز . ماهي الماركسية ص ٧٥ عن كتاب محمد باقر الصدر نفس المصدر . ص ٢٧١ بيروت طبعة دار الفكر طبعة خامسة لبنان ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م

٢) سورة آل عمران آية ١٩٠

٣) سورة فصلت آية ٥٣

سوء فهم :

ان ارتباط اجزاء الطبيعة بعضها ببعض فى مفهوم الدين لايعنى [illegible] عدم امكان ملاحظته بصورة مستقلة ، ووضع تعريف خاص به • ولهذا فقد كان تعريف الماهية أحد الأسس الهامة التي يقوم عليها الفكر الدينى والمنطق العقلى •

وأكبر الظن أن ذلك هو الذى دفع الجدليين الى اتهام الميتافيزيقا بأنها تدرس الطبيعة على أنها كم متراكم منفصل بعضها عن بعض ، لأن الجدليين وجدوا أن الميتافيزيقى يأخذ المفهوم ، فيعرفه تعريفا يحدد فيه ماهية الشىء بصورة مستقلة عن غيره ، ليسهل فهمه ودراسته • فظنت الجدلية أن ذلك تجريدا خالصا ، يفصل بين الشىء وما يتصل به من أسباب وشروط وظروف خاصة •

حقا لقد عرف الفقهاء الخمر بأنها : كل ماخامر العقل وستره • "١"

وعرف النحويون الفاعل بأنه : الاسم المسند اليه فعل على طريقة فعل أو شبهه وحكمه الرفع • "٢"

وعرف المناطقة الانسان بأنه : حيوان ناطق • "٣"

---

١) قال بذلك جمهور الفقهاء • لأن قولهم : كل مسكر خمر ، مأخوذ من ستر العقل وهى من خامر العقل وخمره بمعنى ستره ، وقد اخذ ذلك من الخمار الذى يستر الوجه والرأس • ودليلهم فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم " كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام ••• " رواه الامام مسلم فى باب الأشربة ج ٦ ، وراجع فى هذا الخلاف الفقهى بين العلماء كتاب الجريمة والعقاب فى الفقه الاسلامى (العقوبة) محمد ابو زهرة ص ١٨٢ دار الفكر العربى •

٢) ابن عقيل ، قاضى القضاه بهاء الدين عبدالله بن عقيل العقيلى الهمدانى المصرى ٦٩٨ — ٧٦٩ هـ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك تأليف محى الدين عبدالحميد ج ١ ص ٤٦٢ ، القاهره مطبعة السعادة مصر •

٣) الغزالى ، الامام ابو حامد محمد بن محمد • معيار العلم فى فن المنطق ص ٧٥ أشرف على طبعه وتحقيقه الاستاذ حسين شراره بيروت دار الاندلس لبنان •

لكن هذه التعاريف وغيرها لا تعنى عزل المعرف عن أسبابه وشروطه وظروفه التى تحيط به ،بل تعنى فقط مجرد الدراسة وتحديد الماهية للمعرف ان المنطق الذى سارت عليه المفاهيم الدينية من تعريف الماهيات ،وتحديد مفهومها ، والمقصود من وضعها كل ذلك لا يتنافى مطلقا مع القانون العام لترابط الطبيعة والاتصال بين أجزائها • ولا يقصد منه أيضا التجريد الحقيقى لحوادث الطبيعة وأشيائها • وانما ليتاح لنا أن نبحث عما يتصل بالمعرف من أسباب وغايات •

حتى أن الديالكتيك نفسه يتخذ نفس الطريقة لتحقيق هذه الغاية فهو يعرف المادة ويعرف الديالكتيك كذلك •

لقد عرف الجدليون المادة بأنها : كل ما يحيط بنا ، وكل ما يوجد موضوعيا • وهى العالم المادى الخارجى غير المحدود الذى يؤثر على أعضاء حواسنا ويسبب الأحاسيس • "١"

ويعرفون الجدلية أو الديالكتيك بقولهم : علم القوانين العامة لحركة وتطور الطبيعة والمجتمع البشرى والتفكير ، علم الروابط العامة بين جميع الظواهر الموجودة في العالم " • "٢" فهل يفهم من هذه التعاريف التى تعتمد عليها المادية الجدلية لبحث العوامل والأسباب التى تتصل بالمعرف التجريد العام له ، وهل يفهم منه أنهم فى تعريفهم للمادة والديالكتيك قد عزلوهما عن سائر أجزاء المعرفة البشرية ،وانكروا ما يقوم بينهما وبين حوادث الطبيعة الأخرى من اتصال وارتباط ؟!!!

كلا • فان التعريف لا يعنى من قريب أو بعيد تجاوز الارتباط القائم بين الأشياء واهماله ، وانما يحدد لنا المفهوم الذى يراد الكشف عن روابطه وعلاقاته المتنوعة ليسهل علينا درسه وتحليله ،وفق المقتضيات العلمية•

---

١) سبيركين وياخوت • اسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص٢٧

٢) نفس المصدر ص ١٤

وهنا يتبادر الى الذهن سؤال هام وخطير هو: طالما الأمر كذلك فأين الكشف العلمى المنطقى للديالكتيك فى عالم الطبيعة وقانون ارتباطها العام ؟ !!!

الفصـــل الثانـــي

حركة التطـور في الطبيعة وتناقضهـا

الحركة في المفهوم المادي الجدلي :

أ ـ الطبيعة في حالة حركة مستمرة :

ان المادية الجدلية ترى الطبيعة على أنها في حالة تغير وتجـدد لاينقطعان ، وأن فيها شيئا يولد ويتطور ، وشيئا ينحل ويضمحل .
يقول ستالين : ان الديالكتيك خلافا للميتافيزيقا " لايعتبر الطبيعـة حالة سكون وجمود ، حالة ركود واستقرار ، بل يعتبرها حالة حركة وتغير دائمين ، حالة تجدد وتطور لاينقطعان ، ففيهما دائما شيء يولـد ويتطور ، وشيء ينحل ويضمحل . ولهذا تريد الطريقة الديالكتيكيـة ان لا يكتفى بالنظر الى الحوادث من حيث علاقات بعضها ببعض ، ومن حيث تكييف بعضها لبعض بصورة متقابلة ، بل ان ينظر اليها أيضا مـن حيث حركتها ، من حيث تغيرها وتطورها ، من حيث ظهورها واختفائها " (١) "

ويقول انجلس أيضا : ان الطبيعة بأجمعها من أضأل الاجزاء الى أكـبر الأجسام .... هى فى حركة دائمة من النشوء والاضمحلال ، وهـى مد لا ينقطع فى حركة وتغير مستمرين وأبديين " . " ٢ "

ب ـ الحركة في الطبيعة متناقضـة :

بعد أن قررت المادية الجدلية مبدأ الحركة فى الطبيعة ، وانهـا نتيجة لتلك الحركة فى تطور وتغير مستمرين . قررت بعد ذلك أن الحركة فى الطبيعة هى عبارة عن الصراع بين المتناقضات فى المحتوى الداخلـي

---

(١) ستالين ، جوزيف . المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ٦١

(٢) عن انجلس ، فردريك . كارل ماركس ، ضد دوهرنغ ، ديالكتيك الطبيعة ص ٤٩١ موسكو الطبعة الالمانية ١٩٣٥ م .

للأشياء ، اذ لكل شيء في الطبيعة جانب ايجابي وجانب سلبي ،ماض وحاضر فنضال هذه المتضادات الموجودة في التركيب الداخلي للأشياء هو سر الانتقال من كيفية الى كيفية أخرى .

يقول ماوتسي تونغ : ان قانون التناقض في الأشياء ، أي قانون وحدة الأضداد "١" هو القانون الأساسي والأهم في الديالكتيك " . "٢"

---

١) يجر خطأ دائما في المصادر الماركسية وهو مساواتهم بين التضاد والتناقض ، وذلك لانهما مختلفان تمام الاختلاف . أما التضاد فهو التقابل بين القضيتين الكليتين المختلفتين في الكيف فقط ،ويتحقق ذلك في المثال التالي :كل برتقال فاكهة ، ولا شيء من البرتقال بفاكهة . وحكم القضيتين المتضادتين ان تصدق احداهما وتكذب الأخرى في كل قضية يكون موضوعها اخص من محمولها كالمثال المذكور ، أما اذا كان موضوعها أعم من محمولها فانهما يكذبان معا مثل : كل فاكهة برتقال ،ولا شيء من الفاكهة ببرتقال ، فانهما كاذبتان معا . وعلى هذا فالقضيتان المتضادتان لا تصدقان معا ،ولكنهما قد تكذبان معا . اما التناقض : فهو التقابل بين قضيتين مختلفتين في الكم والكيف معا ويتحقق ذلك في المثالين الآتيين : كل عنب فاكهة (صادقة) نقيضها ،ليس بعض العنب فاكهة (كاذبه) . لا شيء من الانسان بفرس (صادقة) نقيضها بعض الانسان فرس (كاذبة) ، والقضيتان المتناقضتان لا تكذبان معا بل لابد من صدق احداهما وكذب الأخرى . وبناء على ذلك فالنفي والاثبات لا يرتفعان عن قضية ما ،بل لابد من ثبوت احدهما لها ونفي الآخر عنها (راجع بتوسع ص٥٥) . والماركسية فهمت التضاد خطأ ، فاعتبرت الشيء المختلف عن الآخر ضد ، وهو ليس كذلك اذ القول ان البيضة ضد الفرخة باطل ،اذ التضاد ليس الاختلاف المجرد بين الأشياء ،بل التضاد هو الوصف الذي لا يمكن ان يجتمع مع الوصف الآخر في وقت واحد في شيء واحد ،بل ،ربما يرتفعان عنه ، بمعنى آخر ان الضدان لا يجتمعان بل قد يرتفعان ، فالانحناء هو ضد الاستقامة وليس نقيضه ، بمعنى ان الخط لا يجتمع فيه استقامة وانحناءة في آن واحد ولكن قد يرتفعان عن الخط ،وعندئذ يكون منكسرا مثلا . اذن فالتناقض غير التضاد ، ولكننا مع ذلك سنسير في بحثنا وفق المفهوم الماركسي للنقيض والتضاد تسهيلا للفهم ، راجع بتوسع المرشد السليم في المنطق الحديث والقديم للدكتور عوض الله جاد حجازي ص ١٢٥

٢) ستالين . المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص١٢

ويقول لينين عن نظرية التناقض بأنها (نواة) الديالكتيك الماركسي التى هى مفتاح فهم جميع نواحى وعوامل التطور" . "١"

ويقول أيضا : ان الديالكتيك بالمعنى الخاص للكلمة هو : درس التناقضات فى ماهية الأشياء نفسها . " "٢" ويقول فى مكان آخر : التطور هو صراع المتضادات"٣"

ذلك هو مفهوم الحركة فى الطبيعة ، وابعادها فى نظر المادية الجدلية . ان الحركة فى الطبيعة هى قانون عام كقانون الترابط فى الكون ، كما مر بنا ذكره فى الفصل الأول — وليس فهما جديدا قدمه الديالكتيك للفكر البشرى ، واضافه اليه ، وان الذى لا ينكره عاقل هو ان مسألة التغير والتبدل فى الطبيعة مسألة لا تحتاج الى جدال طويل ، اذ ليست موضع خلاف بين الأفهام البشرية .

ان الميتافيزيقى فى نظر المادية الجدلية يعتقد ان الطبيعة جامدة ساكنة ، وان كل شىء فيها ثابت لا يتغير ، ولا يتبدل ، كأنه حرم من جميع الوان الادراك وسلب الشعور والاحساس ، فصار لا يشعر بما يحس به جميع البشر ، وحتى الاطفال ، من صنوف التبدل والتغير فى دنيا الطبيعة .

ولا نجد مبررا لمثل هذه الاتهامات الجوفاء الا الازدراء بفلسفة الآخرين ووصمهم ببلادة الحس والشعور بغية ان يظهر الفكر الجدلى منطقيا ومعقولا ، طالما ان الشعارات البراقة ، والدعاوى العريضة تفعل فعلها المرجو فى صفوف الجماهيـر .

قلنا ان الحركة فى الطبيعة ليست محلا لنقاش وجدال بين البشر ، بل ان الجدير بالاعتبار هو ماهية الحركة ، ومدى شمولها وعمقها .

---

(١) جماعة من الاساتذة السوفييت ، اسس الاشتراكية العلمية المادية الديالكتيكية ص ٢٥٧ .
٢) لينين . الدفاتر الفلسفية ص ٢٦٣ .
٣) عن لينين . المؤلفات الكاملة . ج ١٣ ص ٣٠١

ذلك أن المادية الجدلية جعلت من قانون التناقض في الطبيعة أساسا لتبرير حركة التطور في سائر جوانب الكون ، اذ أنهم بعد أن أبعدوا من حسابهم قضية السبب الأول في الخلق والايجاد "١" ،والذى اخرج الممكن من حيز الامكان والقوة الى حيز الوجود والفعل ، عندئذ وجدوا أنفسهم مضطرين الى ابتداع سبب آخر يكون علة مناسبة ،ودافعا لعجلة التطور والحركة ، فقالوا : ان المادة نفسها تحتوى رصيدَ التطور ، والقدرةَ على التقدم •

ولكن اذا قيل لهم من اين للمادة هذا الرصيد في القدرة على الحركة ؟ قالوا : ان المادة عبارة عن وحدة أضداد ، ومجتمع تناقضات • واذا كانت المادة وحدة أضداد ونقائض فمن الطبيعي أن يحدث صراع بين تلك النقائض ،وعن هذا الصراع ينبثق التطور والتغير ، وبناء على ذلك تكمل الطبيعة سيرها •

ولهذا كله لم يجد أصحاب المادية الجدلية أنهم بحاجة الى مبدأ عدم التناقض ،فانكروه ، بل اعتبروه من خصائص تفكير الالهيين الذين جمدوا عقولهم ،وساروا في ركب الأوهام والخرافات•

قالوا : " ولو انه لم يكن هناك تناقضات داخلية في الأشياء والظواهر ،ولو أنه لم يكن صراع بين النواحي والاتجاهات المتناقضة لبقيت الأشياء والظواهر غير متبدلة ،ولما أمكن حدوث التطور والتبدل النوعي ، ولبقى كل شيء في حالة الجمود"٢"

ولذلك فقد أصبح من الضروري أن نوضح مفهوم الحركة في مفهومها الطبيعي والذى يمكن للعقل البشري ان يقبلها ، لتكون منسجمة مع قواعده المنطقية• ثم نتعرض لمسألة التناقض بشيء من التفصيل •

---

١) راجع بحث السببية ص

٢) جماعة من الأساتذة السوفييت المرجع السابق ص ٢٦٥ •

الحركة في مفهومها الواقعي :

ان قانون التطور والتبدل في الطبيعة ، ليس جديدا من اكتشاف الجدليين وانما الجديد فيه طابعه الديالكتيكي ، فهو في حدوده الصحيحة ينسجم مع المنطق العام وطبيعة الأشياء ، ولا صلة له بالديالكتيك من أي وجه.

لقد حدث في التاريخ الفلسفي صراع حاد ليس في مسألة التطور ، بل في مسألة ماهية التطور وتفسيره الدقيق. وكان الصراع يدور حول السؤال الآتي : أن التغير الذي يحصل حين يقطع جسم مسافة ما ، هل هو وقفات متعددة في اماكن متعددة تعاقبت بسرعة ، فتكونت في الذهن فكرة الحركة ؟ أم أنه سير متدرج لا وقوف فيه ولا سكون ؟. وهل التغير الذي طرأ على الماء المغلي ، كان وقفات لدرجات حرارات متعاقبة ، يتلو بعضها بعضا ؟ ، أم هو عبارة عن حرارة واحدة تتكامل وتترقى الى أعلى ؟.

هذا هو السؤال الذي كان مثار صراع في تاريخ الفكر الفلسفي ، والذي شغل بال كثير من الفلاسفة والمفكرين عبر تاريخ طويل .

" والتاريخ الاغريقي يحدثنا عن بعض المدارس الفلسفية أنها أنكرت الحركة وأخذت بالتفسير الآخر للتغير ، الذي يرد التغيير الى تعاقب أمور ساكنه . ومن رجالات تلك المدرسة (زينون) الذي أكد على أن حركة المسافر من أقصى الأرض الى أقصاها ليست الا سلسلة من سكنات متعاقبة . فهو لا يتصور التدرج في الوجود والتكامل فيه ، بل يرى كل ظاهرة ثابتة ، وأن التغير يحصل بتعاقب الأمور الثابتة ، لا بتطور الأمر الواحد وتدرجه ، وقد برهن على وجهة نظره بأدلة لم يقدر لها النجاح والتوفيق في الميدان الفلسفي ، لأن مدرسة ارسطو وهي المدرسة الفلسفية الكبرى في العهد الاغريقي آمنت بالحركة ، وردت على تلك الأدلة وزيفتها ، وبرهنت على وجود الحركة والتطور في ظواهر الطبيعة ، وصفاتها . بمعنى أن الظواهر الطبيعية قد لا توجد على التمام في لحظة بل توجد على التدرج ، وتستنفد امكاناتها شيئا فشيئا ، وبذلك يحصل التطور ويوجد التكامل . " (١)

---

١) محمد باقر الصدر : فلسفتنا — ص ٢١١ — ٢١٢

ومن البين فان الحركة التطورية أو التكامل في الطبيعة ،لا يمكن أن يفهم الا على هذا الأساس ،فان تتابع الظواهر المتعددة التي توجد كل واحدة منها بعد سابقتها ، كي تفسح المجال بفنائها لظاهرة جديدة تحل محلها ، ان هذا اللون من التغير لا يعد من قبيل النمو والتكامل ، وبالتالي فهو ليس بحركة تطورية ، وانما هو لون من التغير العام.

ومن هنا يظهر (أن الحركة عبارة عن سير تدريجي للوجود ، وتطور للشيء التي تتسع لها امكاناته . ولذلك فقد اصطلح في المفهوم الفلسفي بأن الحركة عبارة عن خروج الشيء من القوة الى الفعل "١" تدريجيا " "٢".

وعلى هذا فان الحركة ليست عبارة عن فناء الشيء فناء كليا ، ووجود شيء آخر جديد ، وانما هو تطور في درجات الوجود . وبناء على ذلك فان كل حركة لابد أن تحتوى على وجود واحد مستمر ومتدرج ، يجرى ويتدرج بصورة واحدة ، وكل هذه المراحل توجد في الحركة . فالشيء المتحرك أو الوجود المتحرك لا يملكها قبل الحركة ، والا لما وجدت حركة ،بل ان الوجود في حالة الابتداء والانطلاق يبدو لنا في شكل قوى وامكانات ، وبالحركة والتطور تستنفد تلك الامكانات مراحلها حتى نهايتها .

ولنمثل لذلك بالانسان في مراحل تطوره :
قال سبحانه : " يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، ونقر في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا اشدكم ، ومنكم من يتوفى ،ومنكم من يرد الى أرذل العمر ... " "٣" الآية .

فالانسان عندما يكون طفلا لا يملك من الرجولة والشباب الا امكانهما ،وهذا

---

١) القوة عبارة عن امكان الشيء ، والفعل عبارة عن وجوده حقيقة .
٢) نفس المصدر ص ٢١٣
٣) سورة الحج آية ٥

الامكان الذي يملكه ليس امكانا لمرحلة معينة من تطوره نحو الرجولة والشباب ، بل هو امكان لكل مرحلة تنهيء لما بعدها • وحينما يبدأ جسمه بالنمو تبدأ عملية التطور والحركة ، بمعنى أن القوى والامكانات التي كان يملكها الطفل تبدلت الى حقيقة • والطفل في كل مرحلة من مراحل الحركة يخرج من امكان الى فعلية ، ولذلك تكون القوة والفعل متشابكتين في جميع أدوار الحركة ، وفي اللحظة التي تستنفد فيها جميع الامكانات تقف الحركة فيه فيسلم الى الموت •

فالحركة اذن في كل مرحلة من مراحل التطور ذات لونين ، فهي من جانب فعلية وواقعية — ماحصلت بالفعل — لأن الدرجة التي تسجلها المرحلة موجودة بصورة واقعية وفعلية • ومن ناحية أخرى هي امكان وقوة للمراحل الأخرى الصاعدة ، التي ينتظر من الحركة أن تسجلها في مراحلها الجديدة •

واذا أردنا أن نبسط المثال اكثر فنقول : ان الطفل مر بمراحل متعددة قبل ان يصبح طفلا • فقد كان في فاتحة أمره نطفة ثم علقة ثم تدرج حتى صار جنينا ثم ولد طفلا ، ثم اجتاز مرحلة الطفولة ، وصار مراهقا فشابا فكهلا فشيخا • ان هذا الكائن في مرحلة من مراحل تطوره كان نطفة بالفعل ، ولكنه بالقوة والامكان فهو علقة ، ذلك لأنه قابل ان يكون كذلك • وهو في مرحلة أخرى جنين بالفعل ، ولكنه في نفس الوقت شيء آخر مقابل للجنين وارقى منه ، انه طفل بالقوة والامكان • ومعنى ذلك أن الحركة خلال سير تطور هذا الكائن قد ازدوجت فيها الفعلية والقوة معا •

فلو لم يكن في الكائن الحي قوة درجة جديدة ، وامكانها ، لما وجدت حركة اصلا ، ولو لم يكن شيء من الأشياء بالفعل لكان عدما محضا فلا توجد حركة ايضا ، وقس على ذلك جميع ضروب التطور في الطبيعة بأنواعها واشكالها •

وبناء على ذلك نقول : ان التطور يتألف دائما من شيء بالفعل وشيء بالقوة وهكذا تستمر الحركة ما دام الشيء يحتوي على الفعلية والقوة ، أو على الوجود والامكان • فاذا نفد الامكان ، ولم تبق في الشيء طاقة او امكان على درجة جديدة انتهى عمر الحركة •

ذلك هو المفهوم الصحيح للحركة ، والذي يتمشى مع طبيعة الأشياء وواقعها في الكون ، ويقبلها العقل السليم والمنطق السوي ، وهو ما عليه العقلاء والمفكرون • فهل يسوغ لهم بعد ذلك اتهام الالهيين والميتافيزيقيين بأنهم يؤمنون بجمود الطبيعة وسكونها •

وخلاصة القول : ان هذا الاتهام لا مبرر له الا سوء فهم الماديين الجدليين للحركة في مفهومها الواقعي الصحيح •

الفعل والامكان ليسا متناقضين :

قلنا ان الحركة بمفهومها الديالكتيكي تقوم على أساس التناقض ، والصراع بين المتناقضات في المحتوى الداخلي للأشياء في الطبيعة ، وينتج عن هذا الصراع التطور والتغير في دنيا الطبيعة •

وعلى عكس ذلك تماما تقف النظرة الواقعية والصحيحة للحركة • انها تعتبر الحركة سيرا من درجة الى درجة الى مقابلة لها من دون أن تجتمع تلك الدرجات المتقابلة في مرحلة واحدة من مراحل الحركة أو التطور •

ولأجل ان يتضح الحال اكثر علينا أن نفرق بين القوة والفعل ، ومن ثم نعمد الى تحليل المغالطة الماركسية التي اعتبرت القوة والفعل أو الامكان والفعل وحدة متناقضة •

" ان الحركة مركبة من قوة وفعل — كما مر بنا سابقا — والقوة والفعل متشابكتان في جميع ادوار الحركة ، ولا يمكن أن توجد ماهية الحركة دون أحد هذين العنصرين ، فالوجود في كل دور من أدوار سيره التكاملي يحتوي على درجة معينة بالفعل ، وعلى درجة أرقى منها بالقوة ، فهو في اللحظة التي يتكيف فيها بتلك الدرجة يسير باتجاه متصاعد ، ويتخطى درجته الحاضرة ، وقد خيل للماركسية ان هذا لون من التناقض ، وان الوجود المتطور يحتوي على الشيء ونقيضه ، وان هذا الصراع بين النقيضين هو الذي يولد الحركة ". " ١ "

---

١) راجع محمد باقر الصدر • فلسفتنا ص ٢١٧

وقد صور انجلس ذلك التناقض الداخلي في الأشياء حسب النظرة الماركسية الى الطبيعة بقوله : ان الوضع يختلف كل الاختلاف، اذ ننظر الى الكائنات وهي في حالة حركتها ، في حالة تغيرها ، في حالة تأثيراتها المتبادلة على بعضها البعض حيث نجد أنفسنا بدء هذه النظرة بأننا مغمورون في التناقضات ، فالحركة نفسها هي تناقض ، ان ابسط تغير ميكانيكي في المكان لا يمكن أن يحدث الا بواسطة كينونة جسم ما ، في مكان ما ، في لحظة ما ، وفي نفس تلك اللحظة كذلك ، وفي غير ذلك المكان ، أي كينونة وعدم كينونة معا في مكان واحد ، وفي نفس اللحظة الواحدة ، فتتابع هذا التناقض تتابعا مستمرا ، وحل هذا التناقض حلا متواقتا مع هذا التتابع هو ما يسمى بالحركة " "١" .

ان نظرة الى الحركة في المادة كما يراها الجدليون على حد تعبير انجلس أمر يدعو الى الابتسام بل الى السخرية ، وكان انجلس لم يعلم ان درجتين من الحركة لو كانتا موجودتين بالفعل في مرحلة معينة من مراحل تطورها ، لما كان هناك حركة أصلا ، ولما امكن التطور ، وبالتالي لجمدت الحركة وتوقفت عملية الحياة .

فصار من الضروري بل من المحتم تفسير الحركة ليس على اساس قانون التناقض الداخلي للأشياء ، بل على اساس عدم التناقض ، وهو القانون الذي سار عليه العقلاء من حين أن شعروا بالموجودات حولهم . وليس رفضنا لهذا القانون بالنظر لكونه تفسيرا جديدا للكون ، كلا ، فاننا لا نقف امام الفهم العلمي للكون ودراسته — نستغفر الله — بل لأنه فهم مخالف للمنطق السليم وطبيعة الموجودات.

" والا لو جاز التناقض فمن حقنا أن نتساءل هل الحركة تنطوي على التغير في درجات الشيء المتطور ، والتبدل في حدوده ونوعيته أولا ؟

فان لم يكن فيها شيء من التغير والتجدد فليست هي حركة ، بل هي جمود وثبات ، وان اعترفت الماركسية بالتجدد والتغير في الحركة ، فلماذا هذا التجدد ،

---

١) انجلس . ضد دوهرنغ الفلسفة ص ٢٠٢

اذا كانت المتناقضات كلها موجودة بالفعل ، ولم يكن بينها تعارض ؟ .

ان ابسط تحليل للحركة يطلعنا على أنها مظهر من مظاهر التمانع ، وعدم امكان الاجتماع بين النقائض وحده . وليس التناقض أو الديالكتيك المزعوم في الحركة الا باعتبار الخلط بين القوة والفعل ، فالحركة في كل مرحلة لا تحتوى على درجتين أو فعلتين متناقضتين ، وانما تحتوى على درجة بالفعل ، وعلى درجة أخرى بالقوة ، ولذلك كانت الحركة خروجا تدريجيا من القوة الى الفعل "١" .

ان عدم الوعي الفلسفي حمل الجدليين الى تزوير مفهوم الحركة عن معناها الصحيح ، الواقعي . وبهذا يتضح أن مفهوم التناقض في الحركة ، وما صاحبه من ضوضاء وسخرية بالافكار الالهية والميتافيزيقية ، التي تؤمن بمبدأ عدم التناقض سببه هو سوء فهم الجدليين للحركة حيث اعتبروا اتحاد القوة والفعل في جميع مراحل الحركة عبارة عن اجتماع متقابلات ، وتناقض مستمر ، وصراع بين التناقضات مما حملها على انكار مبدأ عدم التناقض .

وأخيرا يمكننا أن نقرر ماهية الحركة في مفهومها الحقيقي فنقول : ان الحركة ليست صراعا بين التناقضات في المحتوى الداخلي للأشياء ، بل هي اتحاد وتشابك بين القوة والفعل ، وخروج بالتتالي والتدرج من القوة الى الفعل "٢" ولذا فهي لا تكتفي ذاتيا دون سبب كان علة في وجودها ، وابرازها من حيز الامكان الى حيز الفعل ، وان كل وجود متطور لا يخرج عن حالته الراهنة الا لسبب خارجي عنه ، اذ لولا النار لما كان هناك تحول في درجات الحرارة . وان هذه الأسباب وضعها الله عز وجل في الكون لتكون علة في تطوره ودفعه نحو الامام .

---

١) راجع ذلك بتوسع كتاب فلسفتنا لمحمد باقر الصدر ص ٢١٩ - ٢٢٠

٢) من شرط التناقض الاتحاد في الزمان ، ولا اتحاد بين القوة والفعل في ذلك فينتفي التناقض بينهما ، وسيأتي الكلام عنه مفصلا ان شاء الله

تخبـــط واضطـــــراب :

ان الماركسية التى رفضت مبدأ عدم التناقض الذى هو من الأفكار البديهية المسلمة ، وافترضت مبدأ التناقض ، فهى بين الانكار لمبدأ عدم التناقـــض ، والاثبات لمبدأ التناقض ، أنكرت الأول وأقرت الثانى ، ولم تستـــطع ان تجمع بينهما فى فلسفتها ، وذلك لأنهما نقيضان ، والنقيضان لايجتمعان ، وهى بهذا الانكار والاقرار وقعت فى شراك مبدأ عدم التناقض من حيث لا تدرى . ذلك لأن من مبدأ التناقض ان كل شىء فى الطبيعة نقائض مجتمعه فى محتواها الداخلى .

ذلك أن الجدلى عندما يؤمن بمبدأ التناقض والصراع الداخلى فى الأشياء يرفض مبدأ عدم التناقض الذى تؤمن به الأديان والميتافيزيقا ، ولا يجد عن ذلك محيصا ، وما ذلك الا لأن الطبيعة البشرية لايمكن لها أن توفق بين السلـــب والايجاب ، والانكار والاثبات ، بل تستشعر بداخلها التعارض التام بينهما .

والا فاننا نسأل الماركسية : لماذا رفضت مبدأ عدم التناقض ، واعتقدت بطلانه ؟ . أليس لأنها آمنت بمبدأ التناقض ، أما مبدأ عدم التناقض فهو نقيض ما اعتقدته فلم تتخذه قانونا عاما لتغيير الطبيعة والواقع ، ولذلك لم تستطـــع أن تجمع بينهما لأنهما نقيضان ، والنقيضان لايجتمعان . اذا فاجتماعهما باطل فيبطل مبدأ التناقض ويبقى مبدأ عدم التناقض لأنه يواكب طبيعة الأشياء ويفسرها تفسيرا معقولا .

فتبين من ذلك ان مبدأ عدم التناقض هو الأساس العام فى الفكر البشـــرى عامة ، حتى فى أشد لحظة تحمس الفكر الجدلى الديالكتيكى .

ذلك لأن الطبيعة البشرية لا تستسيغ قبول النفى والاثبات فى آن واحـــد بل لابد لها من اعتقاد احدهما ورد الآخر .

انكـــار لمبادىء العلم الأساسيـــة :

ان قانون التناقض الديالكتيكى يسقط مبدأ الهوية ، الذى هو اساس العلـــوم

جميعها وهو (أ هي أ) وعليه بنت العلوم نظرياتها وقواعدها العلمية .

فقد جاء القانون الجدلي فأجاز أن يكون الشيء غير نفسه ، وذلك لأن القانون الديالكتيكي يحتم ذلك . لأن كل شيء متضمن لنقيضه ، وهو يعبر عن نفسه اثناء وجوده ، وعلى هذا فليست (أ هي أ) بصورة مضطردة ، ذلك لأن كل شيء هو نقيض ذاته ونفيها في آن واحد ، كما أنه اثبات لها . فهو يحتوي على النفي والاثبات المستمرين في الصراع كي تتم حركة التطور في الطبيعة .

فالمشكلة اذن ذات شقين لا ثالث لهما بين الديالكتيك والميتافيزيقا .

أولا : فاما ان تؤمن الجدلية بمبدأ عدم التناقض ، فلا اثبات ونفي في صميم الأشياء في وقت واحد ، ولا صراع بينهما . وعندئذ فلابد من التفتيش عن رصيد الحركة والتطور في سبب أعلى وراء الطبيعة ، وهذا لا تريده الماركسية لأنه سيقودها حتما الى الايمان لا محالة بالخالق سبحانه .

ثانيا : واما ان تبني اعتقادها على فكرة الصراع بين المتناقضات في محتوى الأشياء في الطبيعة ، وتتوحد الاضداد . النفي والاثبات في كل شيء ، فتكون قد وصلت الى السر الجوهري في التطور والتقدم لجميع حوادث الطبيعة .. في زعمها — وقد بينا تهافت هذا الاعتقاد وجوانب بطلانه .

مبدأ عدم التناقض :

قال صاحب كتاب فلسفتنا : ان مبدأ عدم التناقض هو المبدأ القائل بأن التناقض مستحيل ، فلا يمكن أن يتفق النفي والاثبات في حال من الأحوال ، وهذا واضح . ولكن ما هو هذا التناقض الذي يرفضه هذا المبدأ ، ولا يمكن للعقل قبوله ؟ فهل هو كل نفي واثبات ؟ كلا . فان كل نفي لا يناقض أي اثبات ، وكل اثبات لا يتعارض مع كل نفي ، وانما يتناقض الاثبات مع نفيه بالذات ، لا مع نفي اثبات آخر ، ووجود الشيء يتعارض بصورة أساسية مع عدم ذلك الشيء ، لا مع عدم شيء آخر . ومعنى تعارضهما انهما لا يمكن ان يتوحدا أو يجتمعا " (١)

(١) من فلسفتنا لمحمد باقر الصدر ٢٣٨

وبعبارة أوضح أن للتناقض شروطا يتحقق بها ، فاذا اختل شرط منها لم يعد تناقضا ، بل يكون الترديد بين النفي والاثبات صحيحا ، ويشترط في التناقض اربعة شروط هي :

أولا : اختلاف القضيتين في الكيف ، بأن تكون احداهما موجبة ، والأخرى سالبة مثاله : كل حديد معدن نقيضها ليس بعض الحديد معدن .

ثانيا : اختلاف القضيتين في الكم ، فيما عدا الشخصية "١" فالاختلاف فيها في الكيف . مثاله بعض الانسان فرس ، لا شيء من الانسان بفرس .

ثالثا : اختلاف القضيتين في الجهة ، ان كانتا موجهتين ، فنقيض الضرورية ، الممكنة . ونقيض الدائمة المطلقة . والعكس بالعكس . كل انسان جسم بالضرورة ، نقيضها بعض الانسان ليس جسما بالامكان (كاذبة) ، الثانية كل كاتب متحرك الاصابع ما دام كاتبا ، نقيضها ليس بعض الكاتب متحرك الاصابع بالفعل (كاذبة) .

رابعا : يشترط الاتحاد فيما عدا ذلك : وقد حصر المتقدمون من المناطقة ما يجب فيه الاتحاد في ثمانية : فقالوا يجب الاتحاد في الموضوع وفي المحمول . وفي المكان . وفي الزمان . وفي الشرط . وفي الاضافة ، وفي الجزء والكل . وفي القوة والفعل .

أما الاتحاد في الموضوع : فهو أن يتناول النفي والاثبات أو الايجاب والسلب موضوعا واحدا ، وعلى ذلك فلا تناقض في قولنا : ان المربع ذو اربعة أضلاع وأن المثلث ليس له اربعة اضلاع ، وذلك لاختلاف الموضوعين اللذين تناولهما السلب والايجاب . اما اتحاد المحمول فهو أن يكون المحمول أو المحكوم به في كلا القضيتين واحد . وعليه فلا تناقض في قولنا محمد رسول الله ، ومحمد ليس بشاعر وذلك لاختلاف المحمول في القضيتين .

واما اتحاد الزمان : فهو أن يكون النفي والاثبات قد تناولا الموضوع في زمن واحد ، وعلى ذلك فلا تناقض بين الانسان لا يشعر بغريزة الجنس في دور الطفولة ، والانسان يشعر بها في دور الشباب ، وذلك لاختلاف العهدين بين الطفولة والشباب . واما الاتحاد في المكان : فهو ان يتناول النفي

---

(١) القضية الشخصية ، ما كان موضوعها مشخصا مثل محمد فاهم

والاثبات الموضوع فى مكان واحد لا يتعداه ، وعليه فلا تناقض بين محمد موجود فى المدرسة ، ومحمد ليس موجودا فى البيت لاختلاف المكان .

والاتحاد فى الشرط هو ان يكون المشروط واحداً ، فاذا اختلف المشروط فلا تناقض بين النفى والاثبات ، مثاله الجسم مفرق للبصر بشرط كونه ابيض ، والجسم ليس بمفرق للبصر بشرط كونه اسود . والاتحاد فى الاضافة وعلى ذلك فلا تناقض بين محمد اب ، اى ولبكر محمد ليس أبا ، أى لخالد . والاتحاد فى الجزء والكل ، وعليه فلا تناقض بين المصريون يتكلمون الانجليزية (أى بعضهم) والمصريون لا يتكلمون الانجليزية (أى كلهم) ، والاتحاد فى القوة والفعل وعليه فلا تناقض بين الطفل لا يعقل (أى بالفعل) ، والطفل يعقل (أى بالقوة).

والتحقيق انه لا حصر فى هذه الثمانية ، بل لابد من توافر شروط أخرى فلابد من اتحاد المفعول فلا تناقض بين : محمد يذاكر (اى الانجليزية) ، ومحمد لا يذاكر (أى البلاغة) ولابد من اتحاد الآله ، فلا تناقض بين : خالد يقطع الخشب (اى بالمنشار) وخالد لا يقطع الخشب (أى بالسكين) ، ولابد من اتحاد الحال ، فلا تناقض بين : حضر بكر الى الكلية (أى راكبا) ، ولم يحضر بكر الى الكلية (أى ماشيا) وغير ذلك .)"١"

فان توفرت هذه الشروط فى قضيتين ، كانتا متناقضتين حقيقة . وحكم النفى والاثبات فيهما ، انهما لا يجتمعان ولا يرتفعان ، بل لابد من ثبوت احدهما ونفى الآخر ، وعلى ذلك ، فان القضيتين المتناقضتين لا يجوز ان تصدقا معا ، بل لابد من صدق احداهما وكذب الأخرى ، والا لزم اجتماع النقيضين ، وهو باطل . ولا يجوز ان يكذبا معا ، والا لزم ارتفاع النقيضين ، وهو باطل ، فبقى ان احداهما صادقة والأخرى كاذبة. واذا لم يتوفر أحد هذه الشروط فى قضيتين ما ، لم يعد هناك تناقض ، بل كلام صادق ومعقول . ومن يدع وجود التناقض الحقيقى فى الطبيعة بمعنى اجتماع النقيضين بشروطه المذكورة آنفا ، فاننا نطالبه بمثال واحد تتوافر فيه شروط التناقض هذه ، كى يثبت دعواه ، والا فما دون ذلك سفسطة وهزل .

---

(١) بتصرف عن المرشد السليم فى المنطق الحديث والقديم . للدكتور عوض الله جاد حجازى ، طبعة رابعة ، ص ١١٧ — ١١٨ ، القاهره . دار الطباعة المحمدية . مصر

ان المنطق الدينى يعتبر ان التناقض انما يكون بين النفى والاثبات اذا تحققت شروطهما ، وأنه لا يصدق بحال ، قال سبحانه : " أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون " . "١" والجواب بالقطع لا ، اذ ان شروط تحقق النفى والاثبات قد توافرت ، فهما متناقضان ، والمتناقضان لا يجتمعان بل ولا يرتفعان ، بل لابد من صدق أحدهما وكذب الآخر ، ومن الطبيعى ان الذى يخلق خير من الآخر ، ولا يتساويان . والآية هنا مسوقة بصيغة الاستفهام الاستنكارى المراد منه التقرير بأن الذى يخلق ليس كمن لا يخلق .

هذا هو ~~المنهج العقلى الذى سارت عليه~~ الحد الذى جاءت به الديانات السماوية ، والمبادىء الفلسفية والمنطقية ، منذ بزوغ فجر الفكر البشرى الى يومنا هذا . ولم يشذ عن هذا الفهم الا مكابر .

كيف فهمت الماركسية التناقض :

وبعد هذه الجوله حول توضيح مبدأ عدم التناقض ومحتواه الأساسى ، علينا أن نعرف كيف فهمت الماركسية مبدأ عدم التناقض ، والبراهين التى اعتمدت عليها فى رد هذا المبدأ .

وان من الواضح أن الماركسية لم تستطع أن تفهم هذا المبدأ على وجهه الصحيح فتنكرت له ، تمشيا مع مذهبها المادى فى الحياة ، وراحت تفتش عن الأمثلة التى لا تنسجم مع مبدأ التناقض فى قليل أو كثير ، وجعلت من التناقض والصراع بين النقائض والأضداد مرتكزا وأساسا لمنطقها المبتكر . وذهبت تملأ الدنيا عويلا وصراخا بهذه القاعدة الجديدة متطاولة على المنطق البشرى العام باكتشافها المزعوم .

ومن أجل أن ندرك أبعاد الخطأ الذى وقعت فيه الجدلية ، والذى جعلها ترفض مبدأ عدم التناقض ، وما يترتب عليه من مبادىء وقواعد عامة لمنطق العقلاء والأديان ، لابد لنا من أن نفرق بين أمرين هامين : " احدهما الصراع بين أضداد ونقائض خارجية ، والآخر الصراع بين اضداد ونقائض مجتمعة فى وحدة معينة .

---

١) سورة النحل آية ١٧

فالثاني هو الذي يتنافى مع مبدأ عدم التناقض ، وأما الأول فلا علاقة له بالتناقض مطلقا ، لأنه لا يعني اجتماع النقيضين ، أو الضدين ، بل مرده الى وجود كل منهما بصورة مستقلة ، وقيام كفاح بينهما يؤدي الى نتيجة معينة " . "١"

ولنمثل لذلك ببعض الأمثلة : فشاطئ البحر مثلا ، قد نتج عن فعل متبادل بين أمواج مياه البحر التي تصطدم بالأرض ، من ناحية ، وصمود الأرض في وجه الأمواج وصدها من ناحية أخرى ، ينتج عن هذا الصراع الشاطئ المعروف. فالشاطئ اذن هو نتيجة للصراع المتبادل بين أمواج البحر من جهة وصمود اليابسة من جهة ثانية .

وكذلك الوديان سواء كانت وديانا جبلية أم سهلية فهي نتيجة عن فعل متبادل او صراع بين انهمار الأمطار الغزيرة التي تسبب السيول الجارفة وبين صمود الأرض أمام السيول العارمة ينتج عنها شكل وديان ومجاري وأنهار .

يقول الشاعر ابو تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى　　　فالسيل حرب للمكان العالي

والطاولة أيضا التي تحت يدي هي نتيجة عن فعل متبادل أو صراع بين كتلة الخشب من جانب ، والنجار مع أدواته من جانب آخر . وهكذا كل شيء في الطبيعة فهو نتيجة لعملية قامت بين قوتين كل واحدة منهما مستقلة عن الأخرى ، وهي ما يمكننا ان نسميها نقائض وأضدادا خارجية .

فاذا كانت المادية الجدلية تعني هذا اللون من الصراع بين الأضداد الخارجية ، فهذا شيء لا يتعارض مطلقا مع مبدأ عدم التناقض ، وهو كلام معقول ومقبول ، ولا يدعو أبدا للايمان بمبدأ التناقض الذي رفضه الفكر البشري على مر التاريخ ، وذلك لأن الاضداد هنا لم تتجمع أو تتحد في ذات واحدة ، بل وجد كل منها بوجود خاص به مستقل عن الآخر تمام الاستقلال ، ولكن قام بينهما صراع متبادل حصلت عنه نتيجة معينة .

---

١) محمد باقر الصدر ، نفس المصدر ص ٢٤٠

وان هذا الصراع بين أضداد ونقائض خارجية لايبرر الاكتفاء الذاتي والاستغناء عن سبب خارجي عنه.

فشكل الشاطئ ، ومجارى الوديان ، والأنهار ، والطاولة الخشبية وغيرها ، لم ينشأ ذلك كله عن تطور أساسه التناقضات الداخلية في الأشياء ، وانما حصل من جراء عملية خارجية حققها ضدان كل مستقل عن الآخر ، وهذا النوع من الصراع بين الأضداد والنقائض ليس من مكتشفات الديالكتيك ، بل هو أمر معروف ، وبديهي لكل عاقل ، قال سبحانه : " وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج " " ١ "

ان الماء فيه عناصر الانماء اذا سقط على حبة سليمة في أرض صالحة ، والحبة السليمة في الأرض الصالحة قابلة للنمو أيضا اذا صادفها ماء ، ونتيجة للفعل المتبادل بينهما يخرج النبات أخضر ، وتزهو الأرض ببهجتها وجمالها .

قلنا ، ان هذا الفهم ليس جديدا في الفكر البشري ، بل هو مقرر منذ اقدم العصور ، ولنأخذ لذلك مثالا من كلام ارسطو امام الفلسفة اليونانية ، ونخصه على وجه التحديد نظرا لأنه يؤمن بالصراع بين الاضداد الخارجية ، مع اقامته المنطق على مبدأ عدم التناقض ، ولعله لم يكن يخطر على بال ارسطو وقتئذ انه سيأتي شخص بعد مئات السنين يجعل من ذلك الصراع دليلا على سقوط مبدأ عدم التناقض الذي بنى عليه ارسطو فكره وفلسفته .

وقد ورد في بعض نصوص ارسطو قوله : وعلى جملة من القول ، ان شيئا مجانسا يمكن ان يقبل فعلا من قبل الشيء المجانس ، والسبب فيه ان جميع الأضداد وهي في جنس واحد ، وان الأضداد تفعل بعضها في بعض ، وتقبل بعضها من قبل البعض الآخر " . " ٢ "

---

١) سورة الحج آية ٥

٢) ارسطو . الكون والفساد ص ١٦٨ — ١٦٩ . عن كتاب فلسفتنا ص ٢٤١

ويقول أيضا : فبحسب الصورة قد انضم شيء ما لكل جزء كيفما اتفق ، ولكن لا بحسب المادة ، ومع ذلك فان الكل صار أعظم ، لأن شيئا جاء وانضم اليه ، وهذا الشيء يسمى الغذاء ، ويسمى أيضا الضد ، ولكن هذا الشيء لا يزيد من أن يتغير في النوع بعينه ، كمثل ما يأتي الرطب ينضم الى اليابس، وانضمامه اليه يتغير ، بأن يصير هو نفسه يابسا " [١].

ومن هنا يبدو واضحا ان العمليات المشتركة للأضداد الخارجية ، ليس كشفا للمادية الجدلية في عالم الطبيعة والفكر ، بل هو مقرر في الفكر البشرى منذ فجر التاريخ الى يومنا هذا . اما اذا ارادت الماركسية من التناقض مفهومه الحقيقي ــ الذى يجعل للحركة رصيدا من داخل المادة نفسها بفعل مبدأ التناقض ــ فهذا شيء لا تستطيع الماركسية ان تبرهن عليه ولا بدليل واحد من الطبيعة وظواهر الكون مطلقا .

ونحن اذ نقول ذلك نطالب المادية الجدلية بأن تعرض دليلا واحدا يثبت هذا التناقض الداخلي الذى تزعمه .

ان ما جاءت به الماركسية من الشواهد في الطبيعة لا يمت الى الجدل بأية صلة ، ولذلك فنحن سنأتي ببعض الأمثلة التي حشدتها للدليل على منطقها الجدلي ، لترى أبعاد العجز المدهش والفشل الذريع الذى منيت به الفلسفة الجدلية المادية حين حاولت أن تجد لمنطقها ادلة من واقع المادة والطبيعة .

تمثيلهم للتناقض :

وسنورد هنا ثلاثة أمثلة من الأمثلة التي استدلت بها الماركسية على دعوى التناقض ، كى نعرف مدى الصلة بين هذه الأمثلة وبين مبدأ التناقض في فلسفتهم للكون ، وقد مثلوا لذلك بأمثلة . أحدها في الجسم الحى ، والثاني بمقدرة الانسان على المعرفة ، والثالث بالحركة .

أما المثال الأول ففي الجسم الحى : قال هنرى لوفافر : برغم ذلك

---

١) نفس المصدر ص ١٥٤

أفليس من الواضح ان الحياة هي الولادة والنمو والتطور ، غير أن الكائن الحي لا يمكن أن ينمو دون أن يتغير أو يتطور ، يعني دون أن يكف عن كونه ما كان ، وكي يصير رجلا عليه ان يترك الصبا ويفقده ، وكل شيء يلازم السكون ينحط ويتأخر . الى أن يقول : فكل كائن حي اذن يناضل الموت ، لانه يحمل موته في طوية ذاته " ١ " .

وقال انجلس : رأينا فيما سبق ان قوام الحياة ، هو أن الجسم الحي في كل لحظة هو هو نفسه ، وفي عين تلك اللحظة هو ليس اياه ، هو شيء آخر سواه ، فالحياة اذن هي تناقض مستحكم ، في الكائنات ، والعمليات ذاتها " ٢ "

حقا كما قال انجلس ان الانسان يحتوي على عمليتين مختلفتين ، حياة وموت ، متجددتين ، وبعمل هاتين العمليتين فالحياة مستمرة وقائمة .

ولكننا نريد أن نسأل الماركسية سؤالا هو : اين التناقض بين هاتين العمليتين في الكائن الحي ؟ تعالو نحلل هاتين العمليتين — الموت والحياة — في الكائن الحي نجدهما أولا غير متفقتين في موضوع واحد — واتفاق الموضوع هو أحد شروط التناقض — فالكائن الحي وفي كل يوم يودع خلايا ميتة ، ويستقبل خلايا جديدة ، والموت والحياة يتقاسمان خلايا الانسان ، ولكن الخلية التي توجد في لحظة غير الخلية الميتة البالية ، وبناء على ذلك فالكائن قائم ومستمر ، وذلك بالخلايا المتجددة باستمرار ، وهكذا يبقى الانسان متطورا يجمع بين الفعل والامكان حتى تنتهي امكاناته فيموت .

نعم ان التناقض يحصل حين يستوعب الموت والحياة في لحظة واحدة جميع خلايا الكائن الحي . وهذا لا تعرفه طبيعة الاشياء ، أو أحد من البشر ، فالكائن الحي لا يحمل في كينونته الا امكان الموت ، وامكان الموت لا يناقض الحياة — لاختلاف الزمان الذي هو من شروط التناقض — وانما الذي يناقض الحياة هو الموت

---

١) هنري لوفافر . كارل ماركس ص ٦٠

٢) ضد ووهرنغ ، ص ٢٠٣

بالفعل ،وهذا لايتحقق بحال من الأحوال في موضوع واحد ووقت واحد كما عرفنا سابقا .

المثال الثاني : في مقدرة الانسان على المعرفة . يقول انجلس في معرض كلامه عن التناقض في الديالكتيك : وكما رأينا بأن التناقض مثلا بين قدرة الانسان على المعرفة مقدرة متأصلة ،ولا محدودة ،وبين تحقيق هذه القدرة تحقيقا فعليا في البشر الذين هم مقيدون بظروفهم الخارجية في التقدم اللامتناهي ، وبالنسبة لنا على الأقل ، وحسب وجهة النظر العلمية "١" .

وبنظرة عابرة على هذا النص نجد أيضا أنه ليس فيه دليلا على مبدأ التناقض فحسب ،بل يدل دلالة واضحة على عدم فهم الماركسية لمبدأ عدم التناقض .

فاذا صح أن البشرية قادرة على اكتساب المعرفة الكاملة ، وان كل فرد لايستطيع لنفسه ذلك ،فليس هذا دليلا على الديالكتيك ، وليس هذا ظاهرة شاذة عن المفهوم البشري العادي كذلك ، بل هو كقولنا ان باستطاعة الدول العربية متحدة مجابهة اليهود ، ولا تستطيع ذلك دولة عربية بمفردها ،فهل هذا هو التناقض؟ !!! كلا ، فان التناقض كما عرفنا انما يقوم بين النفي والاثبات فيما اذا تناولا موضوعا واحدا في وقت وزمان واحد ، أما اذا تناول الاثبات الانسانية كاملة والنفي انسانا بعينه فليس ذلك تناقضاً نظرا لاختلاف الموضوع ، وليس كما ظن انجلس بأنه تناقض حقيقي .

المثال الثالث : تناقضات الحركة ، قال هنري لوفافر : حين لا يجري شيء فليس ثمة مناقضة ، ومن ناحية مقابلة ، حين لايكون ثمة مناقضة لا يحدث شيء ، ولا يجد أي شيء ، ولا يلاحظ ظهور أي نشاط ، ولا يظهر شيء جديد وسواء كان الأمر يتعلق بحال من الركود أم التوازن الموقت ، أم بلحظة من الازدهار ، فان الكائن ، أو الشيء غير المتناقض في ذاته ،يكون في مرحلة ساكنه

---

١) انجلس . ضد دوهرنخ ص ٢٠٣ ــ ٢٠٤

موءقتـــــا • "١"

وقال ما وتسي تونغ : لقضية عمومية التناقض ، أو الوجود المطلق للتناقض معنى مزدوج • الأول : هو ان التناقض قائم في عملية تطور كافة الأشياء • والثاني : هو أنه في عملية تطور كل شيء تقوم حركة الأضداد من البداية حتى النهاية • يقول انجلس : ان الحركة نفسها تناقض "٢"

وقد ساقوا أمثلة أخرى من الفيزياء والكيمياء ، ولكننا نترك مناقشتهـــا لاصحاب الاختصاص لتبين صحتها من زيفها •

وفي هذا الاستدلال الأخير نرى أن هذه النصوص تربط بين الحركـــة أو التطور وبين التناقض ، وانها لا تتطور لولا قانون التناقض المستمر في المحتوى الداخلي للأشياء ، ولذلك فقد رفضت مبدأ عدم التناقض ، ولما كانت الحركـة والتطور أمر مشاهد في الطبيعة ، ولا يمكن انكاره ، فقد طرحت الماركسية مبدأ عدم التناقض ، وأخذت بقانون الديالكتيك الذي يفسرها •

لعمري ان هذا كلام من الفضول ان نعود الى المجادلة والمناقشة فيـه ، بعد أن أوضحنا مرارا في بداية فصلنا هذا ، أن التطور والتكامل لا ينافي مطلقا مبدأ عدم التناقض • ودعوى التنافي بينهما تقوم على اساس الخلط بين القوة والفعل وانهما متناقضتان ، وقد بينا بطلان ذلك بما يلزم •

وكنا قد اوضحنا أن كل حركة وكل درجة من درجات التطور تنطوي علـى جانبين ، اثبات بالفعل ونفي بالقوة (انهما غير متناقضين لاختلاف الزمان كما مر سابقا) فالرجل يمر باطوار كثيرة : من نطفة الى علقة الى جنين الى طفل الى مراهق الى شاب وهكذا • • • فهو في كل مرحلة من مراحل تطوره ، يتصف بأمرين همـــا الفعل والقوة أو الامكان ، فهو في حالة كونه جنينا فهو جنين بالفعل وطفـــل بالقوة ، والامكان ، أي يمكن أن يكون طفلا ، والطفل هو طفل بالفعل ومراهـق بالقوة والامكان ، وهكذا دواليك الى آخر مراحل التطور •

---

١) هنري لوفافر • المرجع السابق ص٥٨

٢) ماوتسي تونغ • حول التناقض ص١٣

وعلى ذلك فقد اجتمع في الجنين صفة الجنين ، وامكان الطفولة ، لا صفة الجنين وصفة الطفولة معا .

وكذلك فقد عرفنا من قبل أيضا أنه لايمكن فهم عملية التطور والحركة الا على أساس مبدأ عدم التناقض ، والا فلو اجتمعت المتناقضات في محتوى شيء ما ، فلماذا يحدث تغير اذن وتبدل من حال الى حال أخرى .

واذا كان عند الماركسي دليلا على تناقض الحركة يخالف مبدأ عدم التناقض حقيقة فليأتونا بمثال واحد ، توجد فيه حركة ، ولا توجد ، بمعنى آخر يصح فيه النفي والاثبات لذات واحدة في زمن ومكان واحد . كمثال للتطور ، والا فمبدأ التناقض باطل لا اصل له من واقع أو فكر .

وأيضا فحين رفضت الماركسية مبدأ عدم التناقض ، ترتب على رفضها هذا ، ان الشيء يتطور ولا يتطور بآن واحد ، فاذا كان هذا حاصلا في عالم الطبيعة فليدلل على ذلك بشاهد واحد من الطبيعة يثبت ذلك !!!! .

وعندئذ يقال لهم : فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين " ١ " واعترفوا بمبدأ عدم التناقض ، وآمنوا بالسبب الأول الذي خلق الكون وخلق منه قوانينه وأسبابه ، وهي تعمل وفق الخطة والهدف المرسومين لها من خالقها جل صنيعه ، " هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى " ٢ " وكل شيء في الكون خاضع لجلاله وكماله ، ويسبح بحمده وعظمته " وان من شيء الا يسبح بحمده " ٣ " آمنت بك يا خالق كل شيء ، وواهب كل شيء هداه " الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى " ٤ " . " انها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور " ٥ " نسألك يارب أن تكشف عن بصائرنا وتهدنا السبيل .

---

١) سورة البقرة آية ٢٤
٢) سورة الحشر آية ٢٤
٣) سورة الاسراء آية ٤٤
٤) سورة طه آية ٥٠
٥) سورة الحج آية ٤٦

الغرض السياسي من التناقض :

ان التناقض هو القانون العام الأبدى الذى اتخذت منه الماركسية أسلوبا لتغيير كل شيء ، وأرادت من وراء هذا القانون ان تستغله فى الحقل السياسى لصالحها الخاص . اذن كان الهدف السياسى أولا ، وليس عليها الا أن تصبه فى قالب فلسفى مقبول .

وكما عودتنا الماركسية دائما أنها كانت تضع الهدف السياسى أولا ، ثم تفتش له عما يبرره فى واقع المادة والطبيعة ، وهى تؤمن سلفا به وتعممه على سائر اطراف الكون ، مادام يساعدها فى طريق العمل والكفاح السياسى .

وتعالوا نسمع انجلس حيث يقول : وغنى عن البيان بأننى كنت قد عمدت الى سرد المواضيع فى الرياضيات والعلوم سردا عاجلا وملخصا ، بغية أن اطمئن تفصيلا — الى ما لم أكن فى شك فيه بصورة عامة — الى ان نفس القوانين الديالكتيكية للحركة ، التى تسيطر على العفوية الظاهرة للحوادث فى التاريخ تشق طريقها فى الطبيعة ". "١"

ومن هذا النص يبدو أن الماركسية تؤمن بالمبدأ أولا ، وتثق به كل الوثوق باكتشاف جميع قوانين العالم على ضوء هذا المبدأ قبل ان تدرسه وتجربه فى مجالاته العلمية . وقد حاولت أن تطبق ذلك (كسرد عاجل) على حد تعبير انجلس لأن ذلك مفروغ منه سلفا ولو أغضب ذلك علماء الأرض ومفكريها .

حقا لقد طبقت الماركسية قانون التناقض فى معركتها السياسية ، وقد فسرت المجتمع تحقيقا لهذا القانون ، وافترضت أن المجتمع يتطور وفقا للتناقضات الداخلية فيه ، يتخذ كل مرة شكلا جديدا ينسجم مع الحالة الطبقية فى المجتمع ، ويظهر صراع من جديد حسب التناقضات داخل المجتمع . وعلى ذلك فالرأسمالية صراع بين التناقضات ينتهى حتما الى تسلم القيادة فى الدولة والانتاج للعمال .

---

١) انجلس ، ضد دوهرنغ الاقتصاد السياسى ص ١٩٢ .

واذا كان لنا من ملاحظة على ذلك فنقول : اذا كانت تناقضات المجتمع هي الدافع والمحرك نحو الامام (حسب قانون التناقض الجدلي) — وأن الماركسية تحاول ان تقضي على هذه التناقضات في المجتمع ، وذلك كي تسود دولة البروليتاريا (العمال) ، فانه سينتهي التناقض بعد ذلك ، ولا تبقى عندئذ الا طبقة واحدة هي طبقة العمال ، أو المجتمع الموحد الطبقة — كما يدعون — وبالتالي ستقف عجلة التطور ، لفقدان سببه ، وهو التناقض في المجتمع ، وبذلك تنطفيء شعلة الصراع ويجمد المجتمع على شكل ثابت لا محيد عنه ، لأنّ هذا المجتمع هو الذي تحلم به الماركسية وان طال الأمد . وعلى ذلك ينتهي الوقود الوحيد لتطور المجتمع الذي هو التناقض بين عناصره الطبقية ، فاذا انتهى التناقض وأفل نجمه فلا حاجة عندئذ للديالكتيك الجدلي ، وعندها يزول الجدل الى غير رجعة عن مقام السيطرة وتفسير الواقع .

وهكذا يتضح أن التفسير الجدلي لتطور المجتمع على أساس تناقض الطبقات يؤدي الى وضع حد لهذا التطور ، وبالتالي فهي دعوة رجعية لانها تقف بالتقدم البشري وتطوره عند حد معين لا تتجاوزه .

وما بالك لو وضعنا وقود التطور في الفكر البشري ووعيه ، أو في شيء آخر غير التناقض . أليس ذلك اسلم ، وافضل حالا لا تقف عجلة التطور ، وتسلم الى الجمود والخمول . وبالتالي فهي دعوة تقدمية ، لأنّها لا تدع حدا للتطور بل طالما ان فكر البشر يعمل ويعي ويدرك ، فمسار التقدم جار وعملية التطور لا تقف .

قال سبحانه في آيات عديدة يختمها بـ " ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون " [١] و " كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون " [٢] و " ان في ذلك لآيات لاولي الألباب " [٣] ، فنناط العلم والمعرفة البشرية بالعقل الذي يعمل مادام متمتعا بصحته وسلامته .

---

١) سورة النحل آية ١٢
٢) سورة البقرة آية ٢١٩
٣) سورة آل عمران آية ١٩٠

أليس في وضع حد لتطور المجتمع وتقدمه عند انتهاء وقود تطوره يعتبر دعوة رجعية ، متجنية على البشرية ، ومنتقصة من مقدراتها وامكاناتها ؟ !!! .

ودع عنك ذلك والتفت حولك ، ترى ماجنته الماركسية على الفكر البشرى حين اتخذته من الجدل أو الديالكتيك حقيقة مطلقة تفسر كل شيء على ضوئه ، واتخذته الدولة مذهبا رسميا ، تحظر كل فكر يخالفه ، وجعلت منه مرجعا أعلى يجب اخضاع كل شيء له ، لاينسجم معه أو ينطلق من قاعدته .

وقد اشار جان بول سارتر الى ذلك بقوله : فاذا أدخل العالم فضائله العلمية معه الى الحزب ، واذا ادعى لنفسه حق مناقشة المبادىء ، فانه يصير في رأيهم (مفكرا) تتعارض حريته الفكرية الخطرة التى تعبر عن استقلاله المادى النسبى ، مع ايمان العامل المناضل الذى يحتاج بحكم موقفه الى ان يصدق باوامر زعمائه ، والأخذ بها كقضية مسلمة دون تمحيص ". "١"

وقال سارتر بعد ذلك : ولقد قال باسكال : (اركع على ركبتيك ولسوف تؤمن) وهو نفس ما يفعله المادى الى حد كبير ". "٢"

ولهذا فقد تحجرت الأفكار ، وكل الذهن ، وأصبحت الحياة الفكرية في شتى مجالاتها ، أسيرة منطق خاص ، مفروض عليها ، واصبحت المواهب والامكانات الحرة في الدائرة التى يرسمها للبشرية فلاسفة الدولة الرسميين .

---

١) جان بول سارتر . الماركسية والثورة ص٤٨ ترجمه عن الفرنسية عبد المنعم الحفنى ، القاهره ، دار الكتب المصرية .

٢) نفس المصدر ص٤٩

الفصـــــل الثالـــــث

قفـــزات التطـــــور

يرى الجدليون الماديون ان الحركة تتطور وتنتقل من تغيرات كمية الى تغيرات كيفية . وهذا التغير لا يحدث تدريجيا ، بل فجأة . ويقفز من حال الى حال آخر ، بتغيرات ضرورية الوقوع . يضاف الى ذلك كله ، أنها حركة تقدمية صاعدة أبدا ، تنتقل من البسيط الى المركب ، ومن الأدنى الى الأعلى .

يقول ستالين وهو يتحدث عن الميزة الثالثة للطريقة الديالكتيكية في نظرتها الى الحركة في عالم الطبيعة : ان الديالكتيك خلافا للميتافيزيقا ، لا يعتبر حركة التطور حركة نمو بسيطة لا تؤدى التغيرات الكمية فيها الى تغيرات كيفية ، بل يعتبرها تطورا ينتقل من تغيرات كمية ضئيلة وخفيفة الى تغيرات ظاهرة وأساسية ، أى الى تغيرات كيفية . وهذه التغيرات ليست تدريجية ، بل هى سريعة ،وفجائية ، وتحدث بقفزات من حالة الى حالة أخرى . وليست هذه التغيرات جائزة الوقوع ، بل هى ضرورية ،وهى نتيجة تراكم تغيرات كمية غير محسوسة وتدريجية .

ولذلك تعتبر الطريقة الديالكتيكية ان من الواجب فهم حركة التطور لا من حيث هى حركة دائرية ،او تكرار بسيط للطريق نفسه ، بل من حيث هى حركة تقدمية صاعدة ، وانتقال من الحالة الكيفية القديمة ، الى حالة كيفية جديدة ، وتطور ينتقل من البسيط الى المركب ، من الأدنى الى الأعلى " "١"

ويقول انجلس: وهكذا برهنت العلوم ان الطبيعة تعمل فى النتيجة بصورة ديالكتيكية ، لا بصورة ميتافيزيقية ، وانها تتحرك فى دائرة تبقى هى ذاتها دائما وتتكرر الى الأبد ،بل ان لها تاريخا واقعيا ، وبهذه المناسبة ينبغى أن نذكر

---

١) ستالين . المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ١٨

بالدرجة الأولى دارون الذى وجه ضربة قاسية الى الفهم الميتافيزيقى للطبيعة باثباته أن العالم العضوى بأسره ،كما هو موجود اليوم ، أى ان النباتات والحيوانات ، وبالتالى الانسان أيضا هو كله نتاج تطور يجرى منذ ملايين السنين " "١"

ويضرب مثالا لقفزات التطور بقوله : فان حرارة الماء مثلا ليس لها فى بادئ الأمر تأثير فى حالته من حيث هو سائل ، ولكن اذا زيدت أو أنقصت حرارة الماء جاءت لحظة تعدلت فيها حالة التماسك التى هو فيها ،وتحول الماء الى بخار فى احدى الحالات ، والى جليد فى الحالة الأخرى ... فالنقاط الثابتة كما يقال فى الفيزياء (هى نقاط الانتقال من حالة الى أخرى — ملاحظة من يوسف ستالين) ليست على الغالب سوى النقاط العقدية التى تؤدى فيها زيادة الحركة أو انقاصها الى حدوث (تغير كيفى) فى جسم ما . أى أنها النقاط التى تتحول فيها الكمية الى كيفية " . "٢"

هذه هى مجمل نظرتهم فى التغيرات الكمية الى كيفية أو قفزات الحركة فى التطور . والآن نبدأ فى تحليل هذا المفهوم الديالكتيكى .

الهـدف السياسـى أولا :

قبل ان نشرع فى مناقشة هذه الدعوة ، لابد ان نبحث عن الغرض السياسى الذى صيغت الدعوة لاجله . فنجد أن الماركسية تضع الهدف السياسى للتطور نصب أعينها أولا ، ثم تبحث له عما يبرره فى عالم الطبيعة ،وقوانين المادة ،وانها تلوى رقاب القوانين الكونية وتقحمها ، بغية أن تجد البراهين التى تؤيد بها دعواها .

ومن السهل جدا أن نسأل : ما الغرض السياسى وراء هذا الخط الديالكتيكى ؟ ذلك أن الماركسية رأت أن السبيل الوحيد الذى يشق طريقها

---

١) كارل ماركس، وفلريدريك انجلس . ضد دوهرنغ — ديالكتيك الطبيعة ص ٢٥ موسكو الطبعة الالمانية ١٩٣٥ م)

٢) نفس المصدر ص   ونفس الصفحة .

الى السيطرة السياسية للمصالح التى تتبناها ، هو الانقلاب . فراحت تبحث عن سند فلسفى لهذا الانقلاب فلم تجده فى قانونى الحركة والتناقض ، ذلك أن هذين القانونين انما يفرضان على المجتمع البشرى ان يتطور تبعا للتناقضات الموجودة فيه ، أما طريقة الانقلاب ، والدفعية فلايكفى مبدأ الحركة التناقضية لايضاحها . ولهذا فقد اصبح من الضرورى للجدليين ان يبحثوا عن طريق آخر يبررون به فكرة الانقلاب ، وكان القانون الآخر المبتدع هو قانون الانقلاب او التغيير الدفعى .

وطبقا لهذا القانون ، لم يعد الانقلاب شيئا جائزا فقط ، بل اصبح حتميا وضروريا ، فان التغيرات الكمية تتحول بالتدريج عبر تاريخ المجتمع بصورة انقلاب الى تغيرات نوعية أو كيفية ، وبناء على ذلك يتهدم البناء القديم للمجتمع ويتحول الى مجتمع جديد يختلف عن الأول كل الاختلاف .

ولهذا يصبح من الضرورى ان تتفجر التناقضات فى المجتمع عن انقلاب جارف ، تقصى فيه الطبقة الحاكمة السابقة ، والتى أصبحت لا أهمية لها فى عملية التناقض هذه ، وعندئذ يقضى عليها ، كى يتسنى للنقيض الجديد ان يسيطر ، ذلك النقيض الذى رشحته التناقضات الداخلية ليكون الطرف الرئيسى فى عملية التناقض الجديدة .

يقول ماركس وانجلس : لا يتدنى الشيوعيون الى اخفاء آرائهم ومقاصدهم ومشاريعهم ، بل يعلنون صراحة أن اهدافهم لايمكن بلوغها وتحقيقها الا بهدم كل النظام الاجتماعى التقليدى بالعنف والقوة "١" .

ويقول لينين : ان الثورة البروليتارية غير ممكنة بدون تحطيم جهاز الدولة البرجوازى بالعنف "٢" .

---

١) ماركس وانجلس . البيان الشيوعى ص ٨

٢) ستالين . اسس اللينينية ص ٦٦ (انجلس ضد دوهرنغ ص ٢١١ ـ ٢١٢)

مثال للتغيرات الدفعية :

ولقد ارادوا ان يدعموا رأيهم بأمثلة من الواقع ،للتدليل على القانون المزعوم بعمومه وشموله ، ومن تلك الأمثلة الماء . " عندما يوضع الماء على النار ترتفع درجة حرارة الماء بالتدريج ، ويحدث هذا الارتفاع التدريجي تغيرات كمية بطيئة ، ولا يكون لهذه التغيرات في بادئ الأمر تأثير في حالة الماء من حيث هو سائل ، ولكن اذا زيدت حرارته الى درجة (١٠٠) مئة ، فسوف ينقلب في تلك اللحظة من حالة السيلان الى الغازية ، وتتحول الكمية الى كيفية ، وهكذا الأمر اذا هبطت درجة حرارة الماء الى الصفر فان الماء سيتحول ويصبح جليدا .

ويستعرض أنجلس أمثلة أخرى على قفزات الديالكتيك من الحوامض العضوية في الكيماء ، التي تختص كل واحدة منها بدرجة معينة لانصهارها ، أو غليانها وبمجرد بلوغ السائل تلك الدرجة يقفز الى حالة كيفية جديدة ،فحامض — النمليك مثلا — درجة غليانه (١٠٠°) مئة ، ودرجة انصهاره (١٥) خمسة عشر ، وحامض الخليليك نقطة غليانه (١١٨°) مائة وثمانية عشر درجة ونقطة انصهاره (١٧°) سبعةعشر درجة وهكذا "١" " ونحن لا نشك في ان التطور الكيفي في جملة من الظواهر الطبيعية يتم بقفزات ودفعات آنية ،كتطور الماء في المثال المدرسي السابق الذكر ، وتطور الحوامض (الكربونية) في حالتي الغليان والانصهار — وكما في جميع المركبات التي تكون طبيعتها وخواصها متعلقة بالنسبة التي يتألف بحسبها كل منها . ولكن ليس معنى ذلك أن من الضروري دائما وفي جميع المجالات ان يقفز التطور في مراحل معينة ليكون تطورا كيفيا ، ولا تكفي عدة أمثلة للتدليل العلمي ، أو الفلسفي على حتمية هذه القفزات في تاريخ التطور ،وخصوصا حين تنتقيها الماركسية انتقاء ، وتهمل الأمثلة التي كانت تستعملها لايضاح قانون آخر من قوانين الديالكتيك ، لا لشيء الا لانها لا تتفق مع هذا القانون الجديد " . "٢"

---

١) انجلس ضد دوهرنغ ص ٢١٤

٢) راجع بتوسع فلسفتنا لمحمد باقر الصدر ص ٢٦٠

لقد مثلت الماركسية لتناقضات التطور " بالجرثومة الحية في داخل البيضة التي تجنح لأن تكون فرخة " " ١ " وبالبذرة التي تنطوي على نقيضها ، فتتطور بسبب الصراع الداخلي فيها فتكون شجرة . وهنا اليس من حقنا ان نطالب المادية الجدلية باعادة النظر في مثل هذه الأمثلة لتوضح لنا كيفية القفزات التطورية التي تحدث فيها ؟!!! .

وهل صيرورة الجرثومة فرخة ، والبذرة شجرة أو أو ... الخ يتأتى من قفزات التطور الديالكتيكية . أن تحول الجرثومة الى فرخة ، والبذرة الى شجرة يتم [illegible] بتطور تدريجي بحت ، وحتى المواد الكيماوية فاننا نجد فيها لونين من التطور التدريجي والتطور الدفعي . والأمثلة كثيرة من واقع الحياة .

مثال من الحياة :

ولنضرب لذلك مثالا من واقع الحياة ، وهي اللغة التي يتكلم بها البشر منذ أن وجدوا ، بوصفها من الظواهر التي تخضع للتطور والتحول ، ولكنها لا تخضع في تطورها الى القانون الديالكتيكي .

ان الباحث في تاريخ اللغة ، أي لغة كانت ، فانه لا يخبرنا عن تحولات كيفية آنية حصلت في خط سيرها التاريخي الطويل ، وانما الذي يستفاد من دراسة تاريخها ، أن تحولات تدريجية حصلت في اللغة من الناحية الكمية والكيفية أيضا .

اذ لو كانت اللغة خاضعة في تغيرها لقانون القفزات الديالكتيكية ، وتحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية بصورة دفعية وفجائية ، لاستطعنا ان نضع ايدينا على المواطن الحاسمة في تاريخ اللغة ، والتي تحولت فيها من طور الى طور نتيجة للتغيرات الكمية الى كيفية .

فان اللغة العربية مثلا قد طرأ عليها تطور في الناحيتين الكمية والكيفية . فقد اضيفت اليها مصطلحات جديدة لم تكن من قبل ، وازدادت غنى كبيرا في ذلك اذ فيها من المرونة والحيوية ما يؤهلها لأن تستوعب كل ما يجد من مصطلحات والفاظ . وكذلك فقد انقرضت مصطلحات كثيرة خلال تطورها ، وبطل استعمالها

---

(١) جورج بولتزر . هذه هي الديالكتيكية . مبادئ الفلسفة الأولية ص ١

ولكن ذلك كله حصل خلال فترات زمنية طويلة تدرجت شيئا فشيئا حتى اصبحت اللغة العربية على ما نراها اليوم بقسميها الحديث والقديم . ولم يقل احد من مؤرخي اللغات ان اللغة العربية انتقلت من لغة آرامية او انكليزية او فرنسية الى وضعها الحالي ، او ان ذلك حصل للغة ما من لغات البشر .

وبعد ذلك يمكننا ان نقرر على ضوء ما مر بنا من أمثلة ان قانون القفزة أو الدفعية في الحركة ، ليس ضروريا للتطور الكيفي . وان التطور له وجهان ، فكما انه يحدث بصورة دفعية فكذلك يحدث بصورة تدريجية أيضا .

مثـال وتحليـل :

ولنعد ثانية الى المثال الذي ورد في كلام انجلس ، وذلك لالقاء الأضواء عليه ، وتحليله ، لنرى مدى تحقيقه لقانون التطور الدفعي ، الذي سيق من أجله . انه مثال الماء في غليانه وتجمده فنلاحظ ما يلي :

أولا : ان الحركة التطورية التي يحتويها المثال ليست حركة ديالكتيكية ، لان التجربة لا تبرهن على انبثاقها عن تناقضات المحتوى الداخلي للماء ، كما تفرضه تناقضات التطور في الديالكتيك . فنحن نعلم ان الماء لولا الحرارة الخارجية لبقي ماء ، ولما تطور الى غاز ، فلم يتم التطور الانقلابي للماء اذن بصورة ديالكتيكية .

فاذا اردنا ان نعتبر القانون الذي يتحكم في الانقلابات الاجتماعية هو نفس القانون الذي تم بموجبه الانقلاب الدفعي في الماء ، أو في سائر المركبات الكيماوية كما تحاول الماركسية اثباته — لأدى ذلك الى نتيجة مغايرة لما رمت اليه . اذ تصبح القفزات التطورية في النظام الاجتماعي ، انقلابات منبثقة عن عوامل خارجية لا عن مجرد التناقضات المحتواة في نفس النظام . وتزول صفة الحتمية عن تلك القفزات ، وتكون غير ضرورية اذا لم تكتمل العوامل الخارجية .

ومن الواضح اننا كما يمكننا ان نحتفظ على حالة السيلان للماء ، ونبعده عن العوامل التي تجعله يقفز الى الحالة الغازية ، فكذلك يصبح بالامكان الحفاظ على النظام الاجتماعي ، والابتعاد به عن الأسباب الخارجية ، التي تكتب عليه الفناء . وهكذا يتضح ان تطبيق قانون ديالكتي واحد على التطورات الدفعية للماء ، في غليانه

وتجمده ، وعلى المجتمع في انقلاباته ، يسجل نتائج معكوسه لما يترقبه اصحاب المادية الجدلية .

ثانيا : ان الحركة التطورية في الماء ليست حركة صاعدة بل هي حركة دائرية ، يتطور فيها الماء الى بخار ، ويعود البخار لما كان ، اذا واجه سطحا باردا ، دون ان ينتج عن ذلك تكامل كمي أو كيفي . فاذا اعتبرت هذه الحركة ديالكتيكية كان معناها انه ليس من الضروري ، ان تكون الحركة صاعدة وتقدمية دائما ، ولا من المحتوم أن يكون التطور الديالكتي في ميادين الطبيعة أو الاجتماع تطورا تكامليا أو ارتقائيا .

ثالثا : ان نفس القفزة التطورية للماء الى غاز ، والتي حققها بلوغ الحرارة درجة معينة ، لا يجب ان يستوعب الماء كله في وقت واحد ، فان كل انسان يعلم أن البحار والمحيطات تتبخر من مياهها كميات مختلفة تبخرا تدريجيا ، ولا تقفز بمجموعها مرة واحدة الى الحالة الغازية ، وعلى هذا فان التطور الكيفي ـ في المجالات التي يكون فيها دفعا ـ لا يتحتم ان يتناول الكائن ككل ، بل قد يبدأ باجزائه القليلة فيقفز بها الى الحالة الغازية ، وتتعاقب القفزات للأجزاء الأخرى ، وتتكرر الدفعات الى ان يتحول المجموع الى كيفية جديدة .

وقد لا يستطيع التغير الكيفي ان يشمل المجموع ، فيبقى مقصورا على الأجزاء التي توفرت فيها الشروط الخارجية للانقلاب .

واذا كان هذا هو كل ما يعنيه القانون الديالكتيك بالنسبة لتطور الطبيعة فلماذا يوجب القفزات في الميدان الاجتماعي على النظام ككل ؟ . وهل يلزم في الناموس الطبيعي للمجتمعات ، ان يهدم الكيان الاجتماعي في كل مرحلة بانقلاب دفعي شامل ؟ ! ! !

ولماذا لا يمكن ان تتخذ القفزة الديالكتيكية المزعومة في الحقل الاجتماعي نفس اسلوبها في الحقل الطبيعي ، فلا تمس الا الجوانب التي توفرت فيها شروط الانقلاب ، ثم تتدرج حتى يتحقق التحول العام في نهاية الأمر . "١"

---

١) راجع بتوسع فلسفتنا لمحمد باقر الصدر ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣

تغيـــر فحســـب :

ان التغير الذى يطرأ على الأشياء فى الطبيعة ليس تغيرا فى حركة تصاعدية من أدنى الى أعلى ، ومن أسوأ الى احسن — كما يقرره اصحاب الفلسفة الماديـــة الجدلية — بـل هو تغير وحسب •

ذلك أن التطور والتغير الذى يطرأ على الحوادث من حيوان ونبات وجماد لايخلو تغيره من ثلاثة أمور : اما تغير نحو الأحسن ، واما تغير نحو الأســوأ ، واما تغير نحو المماثل •

أما الأول : — فان الانتقال من حال الى حال قد يكون انتقالا الى احســن فمثلا : ان الطفل اذا اصبح شابا ، فقد انتقل الى الأحسن ، وفى حركة تصاعدية كذلك • والغرسة اذا اصبحت شجرة فقد انتقلت الى الاحسن ،وفى حركة تقدميـــة أيضا • وان الانتقال والتغير نحو الأحسن يجعل الحادثة التى جرى عليها الانتقال منها قديمة ،والحالة التى جرى اليها الانتقال جديدة ، وأيضا فالجديد خيـــر من القديم •

أما الثانى :— فهو عكس الأول : اذ هو انتقال وتغير من احسن الى اسوأ ، وفى الطبيعة أمثلة لا تحصى من ذلك • فتعفن الخبز ، وتحول الانسان من حـــال الشباب الى حال الشيخوخة • فكلاهما انتقال ، ولكنه انتقال من حالة حسنـــــة الى حالة سيئة •

اذن فالتغير موجود فى الكائن الحى ، وفى غير الكائن الحى ، ولكنه لايوصف بأنه تغير دائم نحو الأفضل ، بشكل مضطرد ، بل تغير فقط ، اذ أن أحدا لـــم يقل ان بئرا كان مفعما بالنفط ثم جفت ، يكون انتقالا من حالة سيئة الى حالـــة حسنة ، لمجرد كونه انتقالا وتغيرا • وغيره هناك ملايين ، وملايين الأمثلـــة من التغيرات التى تحدث فى الطبيعة ، ليست جميعها مما يطلق عليه انه حركـــة تصاعدية وتقدمية ، بل ان بعضها تغير نحو الأسوأ — كما مر بنا — ولا أظن أحدا يشك بأن الشباب خير من الهرم ، وان احدا يشك — حتى الطفل — بأن الخبز السليم خير من الخبز المتعفن ، وان الحى خير من الميت ، وأن العشب الأخضر

خير من الهشيم ، مع أنها جميعها قد طرأ عليها التغير والتحول ولكنه نحو الأسوأ فقط .

أما الثالث :— فهو تغير نحو المماثل : كتغير الماء الى بخار اذا زيدت حرارته فلا يقال انه تحول نحو الأحسن ، اذ ان البخار لا يفضل الماء فى شيء ، بل انه يتحول الى الصفة التى كان عليها بيسر وسهولة .

ان هذا كله دليل واضح بالمشاهدة ينفى نفيا قاطعا تلك الدعوة القائلة ان كل تغير فى الطبيعة وكل حركة فيها هى بمثابة تطور نحو الأحسن والأفضل ، وهى حركة تقدمية ، تصاعدية دائما وابدا ، وانتقال من الأدنى الى الأعلى ، ومن البسيط الى المركب — كما صرح بذلك ستالين .

وهنا يحضرنا سؤال هام هو : اذا كان هذا من بين الأسس التى قامت عليها النظرية المادية ، وهى متهافتة مناقضة لروح العلم وطبائع الأشياء ، فلماذا هذا الصراخ والعويل حول المفاهيم الجدلية العلمية والحتمية ؟!!!! .

الديالكتيك ونظرية دارون :

أ — نظرية دارون

نظرية دارون هى التى تقول بالتطور الذاتى للأنواع ، وأن تطورها كان حتميا من غير حاجة الى قدرة خارجية عنها أثرت فى وجودها . تلك النظرية التى تستدل بها الديالكتيكية على صحة التطور فى قانونها الجدلى ، ويجب ان نلفت النظر ان نظرية دارون لم تتجاوز حدود الفرض العلمى الذى ينقصه البحث والتحقيق ، وانها لم ترتق الى مصاف النظريات العلمية ، المدلل عليها بالتجربة والبرهان ، وليس لنظرية دارون حظ من ذلك كله ، بل ان علماء اوربا ، وحتى علماء الداروينية الحديثة ، قد اكتشفوا الثغرات ونقاط الضعف التى لا يبرهن عليها ، وانها عبارة عن تسرع فى الاحكام أطلقها دارون على جميع الأنواع ، وحكم عليها بالتطور الذاتى ، لاسيما الكائنات الحية ، وخاصة الانسان الذى تقول النظرية عنه ، انه نتيجة لتطور طويل كان آخرها القرود العليا ، ثم اجتاز التطور حلقة مفقودة حتى وصل الى شكله الحالى شكل انسان .

لكن علماء الأحياء فى أوربا وجدوا أن الأمر ابعد من ذلك ، وليس بهذه البساطة فى شيء ، كما تصورها دارون ، اذ وجدوا ان الانسان متفرد بخصائص لايشاركه فيها غيره من باقى المخلوقات ، مما يدل على ان الانسان متفرد ابتداء منذ أن وجد ، ولم يكن نتيجة تطور مر فيه .

تعالوا نسمع شهادة عالم اوربى هو الكسيس كاريل ، الذى يقرر : بأن معرفتنا بالانسان مازالت فى مرحلة وصفية ، ولم نصل بعد الى الحقائق المعقدة التى ينطوى عليها . فكتب يقول فى مؤلفه (الانسان ذلك المجهول) ما نصه : " لست فيلسوفا ، ولكننى رجل علم فقط . قضيت الشطر الأكبر من حياتى أدرس الكائنات الحية ، والشطر الباقى فى العالم الفسيح أراقب بنى الانسان ، وأحاول أن افهمهم . ومع ذلك فاننى لا ادعى اننى اعالج امورا خارج نطاق حقل الملاحظة العلمية " . ثم قال بعد ذلك : لكن علم الكائنات الحية بصفة عامة ، والانسان بصفة خاصة ، لم يصب مثل هذا التقدم — الذى حازه التقدم المادى — انه لا يزال فى مرحلة وصفية . فالانسان كل لا يتجزأ ، وفيه غاية التعقيد ، ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له ، وليست هناك طريقة لفهمه فى مجموعه ، أو فى اجزائه فى وقت واحد . كما لا توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجى ولكى نحلل أنفسنا ، فاننا مضطرون الى الاستعانة بفنون اخرى مكنة ، والى اسباب علوم عديدة ". " ١ "

وهكذا يقرر هذا العالم الفذ أن دراسة الكائنات الحية عامة ، والانسان بوجه خاص ، يجب ان تكون أكثر جدية ، وعمقا ، وتحليلا من اطلاق الأحكام دون تروأو دراسة .

اذن فنظرية دارون لاتعدو أن تكون مجرد فرض علمى فقط ولم ترتق بعد الى مستوى النظريات والقوانين ، وان درست فى جامعاتنا على انها بديهية ومسلمة .

---

١) الكسيس كاريل : الانسان ذلك المجهول تعريب شفيق اسعد فريد ص ٧ و ١٦ بيروت مؤسسة المعارف لبنان ١٩٧٤ .

" ان نظرية الارتقاء لا تثبت شيئا أكثر من أن الأنواع المختلفة لم توجد في وقت واحد بل وجدت أنواع مختلفة في مراحل مختلفة . وأن هناك ترتيبا زمنيا بين الأنواع الحية ، أي أن الأنواع البسيطة للحياة وجدت قبل وجود الأنواع الحية المعقدة . والآخر الذي لا يزال غير ثابت بكل قطعية ، هو هل الأنواع الحية المعقدة هي حقيقة صورة راقية للأنواع البسيطة التي وجدت في الزمن السحيق ، ثم تطورت تلقائيا الى الصورة الحالية نتيجة للعمل العادي الطويل ، أم أنها ليست كذلك ؟ . ان المشاهدة تؤكد الجزء الأول ، أما الجزء الثاني من نظرية الارتقاء ، فلا يزال افتراضا محضا ، اختلقه العلماء الذين آمنوا بتلك النظرية . وهذا الجزء الافتراضي من نظرية الارتقاء لا يمكن مشاهدته تحت أي ظرف من الظروف ، كما أنه غير قابل للخضوع للتجربة بأي شكل من الأشكال . هذا بينما يتوقف جواز الاستدلال بنظرية الارتقاء على ثبوت هذا الجزء الثاني منها فقط ... والعلماء الذين يدينون بنظرية الارتقاء ، ويدافعون عنها يقرون بهذا الضعف في الداروينية . وعلى سبيل المثال يقول السير (آرثر كيت ١٨٦٦ — ١٩٥٥ م) : الارتقاء غير ثابت ولا يمكن اثباته ونحن نؤمن بهذه النظرية ، لأن البديل الوحيد هو (الايمان ب) الخلق المباشر ، وهو أمر لا يمكن حتى التفكير فيه " [١] .

ولو سلمنا جدلا بهذه النظرية — مع انها فرض علمي متهافت — فهي لا تمس الدين من قريب أو بعيد ، ولا يستلزم اعادة النظر في المفاهيم الدينية ، وأنها لا تدل على اكثر من شيء واحد ، هو أن هذا الاثبات المفترض انما يتعلق بسنة الله في الخلق ليس الا .

النظريــــة والديالكتيــــك :

ان نظرية دارون لا يمكن ان تتخذ سندا لتفسير الأحداث على الطريقــة الديالكتيكية ، ولا تصلح ان تكون سندا علميا لهم لأمرين :

---

١) وحيد الدين خان ، الدين في مواجهة العلم ص ٢١ المختار الاسلامي

الأمر الأول : كون هذه النظرية فرضا فقط ، ولم ترتق بعد الى مستوى النظريات العلمية — كما مر بنا من قبل —

والأمر الثاني : ان النظرية لا تتفق من حيث المبدأ مع الطريقة الديالكتيكية ، ذلك لأن لكل منهما منطلقا مغايرا للآخر تمام المغايرة .

اذ أن النظرية تقول : " بتطور نوع الى آخر على أساس ما يظفر به بعض أفراد النوع القديم من ميزات وخصائص عن طريق صدفة ميكانيكية ، أو اسباب خارجية محدودة ، كالبيئة والمحيط . وكل ميزة يحصل عليها الفرد تظل ثابتة فيه ، وتنتقل بالوراثة الى ابنائه ، وبذلك ينشأ جيل قوى بفضل هذه الميزات المكتسبة وفى خضم الصراع فى سبيل القوت والبقاء بين الأقوياء من هذا الجيل ، وبين الضعفاء من افراد النوع الذين لم يظفروا بمثل تلك الميزات . يعمل قانون تنازع البقاء عمله ، فيفنى الضعيف ويبقى الأفراد الاقوياء ، وتتجمع المزايا عن طريق توريث كل جيل مزاياه التى حصل عليها ، بسبب ظروفه وبيئته التى عاشها للجيل الذى يتلوه ، وهكذا حتى ينشأ نوع جديد يتمتع بمجموع المزايا التى اكتسبها أسلافه على مر الزمن " . " ١ "

وبمجرد نظرة عابرة على كل من نظرية دارون ، والقانون الجدلى الديالكتيكى يبدو واضحا التناقض الظاهر بينهما . ذلك أن الطابع الميكانيكى للنظرية يبدو جليا من خلال تفسير دارون لتطور الأنواع ، من جراء تأثير اسباب ، وعوامل وراثية وخارجية . فان الميزات والفروق الفردية لم يحصل عليها الجيل القوى من النوع نتيجة لتناقض داخلى ، ولكنها حدثت حسب مقتضى النظرية ، من جراء مصادفة ميكانيكية أو من عوامل خارجية ، من البيئة والمحيط .

وكذلك فان الميزة التى حصل عليها الفرد بأسباب خارجية من ظروف حياته لا تتطور بسبب التناقض الداخلى فيه ، حتى تتحول من حيوان الى حيوان جديد آخر ، بل تظل ثابتة ، وتنتقل بالوراثة من نوع الى نوع آخر من غير أن تتطور ، بل تبقى على شكل تطور بسيط مستقر ، يضاف اليها عوامل أخرى بسبب ظروف موضوعية ،

---

(١) راجع بتوسع تاريخ الفلسفة الحديثة . يوسف كرم ص ٣٢٨ — ٣٢٩ . وايضا فلسفتنا لمحمد باقر الصدر ص ٢٧٥ — ٢٧١ .

فيحصل كذلك تغير بسيط ، وحين تتجمع هذه التغيرات البسيطة ، ينتج عنها أخيرا الشكل الأرقى للنوع الجديد •

وخلاصة القول : ان الديالكتيك يفقد سنده العلمي الذي يزعمه ويتذرع به في التطور ، والارتقاء العضوى • قلنا : انه فقد سنده الاستدلالي بهذه النظرية لأمرين :

الأول : عدم ثبوت النظرية ، بل ومخالفتها للنتائج التي توصل اليها العلماء من خلال أبحاثهم للأحياء •

الثاني : انها لا تتفق مع الديالكتيك بحال من الأحوال في تفسير تطورات الأحداث اذ أن في كل منهما تطورا ، ولكن في النظرية الداروينية تطور ناتج عن مكاسب وراثية ، ومؤثرات خارجية من بيئة أو محيط • وبناء على ذلك ينتج نوع أرقى من سلفه • أما في الديالكتيك فالتطور فيه يحدث نتيجة للتناقض الداخلي في الأشياء ، ومن خلال الصراع بين المتناقضات ينتج النقيض الجديد ، وهو النقيض الذي اختير لأن يكون بديلا جديدا ، ويحدث ذلك عن طريق تغيرات دفعية أو انقلابية ، بدل التطور التدريجي البحت الذي تقول به نظرية دارون • وهذا اختلاف جذري بين المنطلقين يجعل كلا منهما في مجال خاص به يختلف عن الآخر كل الاختلاف ، فيفقد الديالكتيك سنده العلمي الذي يزعمه •

البـــــاب الثانـــــى

الانســـــان

الفصـــل الأوّل :

الانسان والمادية الجدلية

الفصـــل الثانـــى :

الانسان فى مفهوم الدين

الباب الثاني

الانسان

الفصل الأول

الانسان والمادية الجدلية :

ترى المادية الجدلية أن الانسان واحد كغيره من حوادث الطبيعة واجزائها ، لايخرج عن القوانين التي تسير الطبيعة بمقتضاها ، من التطور والتغير ، وهو على هذا عبارة عن حلقة من حلقات المادة ، ومرحلة تطور مضت قبلها مراحل كثيرة . فلاشيء في كيانه ثابت أو أزلي ، سواء كان ذلك أخلاقا ، أو عقيدة ، أو دوافع .

ولكن البرجوازية استطاعت ان تغرس في الانسان معاني الخلق والفضيلة ، ونوازع الدين والروح ، وذلك كي يتسنى لها استغلاله وتسخيره في سبيل راحتها ورفاهيتها . وكان ذلك بمثابة جرعات من المخدرات تعطى للانسان من حين لآخر لكي يبقى غارقا في أحلامه ، ومثالياته ، متناسيا واقعه المر الأليم الذي حاق به وبأسرته .

وهكذا فقد كانت الفضائل والمثاليات والعقائد وسيلة من وسائل الاستغلال على مر التاريخ ، استخدمها الأسياد كسلاح ماض لامتصاص خيرات الفقراء واستغلال جهودهم . قالوا : ان العالم مادي ، وهو وجد وخالد ، ولا نهائي ، والانسان ذاته الذي هو النتاج الأعلى للعالم المادي ونوره ، عبارة عن جزء من كل " هائل " ، يقال له الطبيعة " "١"

---

١) جماعة من الأساتذة السوفيت . المادية الديالكتيكية ص ١٣٠

وقد حددوا مطالب الانسان فى عناصر ثلاثة هى الطعام والمسكن والجنس، واعتبروها عناصر أساسية ، تناط بكل دولة تحصى مطالب الانسان ، وتحقق له كرامته وحريته •

ولكن جانبا هاما فى كيان الانسان يبقى موضع تساؤل ،ومجال دراسة مستفيضة ،ذلك الجانب هو الوعى والادراك ، وسبيل حصوله على المعرفة ،اذ هما من القضايا الدقيقة والصعبة فى ميادين الدراسة العلمية •

اذ كيف ، وفى أية درجة من درجات تطور المادة نشأ الوعى ؟
وكيف تنشأ الاحساسات والادراك ، والتصور ،والتفكير عند الانسان؟
وكيف يتم الانتقال من الاحساسات والادراكات الى عملية التفكير ؟

ان هذه التساؤلات أثيرت ،وتثار دائما عبر تاريخ الفكر الطويل ،لذلك فقد وجدت المادية الجدلية نفسها أمام هذا كله ، فاضطرت الى وضع صيغة تتمشى واسلوبها الجدلى المادى فى التفكير ،لتفسير ملائم لوعى الانسان وادراكه طبقا للمنهج المادى الذى تعتنقه ، وتعتمد عليه كوسيلة لتفسير الكون والانسان •

ا — الوعى والادراك فى المادية الجدلية :

تقرر الماركسية أن الفكر هو انعكاس الواقع على الدماغ ،والأساس فى ذلك هو موضوعية المادة الموجودة ، وان الفكر نتاج لها • فالواقع موجود أولا ،ووجود الواقع هو الذى انتج الفكر وأوجده ، وهذا الواقع ينعكس على الدماغ ، وانعكاسه هو مايسمى بالفكر والادراك •

وقد مر بنا تعريف المادة عندهم بأنها " مقولة فلسفية تستخدم للدلالة على الواقع الموضوعى الذى يجده الانسان فى أحساسيسه التى تنسخه ،وتصوره وتحكسه دون ان يكون وجوده متعلقا فى وجودها " • "١"

---

١) جورج بوليتزر عحى بيس ،موريس كافين • أصول الفلسفة الماركسية ج ١ ص ٢٣٦ •

اذن فالمادة موجودة أولا ، وهى ما تعكسه احاسيسنا ،وأن وجـــود الاحساس متأخر عن وجودها .

يقول ستالين : خلافا للمثالية التى تؤكد أن شعورنا وحده هو الموجود واقعيا ،وأن العالم المادى ، والكائن والطبيعة ، لاتوجد الا فى ادراكنـا واحساساتنا ،وتخيلاتنا ،وتصوراتنا . تقوم المادية الفلسفية الماركسية ، على مبدأ آخر وهو أن المادة والطبيعة والكائن — هو حقيقة موضوعية موجودة خـارج الادراك أو الشعور ، وصورة مستقلة عنه ،وأن المادة هى عنصر أول ،لأنهـا منبع الاحساسات والتصورات ،والادراك . بينما الادراك هو عنصر ثان مشتق ، لأنه انعكاس المادة ،انعكاس الكائن ، وأن الفكر هو نتاج المادة لما بلغـت فى تطورها درجة عالية من الكمال ، أو بتعبير ادق : ان الفكر هو نتاج الدماغ والدماغ هو عضو التفكير ، فلايمكن بالتالى فصل الفكر عن المادة دون الوقوع فـى خطأ كبيـر ". "١"

ويقول انجلس أيضا : ان العالم المادى الذى تدركه حواسنا ، والـذى ننتمى اليه نحن أنفسنا ، هو الواقع الوحيد . أما ادراكنا وفكرنا ، فهما مهمـا ظهرا رفيعين ،ساميين ،ليسا سوى نتاج عضوى مادى جسدى هو الدماغ ، وأن المادة ليست من نتاج العقل ، بل ان العقل نفسه ليس سوى نتاج المادة الأعلـى ". "٢"

وقد قال ماركس بصدد الفكر والمادة : ولا يمكن فصل الفكر عن المـادة المفكرة ،فان هذه المادة ،هى جوهر كل التغيرات التى تحدث ". "٣"

ولما عرف لينين المادية الفلسفية الماركسية أفصح عن رأيه بالعبارات التالية : تقول المادية بصورة عامة ان الكائن الواقعى الموضوعى (المادة) هو مستقل عن

---

١) ستالين . المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ٢٩ .

٢) انجلس . لودفيج فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ص ٢٢ — ٢٣

٣) انجلس . الاشتراكية الطوباوية ، والاشتراكية العلمية ، المقدمة .

الادراك ،عن الاحساسات ، عن التجربة ... فالادراك ليس الا انعكاس الكائن ، وهو في احسن الحالات ،انعكاس صحيح تقريبا (أي انعكاس تام بالغ أعلى درجات الدقة " "١"

ويقول بعد ذلك : المادة هي واقع موضوعي تعطينا اياه الاحساسات ، المادة والطبيعة ،والكائن ،والموجود الفيزيائي ،هي العنصر الأول ، بينما العقل ، والادراكات والاحساسات والموجود النفسي هي العنصر الثاني " . "٢"

وعلى ذلك فان المادية الجدلية ترى ان الفكر انما هو انعكاس الواقع الموضوعي على الدماغ ، فالمادة سابقة على الفكر ،وعندما تنعكس المادة على الدماغ يوجد فكر وادراك . فيفكر في المادة المنعكسة عليه . أما قبل انعكاس المادة على الدماغ ،فلا يوجد ثمة فكر أو ادراك .

مناقشة المسألة :

قد نتفق مع الماديين الجدليين — من حيث المبدأ — على أن الواقع الموضوعي سابق على الفكر ، ومستقل عنه . ولكننا نختلف معهم في أمور منها : ان الحس وحده لا يعكس الا الظواهر الخارجية للمادة ، فقط ، دون جوهرها فهو قاصر عن أن يقدم مادة الادراك كاملة ، وأيضا فان الحس يفتقر الى عناصر أخرى في عملية الادراك ، منها معلومات سابقة عن الشيء المدرك . وكذلك فان الادراك أو العقل يتطرق الى امور ليس مصدرها الحس ،أو المادة مطلقا ، بل ثمة قوة فطرية في الادراك تجعله يصدر احكاما انشائية جديدة ،وأخيرا فان المادة لم تنتج العقل والفكر ،بل الله خالقه وصانعه .

وبناء على ذلك فنحن بصدد الاشارة الى امور ثلاثة :

أولا : قلنا ان الواقع الموضوعي في المادية الجدلية ، هو الواقع الذي تعكسه حواسنا ،فينتج عنه ادراك الأشياء . فالادراك اذن هو علاقة واقع بصورة

---

١) لينين . المؤلفات الكاملة المجلد ١٣ ص ٢٦٦ — ٢٦٧

٢) نفس المصدر ص ١١٩ — ١٢٠

منعكسة عنه ، وذلك لتحول الحركة الفيزيائية للشيء الى حركة فز يولوجية ، وبالتالى الى حركة نفسية •

وعليه فان نظرية المعرفة فى المادية الجدلية باعتمادها على الحس وحده ادراك قاصر • اذ المعلوم أن الحس البشرى لا يتناول الا الظواهر الطبيعية دون جوهرها ، وعلى ذلك فان المعرفة أو الادراك يقتصر على هذه الظواهر التى يصل اليها الحس فحسب • ويترتب عليه حدوث هوة كبيرة بين الجوهر والظاهر ، وذلك لأن الظواهر هى الأشياء التى تبدو لنا ، وهى الجانب السطحى المقابل للادراك من الطبيعة ، والجوهر هو الشيء فى ذاته الذى لا تنفذ اليه المعرفة البشرية •

والجدليون الماديون ، يحاولون ازاء هذا ان يقضوا على الثنائية بين الجوهر والواقع الموضوعى ، ويؤكدون أن المادية الجدلية لا تفرق بين ذات الشيء وصفاته ، بل تعتبر الشيء مجموعة صفات وظواهر •

يقول جورج بوليتزر " ومن هنا قال لينين (لايوجد ولا يمكن أن يوجد أى فارق مبدئى بين الظاهر ، والشيء فى ذاته • وليس ثمة فرق بين ما هو معروف وبين ما يعرف) • فكلما ازداد عمق معرفتنا للواقع أصبح الشيء فى ذاته تدريجيا شيئا لذاتنا "•م"١"

وان هذا اقرب الى النزعة المثالية التى نادى بها (باركلى) حين احتج على اعتقاد الفلاسفة بوجود مادة وجوهر وراء الصفات التى تبدو لنا فى تجاربنا •

وهذه المثالية حتمية فى المذهب المادى الجدلى ، فطالما أن الحس هو القاعدة الأساسية للمعرفة لأنه يعكس الواقع الموضوعى ، والحس لا يدرك سوى الظواهر فقط • لذلك فلابد من اسقاط الجوهر من الحساب ، واذا اسقطنا الجوهر من الحساب ، فلا يبقى الا الظواهر والصفات القابلة للادراك ، والواقع الموضوعى غير ذلك ، اذ بالاضافة الى ظواهره وصفاته الخارجية ، فهو شيء فى ذاته ، وجواهر لا ينفذ اليها الحس البشرى• "٢"

---

١) جورج بوليتزر • المادية المثالية فى الفلسفة ص ١٠٩

٢) راجع بتوسع فلسفتنا لمحمد باقر الصدر ص ١٦٢ •

ثانيا : لابد من الحس وفكر مسبق • ان الحس وحده لا يحصل منه فكر أو ادراك ، بل الذى يحصل هو الحس بالواقع فقط ، وحتى يتم الادراك لابد له من وجود معلومات سابقة ، عند الانسان المدرك ، بواسطتها يفسر الواقع الذى أحس به ، حتى يعمل فكره فيه •

ونمثل بذلك بطفل ، لم تتم عنده المعلومات عن الأشياء بعد ، فنقدم له قطعة من نحاس وقطعة من ذهب • فهو وان احسهما بنظره اليهما ولمسه لهما فانه لايدرك الفرق الحقيقى بينهما ، وذلك لأنه فقد شرطا آخر للادراك هو وجود المعلومات السابقة عن الذهب والنحاس ، وخصائص كل منهما ، ولكنه اذا اعطى معلومات عنهما حين يكبر ، فانه يدرك بواسطة احساسه بهما ، ومعلوماته السابقة عنهما قيمة كل منهما •

ولو فرضنا ان هذا الطفل كبر ، وبلغ من العمر اشده ، ولم يعط أى فكرة عن خواص الذهب والنحاس ، فانه لايدركهما على حقيقتهما ، مهما كبر دماغه ، وتركز حسه •

اذن فان الذى يدرك ليس هو الدماغ بذاته بواسطة الحواس التى تعكس صور الأشياء الخارجية ، بل لابد من شرط ثالث هو وجود معلومات سابقة يفسر على ضوئها الواقع الموضوعى المحسوس • وبناء على ذلك فالفكر والادراك هو عبارة عن نقل الواقع الى الدماغ ، وذلك بواسطة الحواس مع وجود معلومات سابقة عن الشئ المدرك ، وحالة جسمه الصحية ونظامه العصبى ، والدماغ مركز الادراك ، ومنطلق الحكم •

ثالثا : وبالاضافة الى هذه المدركات الحسية التى سبق الكلام عنها ، وكيف أن الحواس تأتى بالمدركات الحسية مجموعة فيتناولها العقل بالتفصيل والمقارنة نجد أن العقل يحكم بثبوت شئ وتقريره بلا اشارة له من واقع موضوعى ، وهو المعقول فى نفسه ، لا المدرك من المواد • ذلك أن للعقل فطرة خاصة يتمكن بقوتها من اصدار احكام انشائية جديدة لا يكون منشؤها الحس ، ولا يمكن ادراكها من المواد ، وهى المعارف العقلية الضرورية ، والأوليات البديهية • [١]

---

(١) راجع بتوسع قصة الايمان لنديم الجسر ص ٨٧ •

ومن هذه الأوليات والمعارف " الحادث لابد له من محدث " ، والواحد نصف الاثنين ،والكل اكبر من الجزء " الخ ٠٠٠٠

وسواء كان الادراك الأول أو الثاني فهو تفاعل — بين الدماغ من جهة وبين المدركات الحسية والعقلية من جهة أخرى — حصل بخلق الله له وليس من خلق المادة أو الواقع الموضوعي ، اذ ليس من خصائصهما الخلق والايجاد ٠ "١"

٢ — الحركة في الفكر والادراك :

بعد أن قررت المادية الجدلية أن الفكر منفصل عن الواقع ،وان المادة توجد منفصلة عن الادراك ،وسابقة عليه ٠ تريد ان تقول بعد ذلك ، طالما ان الفكر يعكس الواقع الموضوعي للمادة ، ومطابق لها ، اذن يجب ان يعكس قوانينها وحركة تطورها أيضا ٠

ان الطبيعة في نظر اصحاب المادية الجدلية تتطور باستمرار ،وذلك طبقا لقانون الحركة في الديالكتيك ،هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، انهم لا يستطيعون ان يتصوروا الحقيقة في الذهن البشري اذا كانت جامدة ساكنة ،وانما يمكن ملاحظة الحقيقة في الأفكار على اعتبار انها تتطور وتنمو بحركة ديالكتيكية جدلية ،وذلك كي تكون مفاهيمنا للأشياء مطابقة لها تماما ٠

يقول لينين : ان الواقع ينمو ، والمعرفة التي تنشأ من هذا الواقع تعكسه ، وتنمو مثله ،وتصبح عنصرا فعالا من عناصر نموه ٠ ان الفكر لا يحدث موضوعه ،وانما الفكر يعكس الواقع الموضوعي ،ويصوره باكتشاف قوانين نموه " "٢"

واذا كان الوعي انعكاسا للكينونة ، وللواقع الطبيعي ، فمعناه زوال الثنائية ،وان الفكر والمادة لا ينفصلان " فلا يوجد الوعي خارج المادة مستقلا عنها ، والعالم المادي الذي ندركه بحواسنا ، والذي ننتمي اليه هو

---

١) وسيأتي الكلام عنه مفصلا في الباب الثالث انشاء الله ٠

٢) لينين ٠ ما هي المادية ص ٦ ٥ عن كتاب فلسفتنا لمحمد باقر الصدر ص ٢٢

الواقع الوحيد " "١"

فالوعي اذن هو انعكاس لحركة المادة على الدماغ • ولما كانت المادة تحتوي على رصيد داخلي كفيل بتطورها وتغيرها ، وهو التناقض الداخلي فيها فلاحاجة اذن الى عقل كلي ، أو أي اضافة غريبة ، أو اله ، أو أي شيء خارج عنها • يقول ستالين : تسير مادية ماركس الفلسفية من المبدأ القائل ان العالم بطبيعته مادي ، وان حوادث العالم المتعددة هي مظاهر مختلفة للمادة المتحركة ، وان العلاقات المتبادلة بين الحوادث وتكييف بعضها بعضا بصورة متبادلة كما تقررها الطريقة الديالكتيكية هي قوانين ضرورية لتطور المادة المتحركة تبعا لقوانين حركة المادة وهو ليس بحاجة لأي عقل كلي " "٢".

ولنقرأ النص التالي الذي يقول : وكان للمادية التي سبقت الماركسية الفضل في الاعتراف بالتفكير والمعرفة كانعكاس للعالم الخارجي الموجود موضوعيا ، ولكن المادية القديمة لم تفهم الجوهر الديالكتي للمعرفة ، ولم تعالج المعرفة كعملية تطور ، ولم تر الصيافة المعقدة في الفكر لمعطيات الواقع • وكانت تفكر بمفاهيم جامدة ، ولم تضع في مركز علم المعرفة نظرية معرفة الممارسة الاجتماعية •

ان الفلسفة الماركسية ، والمنطق المادي الديالكتي كشفا لأول مرة في تاريخ العلوم الفلسفية على أساس مادي كل عملية ، واشكال المعرفة ، وقد مست التطبيق باعتباره الأساس والمقياس الوحيد ، الموثوق بصدق المعرفة • ان نظرية المعرفة الديالكتيكية هي احدى المكتسبات الرائعة للفكر الانساني " "٣"

وان هذا الاستدلال قد ارتكز على الجانب المادي البحت في تفسير الوعي والادراك الذي يفرض اشتراكه مع الطبيعة بجميع جوانبها ، ونواميسها ، ومنها قانونا الحركة ، والتناقض •

المناقشة :

قلنا ان الفكر أو الادراك قد يصور الواقع الموضوعي لو نأمن ألوان التصوير ،

---

١) راجع انجلس • لودفيج فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ص ١٦
٢) ستالين • المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ٢٨
٣) جماعة من الأساتذة السوفييت • اسس الاشتراكية العلمية ، المادية الديالكتيكية ص ٦٣

ولكن هذا لايعني أن تنعكس فيه حركة الواقع الموضوعي الديالكتيكية ، فينمو ويتحرك تبعا لها كما يتصوره الجدليون الماديون وذلك لأمرين :

الأمر الأول : قوانين الطبيعة ثابتة :

ان عالم الطبيعة ، عالم متجدد متطور ومتغير ،وهو بالوقت ذاته يحتوي على قوانين عامة ثابتة ، تحكم عالم الطبيعة ، وتتطور ضمن اطارها وهذه القوانين لايمكن انكارها في أي منطق كان ، ومن أنكرها فكأنه انكر نفسه . ذلك لأن كل منطق لايكون منطقا حقا الا اذا قام اسلوبه في التفكير ، وفهم العالم على قوانين ثابتة . حتى ان الفكر الديالكتي نفسه قد قام على قوانين ثابتة تتحكم في الطبيعة بصورة مستمرة ، ومن هذه القوانين الجدلية قانون الحركة .

فالمنطق مطلقا سواء كان منطقا شرعيا عاما ، أو كان منطقا جدليا ماديا ، فانه لايخلو من قوانين ثابتة يفسر بواسطتها الواقع الموضوعي . وطالما ان الكون لا يخلو من حقائق ثابتة بصورة دائمة ،وأن الفكر انعكاس للواقع وتصوير للكون — على حد تعبيرهم — ، فلابد اذن من وجود حقائق ثابتة في دنيا الفكر ،وحقل المعرفة ، وأصل الكينونة البشرية . ولايجد الفكر مناصا من التسليم بها ، كالعقيدة ، والحرية ،والعدل ،والاخلاق ..الخ

والجدليون امام هذا الاعتراض بين أمرين : اما ان يعتبروا قانون الحركة ثابتا دائما ،وبناء على ذلك فقد وجدت الحقيقة الدائمة ، واما ان يكون نفس هذا القانون متغيرا ،فمعناه ان الحركة ليست دائمة ،وانها قد تؤول الى ثبات واستقرار ، وترجع الحقائق ثابتة بعد أن كانت متغيرة .

وسواء كان الأمر الأول ،أو الثاني ، فان الجدليين مرغمون على الاعتراف بوجود حقائق ثابتة في الطبيعة ، وبالتالي بوجود حقائق ثابتة في الفكر والادراك أيضا .

الأمر الثاني : الفكر والادراك لايعكسان الخصائص الواقعية للطبيعة :

ان الفكر أو الادراك لايعكسان لخصائص الواقعية للطبيعة ،ولكن الذهن

البشري يدرك من الأشياء الموضوعية مفاهيمها ،وماهياتها فحسب . وأن المفهوم الذي ينعكس فيه عن تلك الأشياء يختلف عن الواقع الخارجي تمام الاختلاف في الوجود والخصائص معا .

ويمكننا ان نوضح ذلك بالأمثلة فنقول : ان العالم بامكانه ان يكون فكرة دقيقة عن الميكروب وتركيبه ، ونشاطه الخاص،وتفاعلاته مع جسم الكائن الحي ، ولكن فكرة العالم عن الميكروب مهما كانت دقيقة ومفصلة ، فانه لاتوجد فيها خواص الميكروب الخارجية ،ولا يمكن لتلك الفكرة ان تؤدي نفس الدور الذي يؤديه واقع الميكروب الموضوعي .

ومن هنا يتضح أن قوانين الواقع الموضوعي وخواصه لاتوجد في الفكرة بذاتها ،اذ أن من بين خواص تلك القوانين الحركة ، فان في الطبيعة حركة مستمرة ، وهي من قوانينها الثابتة ،التي لا تتغير . ولكن الحقيقة في ذهننا عن الطبيعة لاتوجد فيها تلك الخاصية وهي الحركة .وعلى ذلك فلاضرورة اذن للفكرة الصحيحة ان تعكس الواقع الموضوعي بقوانينه ، وخصائصه ،ولو كان الأمر كذلك لما كنا نملك فكرة حقيقية في جميع افكارنا ، وقد بينا ان هناك حقائق ثابتة في الفكر البشري دائمة ومستمرة .

يقول صاحب كتاب فلسفتنا مانصه : " فنحن اذ نؤمن بتطور الطبيعة ونرى من الضروري دراستها ، في كل دور من أدوار نموها وحركتها ،وتكوين مفهوم عنها ، وليس هذا من مختصات الديالكتيك ، وانما الذي يرفضه التفكير الميتافيزيقي هو وجود حركة ديناميكية في كل مفهوم ذهني . فالميتافيزيقا تطالب التمييز بين البويض والمفهوم العلمي عنه ، فالبويض يتطور ، وينمو طبيعيا ، فيغدو نطفة ثم جنينا ، واما مفهومنا الذهني عنه فهو مفهوم ثابت ، لايمكن ان ينمو ويصير نطفة بحال من الأحوال .

وانما يجب لأجل معرفة ماهي النطفة ، ان نكون مفهوما آخر على ضوء مراقبة البويض في مرحلة جديدة . فمثل التفكير في ذلك كمثل الشريط السينمائي الذي يلتقط عددا من الصور المتلاحقة ،فليست الصورة الأولى في الشريط

هى التى تتطور ، وتتحرك ، وانما التتابع بين الصور هو الذى يشكل الشريط السينمائى .

ولنأخذ مثالا آخر من عنصر اليورانيوم الذى يشع بأشعة (الفاوجاما) ويتحول بالتدريج الى عنصر آخر ،أخف منه فى وزنه الذرى وهو (الراديوم) الذى يتحول بدوره وبالتدريج الى واقع موضوعى يشرحه العلم ،ونكون على ضوئه مفهومنا الخاص عنه ،فماذا تعنى الماركسية بتطور المفهوم الذهنى ، أو الحقيقة ديالكتيكيا طبقا لتطور الواقع ؟.

فان كانت تعنى بذلك أن نفس مفهومنا العلمى عن (اليورانيوم) يتطور تطورا ديالكتيكيا ، وطبيعيا ، وتبعا لتطور اليورانيوم نفسه ، فيشع أشعته الخاصة ويتحول فى نهاية المطاف الى رصاص ،فهذا اقرب الى حديث الظرف والفكاهة منه الى الحديث الفلسفى المعقول .

وان ارادت الماركسية أن الانسان يجب ان لا ينظر الى اليورانيوم كعنصر جامد لا يتحرك ،بل يتابع سيره ،وحركته ، ونكون مفهومنا عنه فى كل مرحلة من مراحله ، فليس فى ذلك موضع للنقاش ،ولا تعنى حركته ديالكتيكية فى الحقائق والمفاهيم ، فان كل مفهوم نكونه عن مرحلة معينة من مراحل تطور اليورانيوم ثابت لا يتطور ديالكيليا الى مفهوم آخر ، وانما يضاف اليه مفهوم جديد ، وفى نهاية المطاف نملك عدة من المفاهيم ، والحقائق الثابتة ، يصور كل منها درجة خاصة من الواقع الموضوعى . فاين الجدل والديالكتيك فى الفكر ؟ وأين ذلك الذى يتطور طبيعيا تبعا لتطور الواقع الموضوعى ؟ !!! "١"

تســــــاؤل :

وهنا سنقف برهة مع الجدليين لنتساءل : هل التفسير المادى للفكر أو الادراك يختص بافكارهم الجدلية خاصة ام يعم افكار غيرهم أيضا ممن لا يؤمن بالديالكتيك ؟ .

فان كان التفسير المادى للفكر يعم افكار البشرية كافة ، وينطبق عليها جميعا كما تحتمه الفلسفة المادية الجدلية ، اذا كان الأمر كذلك

١) راجع بتوسع فلسفتنا لمحمد باقر الصدر ص ٢٢٤ ــ ٢٢٥ .

فيجب على جميع الأفكار ان تخضع لقانون التطور العام الديالكتي في المادة • ويبدو من هنا التناقض المضحك حين تتهم الماركسية الافكار الأخرى بالجمود والرجعية ،وتعتبر فكرها وحده هو الفكر المتطور المواكب للتقدم المادى الطبيعي ، وذلك باعتبار ان فكرها وحده ليس الا نتاجا طبيعيا للمادة ، مع أن افكار البشرية قاطبة ليس الا نتاجا للمادة أيضا •

ان كارل ماركس وانجلس قد عاصرا في القرن التاسع عشر ـ مع وسائل انتاج موحده ـ فلاسفة مثاليين والهيين ، وروحانيين ، ووجوديين وغيرهم من شتى الاتجاهات الفكرية المختلفة التى شغلت مسرح القرن التاسع عشر ولم تتح جميعها لمنهج ماركس وانجلس وأضرابهما في تفكيرهما المادى مع تعاصرهم الزمنى ، ومن ورائهم وسائل انتاج واحدة ، بل ان المفكرين الماديين كانوا وقتئذ شرذمة قليلة اذا قيسوا بغيرهم من الفلاسفة الآخرين. وعلى هذا فكيف تؤثر المادة بفكر دون فكر ،مع أن المؤثر واحد ،والمتأثر واحد أيضا ، ذلك أن تفكيرهم جميعا هو انعكاس للمادة وتصوير لها في تطورها وحركتها ـ طبقا للمفهوم المادى الجدلى •

ومن ناحية أخرى فان الواقع الموضوعى للمادة ووسائل الانتاج التي عاصرها ماركس وانجلس ، وبداية المدرسة المادية الجدلية تختلف في كثير أو قليل عما يعاصره المفكرون المحدثون في ايامنا هذه ، نظرا لتبدل أدوات الانتاج ، واستحداث أدوات جديدة كل الجده ، وعليه فيكون الفكر الذى كان نتاجا لوسائل انتاج معينة ،أو واقع موضوعى خاص قد انقضى عهده بانقضائها ليحل محله فكر وفلسفة جديدة تناسب الواقع الموضوعى الجديد ، ووسائل انتاجه المستحدثة.•

واذا تحولت بنا الى العصر الحاضر تجد أن وسائل الانتاج التى تسود روسيا واوربا وامريكا متقاربة ، بل واحدة • وكان ينبغى بالمقابل ان تسود هنا وهناك أفكار واحدة ، أو قل متقاربة ،نظرا لانها انعكاس لوسائل انتاج واحدة • لكننا نلاحظ الأمر على عكس ذلك تماما ،ذلك أن الفكر والوعى في اوربا وامريكا على عكس ما هو عليه في روسيا تماما • اذ نجد في روسيا نظاما

شيوعيا ، وفي اوربا وأمريكا نظاما رأسماليا .

واذا اردنا ان نتوسع بالحكم قليلا فنقول : ان البشرية في هذا القرن بوسائل انتاجها المتقاربة بين دول صناعية تكنولوجية في جانب ، ودول متخلفة زراعية رعوية في جانب آخر ، مع ذلك كله نرى فلسفات وافكاراً تعم البشرية من شرقها الى غربها ومن شمالها الى جنوبها لاحصر لها ولا عد . وان شئت فقل ان كل انسان تقريبا له مفهومه الخاص وايد يولوجيته الخاصة التي تختلف عن الاخرين من قريب او بعيد ، مع ان التعاصر الزمني والاقتصادي بينهم واحد .

وما الفكر المادي عبر التاريخ الا نشاز في التفكير على غرار الافكار الناشزة الأخرى التي طوى الدهر بعضها في عالم النسيان ، واستمر بعضها الآخر حتى الآن ، وذلك بعد ان قيض له دولة تحميه وتقوم باسمه ، فادى ذلك الى ما يسمى بفلسفة مادية جدلية منظمة ، ترعاها الدولة وتمنع الافكار الاخرى التي تخالفها ، ولا تتفق في الأصول معها ، وذلك حين أصبح المذهب المادي هو مذهب الدولة الرسمي . ولولا ذلك لكان الفكر المادي عبر التاريخ لا يتعدى احاديث الأساطير والخرافات .

ويتحدث ريمون شارل في كتابه الهلال الشهيد عن بعض السبل التي اتبعتها روسيا للقضاء على الأفكار المناهضة للمادية الجدلية مذهبها الرسمي فيقول : ان الاتحاد السوفيتي حتى نهاية الستالينية لم يتوان عن اللجوء الى القوة كلما اقتضى الأمر ابادة العناصر المناهضة للماركسية . وعلى هذا الشكل رأينا ان ٠/٠٢٥ من ابناء البلطيق (مليون ونصف من الأفراد) بين ١٩٤٥ — ١٩٥٢ م ينفون الى المناطق البعيدة . وفي اثناء الحرب العظمى الثانية استبدل ٨٠٠ ألف من المان الفولغا ، وحلت جمهوريتهم المتمتعة بالاستقلال الذاتي ، فلم يعد يذكر عنها شيء ، كما استبدل تاتار القرم (التي ضمت الى اوكرانيين) بسكان من الأوكرانيين وغيرهم ". "[1]

---

(١) ريمون شارل . الهلال الشهيد . ص ١٧٠ منشورات المعهد الدولي للبحوث والدراسات الشرقية باريس ١٩٦٣م

٣ ـ التطور والتكامل في كل شيء ومنه الفكر :

لقد استغلت الماركسية قانون التطور والتكامل في سائر ميادين الحياة واعتبرته دليلا تجريبيا على ديالكتيك الفكر وتطوره ، وتزعم الماركسية ان تاريخ العلوم هو نفسه تاريخ الحركة الديالكتيكية في التفكير البشري المتطور والمتكامل على مر التاريخ .

يقول كيدروف : والحقيقة المطلقة الناتجة عن حقائق نسبيه ، هي حركة تطور تاريخية ، هي حركة المعرفة ، ولهذا السبب بالضبط يتناول المنطق الديالكتي الماركسي الشيء الذي يدرسه من وجهة نظر تاريخية ، من حيث هو عملية نمو تطورية . انه يطابق التاريخ العام للمعرفة . يطابق تاريخ العلوم . ولينين اذ يبين في الوقت نفسه باستخدامه مثل العلوم الطبيعية ، والاقتصاد السياسي والتاريخ ، ان الديالكتيك يستمد استنتاجه من تاريخ الفكر ، ويؤكد ان على تاريخ الفكر في المنطق ان يطابق جزئيا وكليا قوانين الفكر " ١ " .

حقا ان تاريخ العلوم ، والمعارف الانسانية ذاخرة بتقدم وتكامل في شتى الميادين ، فهذا ليس مجالا للاختلاف والنظر ، بل ان نظرة واحدة الى العلم في يومه وأمسه ، تجعلنا نؤمن ايمانا جازما لا شك فيه ولا ريب بمدى التطور السريع الذي طرأ على جوانب المعرفة البشرية ، لا سيما في مراحله الأخيرة .

ولكن هذا ليس من قبيل الحركة في مفهومها الفلسفي الذي تحاول الماركسية ان تقصره على ذلك " بل لا يعدو ان يكون تقلصا في كمية الأخطاء ، وزيادة في كمية الحقائق . فالعلم يتطور ، لا بمعنى ان الحقيقة العلمية تتحول وتتكامل بل بمعنى ان حقائقه تزيد وتتكاثر ، واخطاؤه تقل وتتناقص تبعا لتوسع النطاق التجريبي ، والتعمق في التجربة ، وتدقيق وسائلها " . " ٢ "

ولذلك فاننا سنعمد الى اعطاء فكرة عامة عن سير التطور العلمي ، واسلوب التدرج والتكامل في النظريات والحقائق العلمية ، وذلك لندرك ابعاد الفرق

---

١) كيدروف . المنطق الشكلي والمنطق الديالكتي ص ١٢ ـ ١٣ .

٢) محمد باقر الصدر . فلسفتنا ص ٢٨٨ .

الشاسع بين ديالكتيك الفكر المزعوم في المادية الجدلية من ناحية ، والتطـــور التاريخي الواقعي للعلوم والمعارف البشرية من ناحية أخرى •

تطور الحقائق العلميـة :

المعروف ان الحقائق العلمية أول ما تبدأ بأسلوب نظري ، بمثابة افتراض بحـت • وهذا الافتراض يرد على ذهن العالم أو الباحث ، وذلك بسبب عـدة من المعلومات السابقة ، من خلال المشاهدات البسيطة والاستقراءات المحدودة •

فالفرض اذن هو مرحلة أولى في كل حقيقة علمية خلال سيرها التطـــوري ، بعد ئذ يشرع العالم أو الباحث ، في البحث والدراسة التجريبية لتلك الفرضيـــة وهنا يقوم العالم بألوان الفحوص ، والتجارب المتنوعة ، وذلك في الحقل الذي يخص الفرضية • فاذا كانت نتائج المشاهدات والتجارب مؤيدة للفرضية ، ومنسجمة مــع طابعها العام اكتسبت الفرضية عند ئذ طابعا جديدا هو طابع النظرية العلمية ، وهنا تدخل النظرية مرحلة ثانية من مراحل سيرها •

ولكن هذا التطور الذي ينقل الفرض الى درجة النظرية العلمية ليس معناه ان الحقيقة العلمية ، اخذت بالنمو والتطور ، وانما معناه ان فكرة معينة كـــان مشكوكا في صحتها ثم بلغت درجة الوثوق واليقين العلمي على اثر البحث والتجربة •

ان نظرية (باستور) مثلا عن الكائنات الحية الميكروبية التي وضعها علـى أساس حدسي افتراضي ، ثم ايدتها المشاهدات الدقيقة بالوسائل العلمية الحديثة بعد ذلك • وكذلك نظرية الجاذبية العامة ، التي اثار افتراضها في ذهن (نيوتن) مشهد بسيط • مشهد سقوط تفاحة على الأرض ، جعله يتساءل لماذا لا تكون القوة التي جعلت التفاحة تسقط على الأرض هي بعينها التي تحفظ القمر وتوازنه وترسم حركته ؟ • ثم ايدت التجارب والمشاهدات العلمية بعد ذلك ، تعميم الجاذبيـة للاجرام السماوية ، واعتبارها قانونا عاما قائما على نسبة معينة فيما بينها •

ان هذه النظريات والنظريات الأخرى غيرها ، كلها تمر بنفس المراحل التي مرت بها النظريتان اللتان مثلنا بهما ، وذلك باجتيازها عدة مراحل ، مرحلـــة

الفرضية الى مرحلة التجريب الى مرحلة القانون العلمى ،وان تطورها هذا لايدل على نمو فى نفس الحقيقة ، بل عن الاختلاف فى درجة التصديق العلمى بها •

فالفكرة هى الفكرة ، غير انها نجحت فى الامتحان العلمى ، واكتشفت بعد ذلك على أنها حقيقة علمية ،بعد ان كان مشكوكا فيها على أنها فرض فقط• ثم ان هذه النظرية بعد ان ترتفع الى مصاف النظريات العلمية ، تأخذ مجالها فى التطبيق ، وكلما استطاعت التجربة ان تبرهن على صدقها ازدادت رسوخا ، ووضوحا فى الذهنية العلمية •

ثم ان حالف التوفيق النظرية فى مجالها التطبيقى على طول خط سيرها تثبت نهائيا على انها حقيقة علمية ، واما اذا اخذت تتراجع على مسرح التطبيق عند التعمق فى الملاحظة والبحث تكون النظرية عندئذ فى مرحلة التعديل والتجديد • وعندئذ قد يضطر العالم الى اعادة النظر فيها عن طريق المشاهدات والتجارب العلمية ،حتى يكتمل جانب النقص فيها باضافة مفاهيم جديدة اليها ، وبذلك تلبس النظرية وقتئذ ثوبا جديدا علميا •

ومهما يكن من أمر فلا يمكننا ان نفهم التطور العلمى على أنه ديالكتيكى أو أن نتصور الحقيقة حسب مقتضى المفهوم الجدلى ،بانها تنمو وتتحرك بموجب التناقضات المحتواة فى داخلها ، فتتخذ فى كل دور شكلا جديدا ،وهى فى تلك الاشكال جميعها لاتزيد ان تكون حقيقة علمية متكاملة • ان هذا بعيد كل البعد عن الواقع العلمى للتفكير البشرى •ان الشئ الوحيد والمعقول ، هو أن دقة التجارب أو تضافرها ادى الى ظهور خطأ النظرية السابقة ،وعدم تمثل الحقيقة فيها ، وهكذا يتضح فى النهاية مابرهنا عليه سابقا من أن التطور العلمى لايعنى ان الحقيقة ذاتها هى التى تنمو وتتطور ، وانما معناه تكامل العلم باعتباره كلا ، اى باعتباره مجموعة نظريات وقوانين ،ومعنى تكامله كذلك ، زيادة حقائقه وقلة اخطائه كميا •

<u>ما الهدف من ذلك :</u>

واخيرا اذا تساءلنا ماذا تقصد الماركسية من دعواها تطور الحقيقة العلمية؟

نجد أنها ترمي من وراء هذا القول الى أمرين : الأمر الأول : نفي الحقيقة المطلقة ، لأن الحقيقة اذا كانت في حركة ، ونمو دائمين ، فضلا عن حركتها الديالكتيكية ، فلا وجود لحقائق ثابتة باشكال مطلقة ، وبالتالي تتهدم الحقائق الثابتة للميتافيزيقا التي يدين بها الالهيون والديانات. الأمر الثاني : نفي الخطأ المطلق في سير التطور العلمي ، فالتطور العلمي في الديالكتيك لا يعني ان النظرية السابقة خطأ بصورة مطلقة ، بل هي حقيقة نسبية ، أي أنها حقيقة في مرحلة من التطور والنمو ، وبناء على ضوء التفسير الصحيح والمعقول للتطور العلمي بالمعنى الذي شرحناه ، ينهار كل من هذين الأمرين ، فهو بموجب هذا التفسير ليس نمو الحقيقة معينة ، بل انكشافاً لحقيقة ، لم تكن معلومة من قبل ، وتصحيحات لأخطاء سابقة ، وكل خطأ يصحح هو خطأ مطلق ، وكل حقيقة تكتشف هي حقيقة مطلقة . "١"

وأخيرا أين الحركة والتناقض الديالكتي في الحقائق العلمية والمعارف البشرية ؟ . واين وجه الشبه في قياس تطور حقائق الطبيعة بحقائق العلم والمعرفة ؟ . ثم نفي الحقائق الثابتة في الفكر ، وانها في حالة تطور ونمو لا ينقطعان ، فلا حقائق أزلية في الفكر البشري على الاطلاق ؟ ! ! !

وقد تبين لنا جليا من خلال البحث والمناقشة انها مجرد احكام وفرضيات تحتاج الى سند من الواقع يؤيدها ، وانى لها ذلك ، وهي أبعد ما تكون عن منطق الواقع وطبائع الأشياء .

٤ — التطور الاجتماعي والاقتصادي :

لقد طبقت المادية الجدلية مفهومها عن حركة الفكر والادراك على حياة المجتمع ، ودراسة تاريخه ، ذلك طالما أن الكائن والواقع الموضوعي هو العنصر الأول في الطبيعة ، وان الفكر والادراك هو العنصر الثاني ، لأنه نتاج عنه ومنبثق عن مادته ، وايضا طالما أن للعالم واقعا موضوعيا مستقلا تمام الاستقلال عن الفكر والادراك ، فنخلص من ذلك الى أمرين :

---

١) ملخص بتصرف عن فلسفتنا لمحمد باقر الصدر ص ٢٢٨ — ٢٢٩ — ٢٣٠ — ٢٣٢ .

الأمر الأول : ان كيان المجتمع ومادیته هما العنصر الأول .

والأمر الثاني : ان حياة المجتمع العقلية والفكرية ، وما ينتج عنها من فلسفات وافكار وعقائد وآداب ومشاعر ...الخ هي عنصر ثان ، وهي مشتقة عن العنصر الأول ومنعكسة عنه .

وعلى هذا فان الأساس في الكيان الاجتماعي ليس هو الأفكار والمشاعر والعقائد والآراء ، بل الأساس في ذلك كله هو العنصر المادي الاقتصادي .

يقول ستالين : " يجب البحث عن منشأ حياة المجتمع العقلية ، وعن أصل الافكار الاجتماعية والنظريات الاجتماعية ، والآراء السياسية والأوضاع السياسية لا في الافكار والنظريات ، ولا في الآراء والأوضاع السياسية نفسها ، بل في شروط الحياة المادية للمجتمع ، في الموجود الاجتماعي الذي تكون هذه الأفكار والنظريات والآراء وما اليها انعكاسا له " . "١" فالموجود الاجتماعي وشروط الحياة المادية للمجتمع — كما يقولون — هي التي تحدد افكار المجتمع ونظرياته وآراءه السياسية وأوضاعه الفكرية .

وقد كتب ماركس في هذا الموضوع ما يلي : " ليس الادراك هو الذي يحدد معيشتهم ، بل على العكس من ذلك ، ان معيشتهم الاجتماعية هي التي تحدد ادراكهم " "٢"

ولذلك فقد تطورت الحياة الاجتماعية وتدرجت من طور الى طور ، وذلك وفقا لتغير وتطور أدوات الانتاج ، حيث مر المجتمع البشري في خمسة اطوار هي على التوالي : المشاعية البدائية ونظام الرق ، والاقطاعية ، والرأسمالية فالشيوعية " "٣" .
أما عن المشاعية البدائية (الشيوعية الأولى) فيقولون : " كانت قوى الانتاج في ذلك العصر ضعيفة في نموها ، ولم تكن الآلات الحجرية ، والرمح ، والقوس التي

---

١) ستالين ، جوزيف ، المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ٣٧ .
٢) كارل ماركس ، مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي — المقدمة — عن ستالين المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ٣٧ .
٣) راجع ل . سيتفال . لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ . المكتبة الاشتراكية ، دار دمشق ص ١٢

ظهرت فيما بعد ، وأصبحت السلاح القاطع قوية بالقدر الذى يسمح للانسان بالنضال وحده ضد قوى الطبيعة ، والحيوانات المفترسة ، فحاول الناس اذن مجابهة هذا الوضع بتوحيد قواهم ، وكان على الناس كى يجنوا الثمار فى الغابات ويصطادوا السمك ويبنوا المسكن ان يعملوا سوية اذا لم يريدوا الموت جوعا ، او ان يصبحوا فريسة للحيوانات المفترسة أو القبائل المجاورة . وكانت نتيجة هذه الحالة أن اصبحت ملكية وسائل الانتاج وأراضى الصيد ، وكذلك ملكية المنتوجات مشتركة أيضا بين جميع أفراد المجتمع ، ولم يبق سوى بعض آلات الانتاج التى هى فى نفس الوقت أسلحة للدفاع ضد الحيوانات المفترسة ملكية فردية للذين صنعوها "١"

والمرحلة الثانية : بعد الشيوعية الأولى هى مرحلة العبودية أو الـرق وحصل ذلك بعد التقسيم الكبير للعمل فى الظروف التاريخية بزيادة انتاج العمل الى الثروة ، وتوسيعه لميدان الانتاج ، ادى ذلك الى الرق حتما ، فنشا من التقسيم الأول الكبير الى طبقتين ، الأسياد والعبيد والمستغلين والمستغلين . "٢"

وكان ذلك أيضا بسبب انتقال الجماعة الاولى من امتلاك الأدوات الحجرية البسيطة الى امتلاك الأدوات الحديدية كادوات الصيد وغيرها ، وكان ذلك بمثابة نتيجة حتمية لامحيص عنها ايضا .

المرحلة الثالثة : هى مرحلة الاقطاع ، وحدث ذلك عندما استقر الانسان فى الأرض ، واكتشف المحراث ، فقد بقى سيد الأرقاء هو مالك الأرض يستخدم الأرقاء فى زراعة الأرض وخدمتها ، وكان هذا الاستقرار نتيجة حتمية أدى الى نشوء الاقطاع كطور من أطوار التاريخ البشرى .

ومرحلة رابعة : هى مرحلة الرأسمالية ، وذلك عندما اكتشف الانسان الآلة ثم الصناعة الكبرى ، حيث تركزت الأموال فى ايدى افراد قلائل ، دون سواد الشعب

---

١) جورج بوليتزر ، جى بيسى ، موريس كافين اصول الفلسفة الماركسية ج ٢ ص ٥٨ .
٢) نفس المصدر ص ٥٩ .

الأعظم ، الذى كان يرزح تحت نير الظلم ، والاستغلال ،فكان لابد من ظهور الرأسمالية كنتيجة حتمية.

وبعد انقسام الناس فى النظام الرأسمالى الى طبقتين ،طبقة هى عداد افراد قلة تتركز فى يدهم وسائل الانتاج والرأسمال الكبير ، وطبقة عمال (بروليتاريا) لايملكون الا سواعدهم المفتولة ،وقواهم العضلية . ان هذا الوضع لايدوم طويلا ،بل سرعان ما يتحد العمال فى العالم لدراسة مصالحهم المشتركة ، ثم التخطيط للثورة على الظلم ،وتلك نهاية المطاف ، حيث يقوم العمال بثورة على الرأسمالية ،فيستولون على المعامل ، ويتسلمون زمام الانتاج بأنفسهم ، ثم ينتخبوا ممثلين عنهم يحكمون الشعب باسمه يسمون (الدولة والحكومة) ،وتصبح وسائل الانتاج للدولة ،أو للحكومة ، لانها الممثل الشرعى للشعب الذى يملك وسائل الانتاج ومصادر الثروة . وبذلك يزول اصل الظلم والمفاسد الذى سببته الملكية الخاصة . وبعد ذلك كله يعيش الناس متحابين كاخوة وشركاء ، وعندئذ فلا ملكية فردية لامرأة أو ولد أو وسائل انتاج ، بل كل ذلك مشاع بين افراد المجتمع الموحد الطبقة ، وعندها يكون " من كل حسب طاقته لكل حسب حاجته " . وذلك هو الفردوس المفقود الذى تسعى الماركسية لتحقيقه فى النهاية. وهى الآن تسعى لتطبيق القدر المستطاع منه ،ولكن هدفها الأخير هو انجازه كقانون تاريخى حتمى .

وقد جاء فى البيان الشيوعى قوله : " ان الصناعة الكبرى ،تهدم كل صلة عائلية عند البروليتاريا ،وتحول الأولاد الى مواد تجارية ، وأدوات عمل صرف "[١].

وبعد هذا العرض التاريخى للتطور الاجتماعى والاقتصادى من وجهة النظر المادية ،فاننا سنبدأ فنلقى نظرات ناقدة لهذا النشاط الانسانى وتاريخه الطويل على ظهر هذه المعمورة .

---

١) ماركس ، انجلس . البيان الشيوعى ص ٦٢

اثر الفطرة فى تكييف سلوك الفرد والجماعة :

لم تكن الحياة المادية هى المؤثرة والدافع الوحيد فى تكييف سلوك الفرد والجماعة فى وقت من الأوقات ، اذ لو سلمنا ذلك لأنكرنا أهم الخصائص الحيوية التى جعلت من الانسان مخلوقا متفردا ، وشيئا راقيا بين باقى المخلوقات الأخرى التى قد تشاركه ببعض الصفات العامة .

والحقيقة أن الكائن البشرى لديه دوافع فطرية ، رافقته منذ وجوده على هذه الأرض ، وسترافقه الى آخر حياته ، فهى لا تنفك عنه ، وان تغيرت صورتها وأشكالها ، فأساسها هو ذاته فى كل جيل من اجيال المجتمع البشرى فى جميع أطواره .

" ويمكننا ان نحدد بعض هذه الدوافع ، فنذكر منها دافع حب الحياة وهذا بدوره يتفرع الى فرعين ، حب الذات ، وحفظ النوع ، واذا اردنا ان نفصل هذين الدافعين نجد أنهما يتفرعان الى عدة دوافع أخرى متشابكة فى نهايتها ، وان تعددت فى مظهرها . ونعد منها : دافع حب الجنس ، ودافع حب الطعام ، ودافع الشراب ، والمسكن ، ودافع الصراع ، ونزعة السيطرة ، وحب الظهور . فاذا نظرنا الى كل واحدة منها على حدة ، نجد أنها أصيلة وثابتة فى كيان الانسان "[١] ، ان الانسان حين انتقل من أكل لحوم الحيوانات نيئة ، الى طهوها على النار ، ثم استخدم السكين فى تقطيعها الى تصنيف لحومها اشكالا متعددة الى التأنق الشديد ، واستعمال أدوات خاصة فى تحضيره ، وطريقة تناوله ، الى أن يتحول الطعام الى آداب وفنون خاصة ... وعندما تحول فى لباسه من قتل الحيوان ثم ارتداء جلده ، الى خياطته على قدر أعضائه ، الى صنع خيوط لتجهيز ملابسه ، الى ارتداء انواع الألبسة المزركشة المزينة الى ان يصبح اللباس ذوقا خاصا ، تراعى فيه آداب خاصة الى ان يتحول الى فن قائم بذاته ... وعندما انتقل الانسان من سكنى الكهوف فى الجبال ، الى ستر بابها بالحجارة حتى لا تقتحمه الوحوش المفترسة ، الى بناء بيت من الحجارة والطين مسقوف بجزوع الأشجار ، الى ان اصبح السكن فنا من

---

١) محمد قطب . التطور والثبات ص٨٦

الفنون ، وعلما يراعى فيه كل معانى الذوق الهندسى المعمارى ،سواء فى مظهره الخارجى ،أو فى داخل البناء وأثاثه .

وعندما تحول الانسان من اشباع غريزته الجنسية كباقى الحيوانات الأخرى من غير ضابط ، أو حرج الى اتخاذ مراسيم ، ونظم ، وقواعد تتبع فى حفلات الزواج من خطبة ،الى اعلان نكاح يمارس فيه فنون مختلفة كالرقص والغناء والشعر الخ .... .

وحين انتقل الانسان من التعبير عن دافع القتال بمباشرته له بقوته البدنية ،والعضلية ، الى استخدام الحجر والعصا ، الى استخدام الأداة المسنونة من حجر ،أو رمح ، أو سهم ، الى استخدام البارود ،فالصواريخ ، فالطاقة الذرية ، فالجراثيم ... الخ ..

وعندما انتقل الانسان من تملك ادوات الصيد، الى تملك ادوات القتال ، الى تملك الرقيق ، الى تملك الأرض ،الى تملك المصانع الكبيرة ، الى تملك رأس المال واستخدامه كقوة اقتصادية ،واجتماعية ، وسياسية ، الى تملك الأمم والشعوب ، وقد يتملك فى المستقبل القريب الكواكب . "١"

تعالوا نسأل المادية الجدلية عن سبب ذلك ، تراهم يجيبون بأن ادوات الانتاج هى السبب الوحيد فى هذا التحول ، ولولا ذلك لما كان هناك انتقال من طور الى طور ،ولما حصل تجدد فى مجرى حياته . أرايت أن الانسان لو لم يكتشف النار لما امكن طهو الطعام ، ولو لم يكتشف السكين ،والآلة الحادة ، لما قطع اللحم الى اوصال ،ولو لم يكتشف الملعقة لما أكل بها ،ولولا اكتشاف جذوع الأشجار ، وصلاحها لحمل سقف عليها لما امكن له أن يبنى بيته ،ولولا اكتشاف الأسمنت والحديد لما امكن ان يبنى المنازل الفخمة العالية ،ولولا اكتشافه لادوات الصيد لم يتملكها ، ولولا وجود الرقيق لم يكتشف العبودية ولو لم يكتشف الزراعة ماصار اقطاع ، ولو لم يكتشف الآلة ،لم يحصل رأسمال أو استعمار وهكذا الخ ...

---

١) راجع بتوسع فصل المتطور والثابت فى حياة الانسان . محمد قطب ،نفس المصدر .

وبناء على ذلك كله ، فان ادوات الانتاج هي المحرك الأول ، والمؤثر الفعال في تطور الحياة البشرية وتكييف سلوكها في شتى ادوارها .

قضية بصورتها هذه براقة ، وخادعة ، تغري كثيرين من الناس بمظهرها البراق ، وشرحها للحقيقة العلمية على هذا النحو من التفسير الذي سموه التفسير المادي للتاريخ . ولكن للحقيقة وجهاً آخر أبعد عن الاغراء ، والبريق الخاطف ، والذي تقدمه الدراسات العلمية الحديثة . ويمكننا ان نوضح هذه النظرية لتفسير كيفية حدوث هذا التطور بكل يسر وبساطة .

اننا قبل كل شيء علينا أن نضع الأسئلة التالية نصب أعيننا :

أولا : لماذا اكتشف الانسان النار ؟

ثانيا : لماذا استخدمها حين اكتشفها في تحسين الطعام وطهوه ؟

ثالثا : لماذا لم يقف عند الدرجة التي وصله اليها اكتشاف النار ، وهي مجرد طهو الطعام ، فراح يتفنن في الطعام المطهو درجة بعد درجة . ؟

رابعا : حين لان له الحديد ، والنحاس ، والبرونز ، والذهب ، والفضة ، أي دافع حتمي دفعه ان يتخذ الملاعق ، والشوك ، والسكاكين ، وهي ليست داخلة في عملية الطعام ذاته كضرورة بيولوجية ، ثم أي دافع حتمي دفعه ان يتخذ من أدوات الطعام هذه أداة للزينة يتفنن في صنعها وتجميلها ونقشها ، ثم ما علاقة هذا كله بالقيم التي اتخذها حول الطعام ، سواء في رسم قواعد له وتقاليد ، او في طريقة توزيعه بين الناس ، او في التمييز بين الطيب منه والخبيث على غير المستوى الحسي الذي تقرره المعدة ، بل مستوى الحلال والحرام ؟ !!! .

وكذلك : لماذا اخترع المغزل للنسيج ؟

لماذا استخدمه حين اخترعه — في نسيج قماش ثم في (تحسينه) ؟ .

لماذا لم يقف عند حد استخدام النسيج فراح يتفنن في الملبس فيما وراء مستوى الضرورة ؟ .

وأي علاقة بين هذا التحسين الذي انتجته الأدوات ، وبين القيم التي اتخذها الانسان حول الملابس ، سواء في رسم قواعد لها ، وتقاليد ، أو في طريقة توزيعها

بين الناس ،او فى ربطها بالقيم الخلقية ،والدينية •

وحين اخترع الاداة المسنونة ،لماذا اخترعها بادئ ذى بدء ؟ ولماذا استخدمها فى القتال ؟• ولماذا لم يقف عند الحد الذى وصلته اليه ،فراح يبحث عن وسائل جديدة ،للقتال ، حتى وصل الى اختراع القنبلة الذرية ،والهيدروجينية وقنبلة الكوبالت ، وقنبلة الجراثيم ؟•

وأى علاقة بين هذه الأدوات كلها ،وبين القيم ،التى ربطها الانسان بالحرب ،سواء فى تحليلها وتحريمها ،او فى وضع قواعد لها وتقاليد ؟

وحين ، وحين ، وحين ، • • • •
ألا توجد وراء ذلك دلالة واضحة ؟!!! •
هل الآلة هى التى وجهت الانسان ،ام الانسان هو الذى وجه الآلة؟"[١]"
انظر الى الحيوان الذى يشترك مع الانسان فى كثير من ميزاته ،وخصائصه ،فى احساسه ،وفى حركته ، فى سكناته ،وفى غير ذلك • اذ أننا لا نجد للحيوان أى حضارة او ثقافة ، او علم ، او اختراع ،بل الحيوان هو هو نفسه على حالته منذ ان وجد على الأرض، وهذا يدل على ان الاكتشاف والاختراع ،والحضارة مزية انسانية فحسب ، هى فى صميم الفطرة البشرية ،وشئ ضرورى فى كينونتها •

تعال نسمع الى شهادة احد العلماء الأوربيين فى ذلك ،انه جوليان هكسلى الذى يقول فى كتابه (الانسان فى العالم الحديث) مانصه :
" وأولى خصائص الانسان الفذة ،وأعظمها وضوحا ،قدرته على التفكير التصورى• ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية فى الانسان نتائج كثيرة ،وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة ، ومن أهم نتائج تزايد التقاليد ،واذا شئت من أهم مظاهره الحقيقية ، مايقوم به الانسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات •وان التقاليد والعدد لهى الخواص التى هيأت للانسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية• وهذه السيادة البيولوجية ــ فى الوقت الحاضر ــ خاصية أخرى من خواص الانسان الفذة "• "[٢]".

---

١) راجع محمد قطب نفس المصدر ص ٩٩ ــ ١٠٠
٢) جوليان هكسلى • الانسان فى العالم الحديث • ترجمة حسن خطاب ، ومراجعة عبد الحليم المنتصر فصل (تفرد الانسان) مقتطفات من ص ٢ ــ ٥ عن محمد قطب المرجع السابق ص ١٠١ •

" تلك شهادة عالم غربي دارويني لايؤمن بالله ،ولا ينسب الخلق الى الله ،ومع ذلك فهو يثبت للانسان مزية على باقي الحيوانات ،هي قدرته على التفكير التصوري ، وقدرته على استخدام الأعداد في الحساب ، ونزوعه ، وقدرته على تحسين ما لديه من آليات ،واقامة العادات والتقاليد ،وتسميتها • وجوليان هذا يسمى ذلك خواص بيولوجية ، أي في صميم الفطرة والكينونة البشرية " • "١"

ان هذه الميزة لم تنتجها الآلة ، أو وسائل الانتاج ،بل هي انتجت وسائل الانتاج ، واستخدمتها في الأسلوب الذي تراه •

ان الانسان اول ما نزل الى الأرض ، أخذ يستخدم تفكيره التصوري في الاكتشاف والاختراع ،وذلك لانها خاصية من خواصه ،وميزة من ميزاته •

ان الله سبحانه الذي خلق الانسان ، ورأى ان يكون خليفته في أرضه هو الذي منحه خاصية التفكير التصوري ، لانها من الوسائل الهامة في الاستخلاف الذي انيط به ،وأنه سبحانه هو الذي قيض للانسان اكتشاف النار لينتفع بهما ، ويستخدمها في مصالحه • لا المصادفة ،ولا الضرورة ، وذلك بأن اودع الله في اصل فطرته ،وكينونته قابلية الالتفات الى اكتشاف النار ،والاستفادة منها •

" اذن فقد اودعت الفطرة الانسانية القدرة على التطور ، ومن ثم القدرة على الاكتشاف والاختراع ، ومن ثم القدرة على استخدام الآلات ، والقدرة على تحسين الآلات ،كما اودعت في الوقت ذاته ما يسميه هكسلي (بالتقاليد) ونسميه نحن (بالقيم) ،والقدرة على ربط الأعمال بما فيها استخدام الآلات بقيم نفسية واقتصادية ، وخلقية ،ودينية • "٢"

اما اكتشاف ادوات الانتاج كحادثة مادية فلا تفسر شيئا مما يريده الماديون الجدليون الا ان الانسان ارادها فسعى الى ايجادها واستخدامها •

فاكتشاف النار مثلا لم يكن بمقدور الانسان ■ لو لم يكن في فطرته

---

١) راجع محمد قطب نفس المصدر ونفس الصفحة
٢) محمد قطب نفس المصدر ص ١٠٢

القدرة المناسبة على التفكير التصوري ، وكان يحق له حين اكتشفها الا يستخدمها في طهو الطعام ، او كان يقف عند اكتشافها فحسب ، ولا يتجاوزه ولما كان له ان يتفنن في اصناف الطعام بعد اكتشافها واستخدامها •

اننا نقول : أن ذلك كله ما كان ممكناً لدى الانسان ، ولو جاز أحصوله ، لولا الرغبة الفطرية ، الكامنة في طبيعته السابقة في وجودها عن النار ، وهي القدرة على التفكير التصوري ، التي وهبها الله للانسان ، ثم رغبته الفطرية في تحسين ما لديه من اكتشاف على مر التاريخ • قال سبحانه " الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى " • "١"

وهذا مفرق الطريق بيننا وبين الجدليين ، الذين يعتبرون وسائل الانتاج ، وظروفها المختلفة ، هي السبب الوحيد في تطور الحياة الاجتماعية للفرد والجماعة ، وتحسين سلوكه واسلوب عيشه • وبعد هذا كله فاي معنى علمي لقول ماركس : " ليس تفكير الناس هو الذي يحدد معيشتهم ، بل معيشتهم هي التي تحدد تفكيرهم " • "٢"

واذا كانت الفطرة هي المؤثرة ، والفعالة في سلوك الانسان وتطوير جوانب حياته ، لا يمنع ذلك أن يجعل لغيرها شيئاً من التأثير ، ولكنه تأثير ثانوي ، واضافي بالنسبة الى الفطرة • ذلك أنه من نفى اى تأثير للمادة أو وسائل الانتاج في حياة الفرد ، والمجتمع فقد جا في الصواب ، وحاد عن الفهم الصحيح الذي هو مسلك العقلاء والمنطق السليم ، وايضا فقد يحدث من جراء تأثير الحياة المادية الجزئية في حياة الفرد البشري ان ينصبغ بطابعها ، فيبدو للناظر انه قد تغير شيء فيه ، وما تفسير ذلك الا مرونة فطرته ، وقابليته مسايرة كل تطور او تغير يحدث في مجال التطور الاقتصادي والمادي ، واليك تفصيل ذلك •

---

١) سورة طه آية ٥٠

٢) كارل ماركس • مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي — المقدمة — عن ستالين المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ٣٧

مرونة الفطرة البشرية :

ان الفطرة البشرية مرنة جدا . ونظرا لمرونتها الشديدة ، فانها تتحمل ضغوطا عليها من خارجها ،ولكنها أحيانا لاتتحمل كل شيء ،واحيانا تتحمل بعض الشيء ، وأحيانا اخرى بعض الوقت ،وعندئذ يحدوها القلق والاضطراب والضياع ،وما تلبث أن تثور فترمى عن كاهلها مالا تستريح اليه ،وقد تظفر بثورتها أو لا تظفر ، ولكنها تضطرم حماسا واتقادا .

لقد لفظت الفطرة الدكتاتورية ، وثارت عليها ،ولفظت الحرية اللامحدودة وثارت عليها عندما شعرت بقلقها وضياعها ــ كما هو الحال فى اوربا وأمريكا ــ وثارت على ملكية الدولة ، لأنها سلبتها احدى دوافعها الطبيعية ، وهى الملكيـة ــ كالقلق والاضطراب فى المعسكر الشرقى .

تلك حقائق واضحة لاينكرها عاقل ، وقد غابت عن الماديين ،ولم ينظروا الى الفطرة الا بالمنظار المادى الضيق الذى افقد الفطرة خصائصها من الأصالة والاستمرار ، وقابلية الاستيعاب ، ومسايرة كل جديد ،حتى جعلوها شيئا متقلبا متطورا ،ليست أصلا بنفسها ،بل هى تابعة وفرع للمادة التى هى سر كل شيء فى الوجود .

ان الجدليين قد رصدوا التاريخ من جانب خطه الخانع ،الساكن ،السلبى ، ولم يرصدوه من جانبه الآخر المنتفض المتحرك الايجابى ،وعلى دارس تاريخ الأمم والشعوب ،ان ينظر الى الأمر من وجهيه معا ،الايجابى منه والسلبى ،وان يرسم التاريخ من خلال خطيه ،خط الانتفاض وخط الخنوع والاستسلام . وكلا الخطيـن تقبلهما الفطرة البشرية ،وموجود فى كيانها ،وذلك دليل آخر على مرونتها وسلاستها .

ومعلوم أن حال الانسان قبل اكتشاف النار ليس كحاله بعد اكتشافها ،بل نقطع بحصول تغير واضح فى سلوكه ومفاهيمه ، فقد تجددت عنده مفاهيم جديدة وسلوك جديد ،وامكانيات جديدة ،ولكنها امكانيات لتحقيق رغبات الفطرة الكامنـة التى تنتظر الفرصة السانحة لتظهر من جديد .

ولقد ظن بعض الناس خطأ ، ان اتساع الفطرة لمثل هذه التغيرات دليل على عدم محدوديتها ، وبالتالى على عدم وجودها أصلا • لكن شيئا من ذلك لم يحصل ، بل ان اتساعها لايلغى حقيقتها ودلالتها ، ان الفطرة قد تتسع لأشياء كثيرة — وقد تتحمل اشياء كثيرة ، ولكنها لا تتسع لكل شئ ، بل انها فى خطوطها الأخيرة ترفض الأشياء ، ولاتتقبلها ، وذلك لعدم وجود الاستعداد لتقبلها •

من هذا العرض نخلص الى مجموعة من الحقائق نجملها فيما يلى :

" ان الفطرة هى الأصل فى تصرفات الانسان •

" ان الأدوات والآلات المستحدثة هى فى ذاتها تعبير عن الفطرة (من حيث القدرة على التفكير التصورى ، والرغبة فى التحسين)•

" وانها — وهى تعبير فى الأصل عن الفطرة — تسير على هدى الفطرة فى تطبيقاتها العملية (من حيث تحقيقها لرغبات الانسان)•

" وانها — فى تطبيقاتها العملية — لاتنشئ جديدا فى كيان الانسان وانما تحقق ماكان كامنا من قبل فى ذلك الكيان •

" وانها تغير الحياة تغييرا شاملا ، ولكن التغيير ذاته يحدث استجابة لمطالب الفطرة ، ويقع فى حدودها لايتعداه " "١"

أمثلة محللة :

لنأخذ الطائرة مثلا لذلك ، نجد أن اختراعها لم يكن هو الذى انشأ الرغبة فى السفر ، والتنقل بين الاماكن البعيدة • بل ان الرغبة الكامنة فى الفطرة البشرية هى التى اوحت باختراع الطائرة ، وذلك حين توافرت الامكانيات العلمية لتحقيق ذلك •

فالطائرة اذن تحقيق لحلم بشرى قديم كانت تحلم به البشرية منذ زمن بعيد ، مرت بتجارب ومراحل كثيرة حتى وصلت الى الشكل الذى نراه • "٢"

---

(١) محمد قطب • المرجع السابق ص١٠٦ ، ويراجع الفصل بكامله بنفس المرجع أيضا

(٢) وقصة عباس بن فرناس المشهورة ، حين حاول الطيران بنفسه ، من على قمة جبل شاهق ولم يفلح فى ذلك

والحجارة التي بنى بها الانسان الأول بيته ، لم تنشئ الرغبة في بناء بيت له ابواب ، ونوافذ بعد ان كان يسكن في الكهوف الجبلية ، بل ان الرغبة الكامنة في الفطرة هي التي دفعت الانسان الأول لتجميع الحجارة ، وتعميرها على شكل معين ، ليكون المنزل الجديد الذي يريده ، ويحلم في تحقيقه •

ان الرغبة العامة تسبق كل اختراع ، ايا كان هذا الاختراع ، ولذلك قيل (الحاجة ام الاختراع) • فالمخترع لا يقول سأعمل اختراعا ما ، دون تحديد ، ثم ابحث عن طريقة ما للاستفادة من ذلك الاختراع ، وانما الذي يحصل حقا ، أنه يقول : أريد أن اصنع آلة كذا ، لأستفيد منها في مجال محدود ، ثم يعمل في تجميع المواد الأولية لصناعتها واستخدامها •

اذن ففي العملية عدة مراحل ، هي هدف أولا ، ثم رغبة ، ثم وسائل لتحقيق الهدف والرغبة ، ثم نتيجة ، هي بدورها الهدف النهائي من رغبته فيستخدمها حيث شاء •

أرايت الى المحراث البلدي والمحراث الحديث ، لقد كانا رغبة كامنة في فطرة الانسان الأول قبل وجودهما ، ولقد كان وجودهما تحقيقا لتلك الرغبة والا فلماذا اجهد الانسان نفسه في اختراعه اذا لم يحقق رغبة ملحة في نفسه ، هي رغبته في ايجاد وسيلة مريحه لحراثة أرضه واستغلالها بشكل افضل •

وكذلك صناعة البارود ، والرصاص ، والذرة ، فذلك كله نتيجة لتحقيق رغبة كامنة في نفس الانسان — وان كانت شريرة — وهي رغبته في السيطرة على الآخرين ، واستغلال مواردهم ، وقهر أرادتهم •

وقس على ذلك جميع الاختراعات والصناعات التي حققها الانسان منذ وجوده ، وهي لاتدل على اكثر من انها تحقق الفطرة الانسانية ، ولاتغيرها ، وذلك بتنمية امكاناتها العملية ، على الدوام ، وهذا يجعلها تحافظ على شكلها وحيويتها •

ولئن كانت المادية الجدلية تؤمن بان الناس سجناء التاريخ ، وادوات لتحقيق غرض كوني يسير نحوه الجنس البشري ، بقوة حتمية لا يمكن مقاومتها ، فان واقع الأمر هو ان الناس هم الذين يصنعون التاريخ ، وهم ادوات فعالة

فى يد نظام كونى دقيق ،ويستطيعون ان يوجهوا سير الاحداث ، داخل حدود واسعة ، بفضل ما وهبوا من مرونة فى فطرتهم ،وقدرتهم على تحسين ما لديهم من عدد وتقاليد ايضا .

وأيضا ،فان تأثير الحياة المادية فى حياة الانسان ،وسلوكه ،لم يكن كشفا جديدا من مخترعات الديالكتيك ، بل قد سبق الى ذلك الاسلام بقرون طويلة ، ولنسمع وصية عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى عماله ،وولاته ،فى وصية له بالمسلمين الذين تحت رعايتهم فيقول " ... لاتضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم "(١) . وفى الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وسلم : "اللهم انى اعوذ بك من شر فتنة الفقر "."(٢)

نعم ان الجوع يهدد الانسان فى تفكيره ،وفى ايمانه ايضا ، ولكن ذلك لا يعنى أن الانسان طعام فحسب ، بل هو بالاضافة الى ذلك ،انسان ينطوى على اسرار ومنعطفات أخرى جعلت منه مخلوقا متميزا عن غيره من المخلوقات الأخرى ، وكل هذا خفى عن التفسير المادى للانسان ،وعن غيره من التفسيرات . فبعضهم يسميه انسانا اقتصاديا ،والآخر يسميه انسانا اجتماعيا ،وآخر يسميه انسانا شهوانيا وآخرون يسمونه انسانا روحانيا . والانسان يجمع بين ذلك كله وغيره كذلك .

---

١) راجع الخطبة بتمامها فى كتاب الفتح الربانى لترتيب مسند الامام احمد بن حنبل الشيبانى . احمد عبد الرحمن البنا ،الشهير بالساعاتى .. فى مناقب امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ج ٢٣ الطبعة الأولى ١٣٥٣هـ .

٢) والحديث بتمامه " اللهم انى اعوذ بك من فتنة النار ،وعذاب النار ،وفتنة القبر ،وعذاب القبر ،وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر . اللهم انى اعوذ بك من شر فتنة المسيح الدجال ، اللهم اغسل قلبى بماء الثلج والبرد ،ونق قلبى من الخطايا كما نقيت الثوب الابيض من الدنس ،وباعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم انى اعوذ بك من الكسل والمأثم والمغرم " رواه البخارى فى باب الدعوات .

قضيــة مرفوضـــــة :

وهنا نحب ان نركز على بعض الدوافع الفطرية التى تعتبرها الماديــة الجدلية طارئة على الطبيعة البشرية ، وغريبة عنها ٠

من هذه الدوافع غريزة التملك التى تقول المادية الجدلية عنها انهـــا واردة على الكينونة البشرية وليست أصيلة فيها ، بل هى سبب الشرور والمفاســد والظلم ، وحب الاستغلال ٠ لذلك فقد كان القضاء عليها ضروريا لازالة أصــل الشرور والظلم من العالم ٠

واننا قد نوافق الجدليين بأن الانسان الأول لم تكن لديه ملكية فردية بالمعنى الصحيح ، ولكن لعدم وجود شىء لديه يتملكه ، بل كانت غريزة التملـك موجودة فيه ، وان لم يجد شيئا يحقق ذلك ٠ اذ كان يصطاد الحيوان من الغابة فيأكل لحمه ، ويلبس جلده ، ليكون له وقاية من تقلبات المناخ الشديدة ٠

انهم يستدلون على ذلك بأوضاع القبائل المتأخرة المتوحشة التى تسكـن بين الغابات والأدغال فى وسط افريقيا على انها تمثل مرحلة المجتمع الأول ، (الشيوعية الأولى) ٠ ولكن ذلك غير مسلم علميا ، اذ ان هذه القبائل نتيجـة لعدة تطورات مرت بها ، حتى وصلت الى الحالة الراهنة ، وحتى هذه القبائـــل المتأخرة ، فان التمايز بين افرادها واقع ملموس ، فان الدراسات قد اثبتت ان رئيس القبيلة يتميز عن باقى افراد القبيلة ، ولو بريشة فى رأسه ، او فى عدد النساء اللاتى فى حوزته ٠

قلنا ان غريزة حب التملك ، وحب الذات كانتا موجودتين فى الكيان الانسانى ، وان لم يكن هناك داع للملكية ، وعندما حصل الداعى ، تحركـت الغريزة الكامنة لتمثل دورها الفطرى الطبيعى ٠

وهى كغريزة الجنس بالذات ، فهى موجودة فى الطفل وان لم يشعر بها وعند سن معينة تتحرك الغريزة لتطلب حاجتها الطبيعية ، بعد ان كانت كامنـة فى اصل الكينونة البشريـة ٠

ولنمثل لذلك بمثال : بأن نأتي بأربعة اطفال أحدهم ،روسي وثانيهم امريكي ،وثالثهم ياباني ،ورابعهم عربي • اطفال أربعة متساوون في السن لا يتجاوز أعمارهم السنتين فقط • وهم لايعرفون ملكية فردية ، ولا رأسمالية ولا شيوعية — ولكنهم مجهزون بدوافع فطرية طبيعية •

فلو جئنا بهؤلاء الأطفال وعرضنا عليهم لعبة يحبونها ، لرأينا أمرا متوقعا منهم جميعا ،— الا أن يكون أحدهم مريضا— اننا سنجد أن كل واحد منهم يمد يده لأخذ اللعبة ، يحاول امتلاكها لنفسه دون غيره من الأطفال الآخرين • وقد كان قبل ذلك لايعرف اللعبة التي عرضت عليه ،بل كان لديه الاستعداد الفطري للامتلاك وحب الذات فقط ، وعندما وجد شيئا يملكه تحركت فطرته ،واشرأبت برأسها تعبر عن طبيعتها • فغريزة التملك اذن اصيلة في الانسان ، وهكذا غيرها من الغرائز الأخرى •

وليس التملك هو سبب الشرور والظلم كما يدعون ، وان استغلها الانسان في سبيل ذلك ، بل ان النفس البشرية هي التي تستغل الملكية اما في استغلال الناس وظلمهم او تستغلها في سبيل مصلحة البشرية ، وقضاء حوائجهم ، فالنفس البشرية الشريرة اذن هي سبب الظلم والشرور والاستغلال •

ان الملكية الفردية سيف ذو حدين ، فهي في يد الحكيم العاقل أداة اصلاح وتعمير ،وفي يد المجرم أداة قتل وتخريب •

أما انكار غريزة حب الذات ، وانها ليست أصيلة في الانسان بل هي طارئة عليه ، فهو كمن ينكر ضوء الشمس في وضح النهار ، اذ معلوم ضرورة ان كل انسان يحب نفسه ويحافظ على حياته من الاعتداء والموت •

ولعلنا سمعنا بأناس ترفعوا عن حب ذاتهم ،وأثرتها الى الاستشهاد والموت في سبيل عقيدة أو مبدأ ما ،وبأناس افرطوا في حب ذاتهم فآثروها على حساب غيرهم ظلما وعدوانا •

وسواء كان هذا أو ذاك ،فانهما يعبران عن اساس تلك الغريزة المتأصلة في ذات الانسان وتأكيد وجودها • فان الأول منهما كان تساميه عن حب ذاته ،

والمحافظة عليها طمعا فى شئ آخر أهم من حياته التى يعيشها ، وهو اما طمع فى دار الآخرة وما فيها من النعيم والسعادة الأبدية ، اذا كان مسلما ، واما طمعا ان يحظى باعجاب الآخرين فيخلد التاريخ اسمه ، بأنه جعل من نفسه فداء لمبدئه ، اذا كان غير ذلك .

وأما الثانى : فقد عبر عن حب ذاته بأقرب الطرق ، وادناها ، وهى اقرب ما تكون الى المستوى الحيوانى الوضيع ، الذى لا يظن فى الكون الا نفسه فيعمل لها وحدها .

ولهذا فقد كان التسامى عن حب الذات نزعة رفيعة ليس من اليسير لكل فرد بلوغها ، وكان الافراط فى حبها نزعة شيطانية يؤاخذ المرء عليها ، بل يعاقب بسببها .

والانسان السوى هو الذى يحب للناس ما يحبه لنفسه ، وبذلك يكون قد عبر عن فطرته المستقيمة ، على أنه فرد يعيش مع غيره من الناس . وقد امتدح الله الانصار فى كتابه العزيز فقد كانوا موضع ايثار واكرام ، وضربوا فى ذلك المثل الأعلى ، يقول سبحانه فى شأنهم : " ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة " "١" . وقد ورد فى الحديث قوله صلى الله عليه وسلم " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " . "٢"

وان هذه الدوافع متشابكة فى نهايتها ، لا يمكن فصل بعضها عن بعض ، وهى تؤلف مجتمعة الأساس الفطرى للطبيعة البشرية .

مناقشة مثال من التاريخ :

وقول الماديين بأن كل دعوة ، أو حركة ، أو كل تطور اجتماعى او اقتصادى ، أو سياسى كان سببه تطورا أو تغيرا فى علاقات الانتاج قول يكذبه الواقع .

ان دعوة الأنبياء ، والرسل عليهم السلام ، لم يكن سببها تطور علاقات

---

١) سورة الحشر آية ٩

٢) الحديث " لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " رواه البخارى فى باب الايمان .

الانتاج ،أو تأثيرات اقتصادية أخرى ، بل كانت ارادة الله وحدها سببا فى ذلك •

ولنمثل لذلك ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم التى يتخبط الماديون فى تفسيرها تخبطا شديدا ،واختلال السبب المادى الملائم لقيامها فى الجزيرة العربية• فمرة يجعلون سببها تغير الخط التجارى المار فى الحجاز الى شمال الجزيرة فى العراق وسوريا ، فكانت دعوة محمد لاعادة الخط التجارى الذى كان يمر باليمن فالحجاز ، فمكه بالذات — موطن البعثة — فالشام الى ماكان عليه قبلا •

يقول انجلس : فى عصر محمد كان الطريق التجارى بين اوربا وآسيا قد تبدل تبدلا كبيرا ،وكانت مدن جزيرة العرب التى شغلت قبل ذلك قسطا كبيرا من التجارة مع الهند وغيرها ،كانت فى حالة من الانحطاط التجارى الامر الذى أعطى دفعا كبيرا "• "١"

ولكن انجلس نفسه يتشكك فى هذا الحكم ،اذ الواقع يخالفه ويكذبه ،وكأنه أحس هذا فى نفسه ، ذلك أن التاريخ الانسانى ،والقرآن الكريم (كمرجع تاريخى) يحكى ان مكة بالذات موطن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت مركزا تجاريا وحيدا وقتئذ • اذ كانت البضاعة التجارية تنتقل من اليمن الى مكة ،ومنها الى الشام فى رحلتين عظيمتين ،رحلة فى الصيف ،ورحلة فى الشتاء • قال سبحانه " لايلاف قريش ،ايلافهم رحلة الشتاء والصيف "• "٢" وقد ورد فى السير ، والتاريخ ،ان هرقل ملك الروم زمن بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم التقى بابى سفيان وكان على رأس قافلة تجارية الى الشام ، وسأله عن صاحب الدعوة الجديدة وبعض تعاليمه "• "٣"

---

١) ماركس انجلس حول الدين مقتطفات من مراسلات ماركس وانجلس ، رسالة لانجلس ص ٩٥ •

٢) سورة قريش آية (— ١ — ٢)

٣) روى القصة الامام البخارى فى صحيحه باب كيف كان بدء الوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولها " ان عبد الله بن عباس اخبره ان اباسفيان ابن حرب اخبره ان هرقل ارسل اليه فى ركب من قريش كانوا تجارا بالشام فى المدة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماد فيها ابا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بإيلياء فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم ،ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال ايكم اقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم انه نبى ،فقال ابوسفيان فقلت انا اقربهم نسبا ،فقال ادنوه منى ••• " تراجع القصة بتمامها فى موضعها المذكور •

ومعنى ذلك أن مكة خاصة ، والحجاز عامة ،كانا بمثابة مركز ثقل تجارى هام بين الهند من ناحية ، وبين اقطار اوربا من ناحية أخرى ، وذلك ضد البعثة المحمدية ، ولم يحصل هناك تحول في الخط التجارى وقتئذ الى شمال الجزيرة عن طريق العراق فسوريا كما ظن انجلس •

قلنا ان انجلس لم يطمئن الى هذا الحكم ، لأنه مخالفة صريحة لواقع التاريخ ،وطبيعة الأمر ، ولذا فقد رأيناه يقول بعد ذلك : وسأدرس في الأيام القليلة القادمة تاريخ محمد نفسه • الا أنه يبدو لى ان الأمر يحمل طابع ردة بدوية ،ضد فلاحي المدن المتحضرين ،ولكن الذين اصبحوا في ذلك الوقت جد منحطين في دينهم ، وهو خليط من عبادة للطبيعة مفسدة ،ومن يهودية ، ونصرانية مفسدتين " • "١"

ولعل هذا دليل آخر على تخبط في الفهم ، وسوء في التقدير ،وعظم في الحيرة ، التى وقع فيها الماديون حيال بعثة محمد صلى الله عليه وسلم • وأيضا فان قوله هذا يدل دلالة صريحة على جهله أولا بطبيعة دعوته صلى الله عليه وسلم وثانيا بتاريخها •

فان الذين آمنوا بدعوة محمد لم يكونوا من البدو فحسب ، بل كانوا من الفلاحين والملاك أيضا ،والذين يسميهم انجلس (فلاحي المدن) هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان دعوته لم تكن دعوة محلية ضيقة على أساس فلاحي المدن في الجزيرة ، أو الأعراب في البادية ، بل كانت دعوته عالمية ،للناس كافة قال سبحانه : " وما أرسلناك الا رحمة للعالمين " • "٢"

وجاء بشرع جديد يعتبر الى وقتنا هذا مثالا عاليا ،في العدالة والحرية والمساواة الحقيقية في مجال التطبيق والواقع • بل ان الدعوات الاصلاحية في العالم مازالت تستقى من معين هذه الدعوة الصافى ،وتضيفه الى تعاليمها ومبادئها •

---

١) ماركس ، انجلس ،حول الدين مقتطفات من مراسلات ماركس وانجلس: رسالة لانجلس ص ٩٧ •

٢) سورة الأنبياء آية ١٠٧ •

انه مثال يلغى بضربة قاضية كل التفسيرات المادية للتاريخ ،ويلغى تخطيطه واضطرابه ،ويضعه امام واقع تاريخى لامفر منه ،والذى لا محيص عن الاعتراف ،بأن هناك علاقة وثيقة بين الله والانسان ،وان ارادة الله وقدره ،هما اللذان يشكلان واقع الكون ويقررانه •

" قدر الله الذى وجه الانسان الأول الى اكتشاف النار ،واختراع الآلات، ووجهه الى تكوين القبائل والشعوب للتعارف ، بغير سبب الا ارادة الله للانسان ان يصنع ذلك ••• هو ذاته الذى وجهه للاسلام ، والى بناء مجتمع مثالى على هدى الاسلام ،بغير سبب الا ارادة الله للانسان ان يصنع ذلك • لا بتطور اساليب الانتاج ، ولا بالنمو الطبيعى للمجتمع (بل) على المكونات البشرية الفطرية ،التى اودعها الخالق فطرة الانسان " "١".

ان كل تفسير للتاريخ ، وللتطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى يغفل ارادة الله وقدره ،وتدخله المباشر فى حياة البشرية ، ثم تفسيره تفسيرا منفصلا عن الله مرتبطا بوسائل الانتاج وعلاقاته أو الحياة المادية الأخرى ، هو تفسير قاصر ،لا يفسر حقائق الوجود ،بل تخمينات وظنون ،لاسند لها من علم ولا برهان ،قال سبحانه : " ان يتبعون الا الظن ،وان الظن لا يغنى من الحق شيئا " • "٢"

١) محمد قطب • المرجع السابق ص ١٢٠ •

٢) سورة النجم آية ٢٨

الفصــــل الثانـــى

الانســان فــى مفهـوم الديــن :

الانسان فى نظر الدين مخلوق من بين المخلوقات التى أسكنها الله هذه الأرض ، وهو يشترك معـها فى صفات ، وينفرد عنها بأخرى ، تجعل منـه مخلوقا فريدا متميزا .

فالتراب يدخل فى أصل خلقته وعناصر تركيبه وتكوينه " هو الذى خلقكـم من تراب " "١" ، " والله خلقكم من تراب " . "٢"

ويتصل الانسان بالنبات فى نموه ، ويشاركه فى الكثير من مواد تركيبه " والله انبتكم من الأرض نباتا " "٣" . اذ ان بعض غذاء الانسان يستمده من النبات ، وغذاؤه هذا هو الصلة بينه وبين التراب . والانسان أيضا يشارك الحيوان بأنواعه فى كثير من صفاته وغرائزه ، ويشاركه فى طعامه وشرابه ، وتوالده وتناسله ، فهو من هذه الناحية نوع من أنواعه " وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيـه الا امم امثالكم " . "٤"

ان هذا كله يؤلف ما يسمى بجسم الانسان ، وهو تلك الوشائج من الـدم واللحم ، مضافة اليها نوازعه الفطرية ، وشهواته الجامحه ، ورغبته الدائبة فـى حفظ حياته ، سواء كان ذلك لحفظ صحته وسلامتها ، أو حفظ نوعه واستمـرار تناسلـه .

اما وسيلته لحفظ حياته فهو الطعام والشراب ، واما وسيلته لحفظ نوعـه هو الزواج والتناسل . وان نوازعه الفطرية لها من التقبل على طبيعته البشريـة ما يجعلها تسعى لتحقيق رغبتها وحاجتها ، ويستوى فى ذلك جميع دوافعـه من طعام وشراب وجنس وغيره .

---

١) سورة المؤمن ٦٧
٢) سورة فاطـر ١١
٣) سورة نـوح ١٧
٤) سورة الانعام ٣٨

والدين قد كفل ذلك كله ، ووضع تلك الدوافع في مكانها اللائق به كانسان مكرم على غيره من الحيوانات وباقي المخلوقات.

فان الانسان يشعر امام تعاليم هذا الدين ، بأنه قريب جدا من واقعه البشري ، وبأنه يخاطبه لا على أنه ملاك ، بل على انه انسان يتصف بالضعف ، ويجري وراء نوازعه ، وشهواته . ثم هو يحاول بعد هذا ان يضبط هذه النوازع والشهوات لصالحه الفردي أولا ، ولصالح مجتمعه ثانيا ، ولصالح الانسانية أيضا .

يقول تعالى : " زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث " . " ١ " فالاسلام في هذه الآية يقر بأن الشهوات مزينة للانسان ، ولكنه يعمل في الوقت نفسه على تنظيم العلاقات الجنسية والاجتماعية والاقتصادية للناس . ويقدم لهم ضوابط في كل هذه الميادين . ضوابط تمنعهم من الشطط ، والاسراف فيها ، وتجنبهم الضرر لأنفسهم ، ومجتمعاتهم . اذ أن الحرية المطلقة لا يتمتع بها الا الحيوان ، بل وربما هلك الحيوان بسببها ، فأي فلسفة أقرب الى الواقع البشري من هذا الدين .

قال سبحانه : " كلوا واشربوا ولا تسرفوا " " ٢ " . انه يبيح المبدأ ثم يضع القيود المناسبة . ويقول ايضا : كتب عليكم القتال وهو كره لكم " " ٣ " . ذلك لأنه سبحانه يعلم ان القتال ترك لما يألفه الانسان وينعم فيه من راحة واستقرار ، ولذلك فان النفس تكرهه ، ولكن اذا كان القتال دفاعا عن النفس ، أو من اجل القصاص ، أو لرد عدوان ، فهو مشروع ومستحب ، بل وواجب ، " ولكم في القصاص حياة يا اولى الألباب " . " ٤ " " فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم " " ٥ "

ومعنى ذلك أن الدين اذا كان قد اوحى به من السماء ، فانه لم يحلق في السماء ، بل كان مجاله الأرض ومن عليها ، وما عليها . وميدان تطبيقه هو الحياة

---

١) سورة آل عمران آية ١٤
٢) سورة الاعراف آية ٣١
٣) سورة البقرة آية ٢١٦
٤) سورة البقرة آية ١٧٩
٥) سورة البقرة آية ١٩٤

البشرية الواقعية ،ولهذا كله فانه دين الفطرة ،ولا يوصف الاسلام بأنه دين الفطرة لو لم يكن قريبا من الواقع البشرى فى اعترافه بالملذات البريئة ،والنوازع الفردية ،وفى وضع القيود لها أيضا .

" والاسلام فى هذا وذاك انما يعبر عن فلسفة خاصة ،وعن تصور خاص بالانسان ،فالانسان فى النظام الاسلامى ليس ملاكا ،ولكنه ايضا ليس شيطانا . انه ينطوى على ميول ونوازع أرضية بهيمية حيوانية ،تقربه من الأرض والحيوان ولكنه ينطوى فى الوقت نفسه على اتجاهات علوية ترتفع به ،وتسمو الى اعلى عليين - وسيأتى الكلام عن ذلك بعد قليل - والاقتصار على الجانب الأول من الانسان افراط، كما ان الاقتصار على الجانب الثانى فيه تفريط ، والاسلام دين الفطرة ، لأنه تفادى جانب الافراط والتفريط فى تصوره للانسان ". "١"

قلنا ان الانسان قد تميز عن الحيوان بميزات منها : قامته المستقيمة ، وخلقه السوى ،وذلك ما تشير اليه آيات كثيرة فى كتاب الله : " ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ... ثم انشأناه خلقا آخر " "٢" . وفى موضع آخر " ثم سواه" "٣" أو " فاذا سويته " "٤" أو " فى احسن تقويم " "٥" أو " الذى خلقك فسواك فعدلك ". "٦"

ومن أهم تلك الميزات على الاطلاق عقله الراقى ،وتفكيره الذكى ،فالانسان مجهز بحواس هى نوافذ للمعرفة ،واليها الاشارة فى قوله سبحانه : " والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا . وجعل لكم السمع والأبصار والافئدة لعلكم تشكرون " "٧" . فان فقدان العلم حال الولادة يتحول الى علم بوساطة السمع والأبصار والافئدة ،وهو بخلاف الحيوان الذى لاتنمو حواسه نموا يؤدى الى العلم والمعرفة.

---

١) انظر مذكرة المذاهب الفكرية المعاصرة للدكتور يحى هويدى ص٦
٢) سورة المؤمنون آية ١٢ - ١٤
٣) سورة السجدة آية ٩
٤) سورة ص آية ٧٢
٥) سورة التين آية ٤
٦) سورة الانفطار آية ٧
٧) سورة النحل آية ٧٨

وقد كلف الله الانسان ان يعمل فكره وعقله فيما حوله من بدائع المخلوقات ليكون ذلك سببا في ايمانه بعظمة الخالق جل جلاله " ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الألباب " . "١" وجعل تكليف الفرد بالامور الشرعية مناطا بسلامة عقله ، ولهذا فلم يكلف المجنون ، وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : ان القلم رفع عن ثلاثة .... وعن المجنون حتى يفيق " . "٢" ولهذا فقد كان الانسان العاقل أهلا لحمل الامانة التي ثقلت عن حملها السموات والأرض والجبال ، قال سبحانه " انا عرضنا الامانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين ان يحملنها ، واشفقن منها ، وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا " "٣"

وقد ذكرت تعاريف معاني العقل في مواطن عديدة يصعب حصرها في كتاب الله ، وكلها تدل على معنى التفكير والتأمل ، كلفظ يعقلون ، ويتفكرون ويعلمون ، ويتدبرون ، ويوقنون ، ويفقهون .

" وينزل من السماء ماء فيحي به الارض بعد موتها ، ان في ذلك لآية لقوم يعقلون " . "٤" . " ويتفكرون في خلق السموات والأرض" . "٥" وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون " . "٦"

وقلنا ايضا ان الانسان قد تميز عن أنواع الحيوان بما فيه من نفحة روحية وهبها الله اياها ، تحمله دائما الى الارتفاع ، وترقى حياته على الدوام . ومهمة الروح في الانسان ان تتصل بالقوة الخفية في هذا الكون ، فتستلهم منها النور الذي لا تراه الحواس ، ولا يدركه العقل ، ولكنه موجود بالرغم من ذلك ، وبهذا

---

١) آل عمران آية ١٩٠
٢) والحديث في البخاري ما نصه " وقال علي : ألم تعلم أن القلم رفع عن ثلاثة : عن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبي حتى يدرك ، وعن النائم حتى يستيقظ " وقد رواه في باب الطلاق ، واما رواية الترمذي " رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يشب وعن المعتوه حتى يعقل وقد أورده في باب الحدود .
٣) سورة الأحزاب آية ٧٢
٤) سورة الروم آية ٢٤
٥) سورة آل عمران آية ٩١
٦) سورة الجاثية آية ١٢

النور العلوى تستطيع الروح ان تسمو ،فتعاون الكائن البشرى على تحقيق هدف الحياة من الارتفاع " ١ " قال سبحانه " وبدأ خلق الانسان من طين ،ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ،ثم سواه ،ونفخ فيه من روحه ،وجعل لكم السمع والأبصار والافئدة قليلا ما تشكرون " . " ٢ "
وأيضا : " انى خالق بشرا من طين ،فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين " " ٣ " .

وكما ان للجسم غذاء يحيا به ،ومطالب يصبو اليها ،والعقل ايضا له عالم فسيح يفكر فيه ،ويتأمل فى ارجائه . فكذلك الروح لها غذاؤها الضرورى كذلك ، وهى ما فتئت تبحث عنه عبر تاريخها الطويل وذلك كى تستلهم منه حاجتها الطبيعية ،وغذاءها الضرورى .

واذا ما سرحت طرفك فى اغوار تاريخ الانسان الطويل ترى امرا يلفت الانتباه ،سترى ان الانسان جهد وهو يبحث عن شئ يقدسه ويعبده ويتوجه اليه فى حاجاته وقضاياه ،ويشعر بصلة خفية تربطه بذلك المعبود .

لقد عبد الانسان الطوطم ،وعبد الطبيعة ،وعبد الأصنام ،وعبد الآلهة المتعددة ، وعبد العظماء ،وعبد الماده ، وهو فى كل ذلك حائر يتعثر فى ظلام دامس ،ينقض اليوم ماعبد بالأمس ، واذا كان معبوده من شئ يطعم ،يكون وجبة مناسبة اذا وخذه الم الجوع ،وشدة الحاجة . " ٤ "

ولكن الله جل شأنه لم يترك الانسان وحده يتعثر فى ضلالة ،تتجاذبه أهواؤه ،بل اخذ عليه العهد من حين أن نزل آدم الى الأرض وهداه اليه بقوله : " واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى : شهدنا " " ٥ "

---

١) محمد قطب . الانسان بين المادية والاسلام ص ٨٣
٢) سورة السجدة آية ٧ — ٨ — ٩
٣) سورة ص آية ٧١ — ٧٢
٤) فى الجاهلية العربية قبل الاسلام كانوا يصنعون اصناما من تمر ويعبدونها فاذا جاعوا أكلوها
٥) الاعراف آية ١٧٢

ولم يكتف سبحانه بذلك ،بل كان له راعيا وحافظا طيلة وجوده على الأرض يرسل له الرسل والأنبياء ،وينزل معهم الكتب ،يهدونه اذا ضل ، ويذكرونه اذا نسى ،وكان خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم الذى ارسله الله رحمة للعالمين ،يهدى الناس الى الله ،ويرشدهم الى سواء السبيل " وما ارسلناك الا رحمة للعالمين " . "١"

وبناء على وجود هذين العنصرين فى كيان الانسان ،العقل والروح جعل الانسان مكلفا ،وكانت حياته اختبارا وابتلاء " انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا " "٢" .

وأخيرا نقول : ان الترابط فى الكيان البشرى ترابط طبيعى ،ليس بالوسع فصل بعضه عن بعض ،بل هو كل مترابط ،وتتصل اجزاؤه اتصالا عضويا ينم عن قدرة الخالق فى ابداعه وتصويره .

---

١) سورة الانبياء ١٠٧

٢) سورة الانسان آية ٢

التوازن بين مكونات الفرد الأساسية :

ان ميزة الاسلام — كدين سماوى — عن غيره من الفلسفات ، والنظريات الأخرى ، أنه يأخذ الكائن البشرى على ماهوعليه ، ولا يحاول ان يقسره على ما ليس من طبيعته ، ولكنه يعمل فى الوقت نفسه على تهذيب دوافعه الفطرية ، دون ان يعزق الفرد بين ضغط هذه الدوافع على طبيعته ، وبين المثل العليا التى يطالبه الدين بأدائها •

ان الانسان فى الاسلام مركب من طبيعة مزدوجة — كما مر بنا سابقا — فيه قبضة من طين لأرض ، ونفخة من روح الله ، وان اتحادهما معا يجعل من تصرفات الفرد وجهتين متقابلتين ، وجهة مادية ووجهة روحية ، والاسلام يقرر استقامة الطبيعة البشرية بمقدار التوفيق بين هاتين الوجهتين المتقابلتين ، على ان تشملا كل سلوك الفرد ، وأنواع نشاطه المختلفة فى توازن تام فيما بينهما •

والاسلام اذ يقرر ذلك لا يغفل المرونة التى تكتنف الطبيعة البشرية ، اذ الانسان قابل لأن يهبط عن مستواه الطبيعى ، فيصل الى مستوى الحيوان ، وقد يرتفع عن مستواه الطبيعى فيرتقى الى مصاف الملائكة ، وذلك بجنوحه تارة نحو المادية ، وتارة اخرى نحو الروحية — وكلاهما من طبيعته — وهو لا يعدم كونه انسانا فى اعتبار ما ، ولكنه مع ذلك لا يلبث ان يعود الى الاتزان ، والطبيعة السوية اذا ما انقشعت الغشاوة عن عينيه ، وزالت الغمة عن قلبه ، وتيقظ من غفلته ، وآب الى رشده •

وبين الطرفين المتباعدين يقف التوجيه الربانى للانسان ، ويقرر طبيعته مراعيا فيه شطرى تركيبه ، المادى والروحى ، وليس هذا وسطا حسابيا بينهما كما يقال ، بل هو التوجيه المناسب لطبيعة البشر ، واصل خلقتهم •

حقا ان الانسان فى الاسلام مخلوق ترابى خلقه الله من طين ، ولكنه مع ذلك ماكان ليوجد لولا ان الله نفخ فيه من روحه ، فصار بذلك تسوية ربانية فريدة • "فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله " • "١"

---

(١) سورة الروم آية ٣٠

ولا تخفى قيمة هذا التصور المزدوج للطبيعة الانسانية فى دحض التيارات المادية بجميع اشكالها ، كاصحاب نظرية التطور ، ورجال علم النفس من اتباع فرويد ومدرسته فى التحليل النفسى ، ورجال المدرسة التجريبية الذين يكتفون بالنظر الى النفس البشرية على انها مجموعة من الغرائز والميول الفطرية فقط ، وايضا فى دحض التيارات المثالية التى تشد الانسان الى غير طبيعته ، من رهبانية ، وصوفية هندية ، تقوم على تعذيب الجسد وقهره لتسمو الروح وترتفع الى عالم آخر مغاير .

ان الانسان فى هبوطه وصعوده ضمن طاقاته البشرية ، وعناصره المكونة له لا يفرض عليه شىء من الخارج ، ولا يقسر على ما ليس من طبيعته ، بل كله يعود الى مرونة فطرته الأصيلة فيه .

والغاية التى ينشدها الاسلام هى ايجاد التوازن فى نفس الفرد ، فيؤدى ذلك الى ايجاد التوازن فى المجتمع ، ومن ثم فى الانسانية كلها بعد ذلك .

ان الاسلام لا يقر فقدان التوازن ولو كان الى اعلى ، وذلك لأنه يحرص على اهداف الحياة العليا التى لا تتحقق بغير الاستجابة لنوازع الأرض ، وكل ما يهدف اليه الدين تنقية الوسائل التى يستجيب فيها الفرد لنوازعه ، حتى ترتفع الحياة كلها ، وتصبح كريمة جليلة خليقة بمعنى التكرم الذى اسبغه الله على الانسان ، ولهذا فقد ورد فى الحديث قوله صلى الله عليه وسلم : " ان الرهبانية لم تكتب علينا " . " ١ "

---

(١) والحديث بتمامه ، عن عروة قال دخلت امرأة عثمان بن مظعون — احسب اسمها خوله بنت حكيم — على عائشة وهى باذة الهيئة ، فسألتها ما شأنك ؟ فقالت : زوجى يقوم الليل ويصوم النهار . فدخل النبى صلى الله عليه وسلم فذكرت عائشة ذلك له ، فلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان فقال : ياعثمان ان الرهبانية لم تكتب علينا افمالك فى اسوة ؟ ، فوالله انى اخشاكم لله ، واحفظكم لحدوده "
رواه الامام احمد فى مسنده ج ٦ ص ٢٦٦
ومن شواهده ماروى فى مصنف عبد الرزاق عن طاوس مرسلا فى سند صحيح قوله صلى الله عليه وسلم " لا رهبانية فى الاسلام " سمعته من الشيخ محمد ناصر الدين الالبانى فى مقابلة شخصية مع فضيلته فى مساء الأربعاء ٢٤ ربيع الأول ١٣٩٦ هـ .

ان الرهبانية فى مفهوم اصحابها كمال ، لانها ارتفاع عن نوازع الفرد الحيوانية ، ليكون أهلا لدخول عالم الملكوت ، والقرب من الله ، ولكنها فى نظر الدين اخلال فى اوزان الطبيعة الانسانية ، اخلال يعطل الهدف من الحياة ويعذب الفرد فى سبيل بلوغ هدف معين مهما يكن شريفا فى ذاته ، فهو غير عادل ، سواء بالنسبة للفرد او للمجتمع أو للحياة .

لهذا كله فان الاسلام يسعى دائما للتوفيق الدائم بين اهداف الحياة وضرورات المجتمع ، ونوازع الفرد ايضا ، دون أن تطغى مصلحة على مصلحة ، أو هدف على هدف ، بحيث تسير جميعها ضمن نسق متوافق يحقق اقصى معانى السعادة للبشرية جمعاء على وجه الأرض . "١"

التوازن الاجتماعى بين الفرد والمجتمع :

لقد عانت البشرية نوعين من الفلسفات ، نوع منها يقدم مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة ، وتعطى الحرية الشخصية مداها المطلق ، من غير نظر الى التضارب بينها ، وبين مصلحة الجماعة ، أو الأمة ، ويمثل هذا الاتجاه فى العصر الحديث الأنظمة الديموقراطية .

ونوع آخر ، هو الذى تقدم مصلحة الأمة على مصلحة الفرد ، وتعتبره كما جامدا فى بناء ضخم ، دون نظر الى خصائصه الفردية ، وميزاته الشخصية ، ولا يلتفت اليه الا بمنظار المجتمع الذى يعيش فيه ، ويمثل هذا النوع فى العصر الحديث الشيوعية .

وقد انتهى الأمر بالاولى الى طغيان مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة وتسخير الجماعة لمصلحة الفرد ، وانتهى الأمر بالثانية ، الى ذوبان الفرد فى الجماعة وتجريده من حقوقه ، واعتباره لا يرى الا من خلال مصلحة الأمة .

ولهذا فقد كانت الحاجة شديدة لايجاد نظام يوا كب بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ، بحيث لا تطغى مصلحة على اخرى ، وبه يتحقق التوازن بين

---

١) راجع بتوسع كتاب الانسان بين المادية والاسلام لمحمد قطب ص ٨ ومابعدها .

مصالح البشرية جمعاء •

والاسلام وحده ،هو الذى وازن بين مصلحة الفرد ،ومصلحة الجماعة فاعطى الفرد بالقدر الذى لايطغى فيه على الجماعة ،واعطى الجماعة بالقدر الذى لاتطغى على الفرد • انها نظرة وسطية خالصه تتمشى وطبيعة البشر ، " وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ،ويكون الرسول عليكم شهيدا " • "١"

ان الفرد فى الاسلام مسئول عن عمله مسئولية يقول عنها سبحانه " ولا تزر وازرة وزر أخرى " "٢" " لاتجزى نفس عن نفس شيئا " • "٣"

ولكن الفرد يعيش ضمن جماعة ،هو جزء منها ،لذا فقد كانت المسئولية الفردية يرافقها مسئولية جماعية أيضا • " واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة " "٤" ولذلك فقد كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرضا على كل مكلف ،حيث تعتبر الأمة كلها مسئولة بعضها عن البعض الآخر • ولهذا ايضا نجد ان التكليف موجه للجماعة فى كثير من الأمور ،يقول تعالى : " يا ايها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء " • "٥" " يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار " "٦" " وأمرهم شورى بينهم " • "٧"

ويبدو هذا التوازن واضحا تمام الوضوح فى عقوبة القصاص فى الاسلام " ولكم فى القصاص حياة يا اولى الألباب " • "٨" وذلك لان القصاص يقع على الفرد فقط ، ولكن فى ذلك تتحقق حياة المجتمع بأسره ، فينعم بالأمن والرخاء •

---

١) سورة البقرة آية ١٤٣
٢) سورة فاطر آية ١٨
٣) سورة البقرة آية ١٢٣
٤) سورة الانفال آية ٢٥
٥) سورة الممتحنة آية ١
٦) سورة التوبة آية ١٢٣
٧) سورة الشورى آية ٣٨
٨) سورة البقرة آيه ١٧٩

" والاسلام يمنح الحرية الفردية فى اجمل صورها ، والمساواة الانسانية فى ادق معانيها ، ولكنه لايتركها فوضى فللمجتمع حسابه ، وللانسانية اعتبارها ، وللاهداف العليا للدين قيمتها ، لذلك يقرر مبدأ التبعية الفردية ، فى مقابل الحرية الفردية ، ويقرر الى جانبها التبعية الجماعية التى تشمل الفرد والجماعة بتكاليفها ، وهذا ماندعوه بالتكافل الاجتماعى " "١" .

ولنضرب لذلك مثالا آخر بمسألة الملكية فى الاسلام ، فاننا نجد أن النظرة اليها نظرة وسطية من جميع جوانبها ، تكفل فيها حقوق الفرد والجماعة معا .

فان التملك غريزة فى الانسان ، وأصل فى طبيعته ، ولذلك فهى محترمه ، مصونة من الاعتداء ، " وانه لحب الخير لشديد " "٢" . ولذلك فقد احيطت بالضمانات التشريعية " كل المسلم على المسلم حرام دمه ، وماله ، وعرضه " . "٣"

ولكن الذى صان حقوق الفرد فى التملك ، صان حقوق المجتمع أيضا ، بأن لا تتضرر مصلحته أو تشل حركته مجاراة لملكية فرد فى المجتمع . حقا ان المال لله عز وجل ابتداء ، وان الانسان موكل فيه على سبيل التصرف بمال خاص به ، ولكنه جعل للجماعة حقا فيه أصلا ، اذ حرم على الفرد التملك من وجوه غير شرعية ، ولم يجعل حرمة للمال الذى جمعه بالطرق الممنوعة شرعا . بل جعل الضمانات للمال الذى كسبه الانسان وفق قواعد الشرع ، وحدود المصلحة الاجتماعية ، ويمكننا ان نضيف الى ذلك شرطا آخر هو أن يتصرف فى ملكه التصرف المشروع .

ولذلك نرى أن العلاقة بين الفرد والجماعة فى الاسلام هى علاقة تعاون مثمر بناء ، وحرص على رفاهية وراحة المجتمع بافراده ، لا الصراع الطبقى ، ولا مجتمع الكراهية والانتقام " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان " "٤" . " والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض " "٥" .

---

١) سيد قطب . العدالة الاجتماعية فى الاسلام ص٦٣ طبعة ثامنه ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٩ م

٢) سورة العاديات آية ٨

٣) الحديث " ... كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه " رواه الامام مسلم فى باب البر والصلة .

٤) سورة المائدة آية ٢ ٥) سورة التوبة آية ٧١

انها العلاقة المثلى التي رضيها الله لعباده ، لاتهدر فيها مصالح الفرد ولكن في الوقت نفسه تضمن مصلحة الجماعة ، وبه يتحقق التوازن والعدل ، والاستقامة.

موقع الانسان في الكون :

لا ريب ان الانسان جزء من اجزاء هذا الكون الفسيح ، ولكنه جزء خاص من بين اجزاء الكون الأخرى ، فقد كرمه خالقه سبحانه عن غيره بقوله " ولقد كرمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا " "١".

ومن بين دواعي التكريم أن جعله الله اهلا لحمل أمانة لم يقو على حملها غيره " انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فابين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان " "٢" . ولذلك فقد استحق ان يكون خليفة الله في هذا الكون " واذ قال ربك للملائكة انى جاعل في الأرض خليفة " . "٣" لذلك فان الانسان يشكل محور هذا الكون ، وهو على قمة المخلوقات فيه ، وفي موضع تكريم ، وعناية الهية بالغة ، خلقه الله في احسن تقويم ، وجعله في احسن صوره ، واكملها " وصوركم فاحسن صوركم " . "٤"

وهذا الاستخلاف ليس خالصا من أنواع الابتلاء والامتحان ، فقد اراد الله لهذا الانسان ان تتوزع نفسه بين دواعي الخير ، ودواعي الشر ، ومن خلال هذا الصراع تكتمل شخصيته ، وتتكامل طبيعته المادية والروحية ، " هو الذى جعلكم خلائف في الأرض ، فمن كفر فعليه كفره ، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا ، ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا " . "٥"
" انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم احسن عملا " "٦". " ولا تجزون الا ماكنتم تعملون " "٧"

---

١) سورة الاسراء آية ٧٠
٢) سورة الاحزاب آية ٧٢
٣) سورة البقرة آية ٣٠
٤) سورة غافر آية ٦٤
٥) سورة فاطر آية ٣٩
٦) سورة الكهف آية ٧
٧) سورة يس آية ٥٤

وميزة العقل فى الانسان جعلته على صلة بالكون اكثر من غيره ، فهو يتصل بالكون المحيط به بطريقين :

أولا : صلة الاستثمار والانتفاع ، والتسخير لمنافعه ومصالحه.

ثانيا : صلة الاعتبار والتأمل والتفكير فى الكون وما فيه . "١"

أما صلة الاستثمار والانتفاع فتظهر واضحة فى العديد من آيات كتاب الله العزيز ، فلا يذكر القرآن جزء من اجزاء هذا الكون الا ويشير الى ما فيه من منافع للانسان وذلك كقوله تعالى : " والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس . ان ربكم لرؤوف رحيم " "٢"

ووصف البحر بقوله " وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون " . "٣"

ووصف الماء والنبات بقوله : " هو الذى انزل من السماء ماء لكم منه شراب ... ينبت لكم به الزرع والزيتون والاعناب ، ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون " "٤"

والأرض بما فيها مسخرة ومذللة للانسان ، كما جاء فى سورة الملك قوله تعالى " هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه ، واليه النشور" "٥" بل وان الشمس والقمر وما يتبعهما من ظاهرة الليل والنهار ، كل ذلك مسخر للانسان " وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون " . "٦"

---

١) راجع بتوسع كتاب نظام الاسلام (العقيدة والعبادة) للاستاذ محمد المبارك ص٥٩

٢) سورة النحل آية ٥ — ٦

٣) سورة النحل آية ١٤

٤) سورة النحل آية ١١

٥) سورة الملك آية ١٥

٦) سورة النحل آية ١٢

وحتى الكون كله بأرضه وسمواته مسخر للانسان " الم تروا ان الله سخر لكم ما فى السموات والأرض واسبغ عليكم نعمه " "١"

ان هذا كله دفع الانسان الى استثمار واستغلال هذا الكون ، والانتفاع به الى اقصى حدود الامكان ، ثم اعتبار ما فى الكون نعما من الله سبحانه مقدمة للانسان ينتفع ويتمتع بها ٠

أما صلة التأمل والتفكر واتخاذ الكون او الطبيعة مسرحا لذلك ، فهو ما حث عليه القرآن الكريم ورغب الانسان فيه ٠ وهو بذلك يفتح اعين الانسان على ما حوله من مشاهد وآفاق ويحثه على التأمل فيها والنظر اليها ٠

ومن بين الآيات التى تدعو الى النظر والتأمل فى هذا الكون قوله سبحانه :
" أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شىء " "٢".
" أو لم يروا انا نسوق الماء الى الأرض الجرز فنخرج به زرعا " "٣" .
" وهو الذى مد الأرض ، وجعل فيها رواسى وانهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون " "٤"
" وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من اعناب ، وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون " "٥"
" الم تر ان الله انزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا الوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يجعله حطاما " "٦" .

وواضح من هذه الآيات ان القصد من التأمل والتفكر فى هذه المخلوقات ليس لذاته بل للانتقال من ذلك الى التفكر فى عظمة الخالق جل شأنه ، ودقيق صنعه ، فيعبده ، ويتوجه اليه ٠

---

١) سورة لقمان آية ٢٠
٢) سورة الاعراف آية ١٨٥
٣) سورة السجده آية ٢٧
٤) سورة الرعد آية ٣
٥) سورة الرعد آية ٤
٦) سورة الزمر آية ٢١

وهكذا يتضح أن خلافة الانسان في الأرض انما هي بقدرته على استثمارها والانتفاع بما فيها ، وفي قدرته على التأمل والنظر والتفكر في حوادثها وآياتها وسننها وأسرارها . وقد أعطاه الله من الصفات ما يمكنه من ممارسة هذه الخلافة في سائر متطلباتها ، ومن ابرز هذه الصفات القوة والعقل والارادة .

والانسان عبد الله في هذا الكون ، فقد جعل الله سبحانه العبودية غاية الوجود الانساني ، وأسمى مقاصده ، قال جل شأنه " وما خلقت الانس والجن الا ليعبدون " "١" . وبمقدار ما يسعى لتوجيه طاقاته وقدراته في اطار التوجيه الالهي بمقدار ما يعلو ويرتقي في مراتب العبودية ، التي هي الغاية التي يسعى كل انسان لبلوغها .

ومقام العبودية هذا ، وصف تشريف لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل هو من أخص أوصافه شرفا وتعظيما " سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، الذي باركنا حوله " "٢" . " وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا " "٣"

ويتحدث سيد قطب رحمه الله عن مقام العبودية فيقول : ان قيام الناس في هذا المقام هو الذي يعصمهم جميعا من عبودية العبيد للعبيد ، وهو الذي يحفظ لهم كرامتهم جميعا على اختلاف مراكزهم الدنيوية ، وهو الذي يرفع جباههم فلا تنحني الا لله ، وهو الذي يكفهم في الوقت ذاته عن الاستكبار في الأرض بغير الحق ، والعلو فيها والفساد ، ويستجيش في قلوبهم التقوى للولي الواحد الذي يتساوى امامه العبيد ، ويرفض أن يدعي احد لنفسه خصائص الألوهية ، فيشرع للناس في شئون حياتهم بغير سلطان من الله ، ويجعل ذاته مصدر السلطان ، وارادته شريعة لبني الانسان ، ومن ثم فلا تعارض — في التصور الاسلامي — بين رفعة الانسان وعظمته وكرامته — وفاعليته ، وبين عبوديته لله — سبحانه — وتفرد الله بالالوهية وبخصائصها جميعا " "٤" .

---

١) سورة الذاريات آية ٥٦
٢) سورة الاسراء ١
٣) سورة البقرة ٢٣
٤) سيد قطب . خصائص التصور الاسلامي ومقوماته ص ١٥٥

اما الايمان بيوم آخر وما فيه من حساب وعقاب هو من تمام كمال الوجـــود الانسانى فى هذا الكون ،وهو بلاريب دافع لعمل الخير ، وعاصم من الشر مع كثرة المغريات •

والاعتقاد بيوم الجزاء ايضا يعطيه مناعة وقوة يستعين بهاحين يهزم فـــى معركة الحياة ،وذلك حينما يرتمى فى احضان ذلك الأمل المحقق يشعر بان ما فاته فى الدنيا بعد ان أجهد نفسه فى تحصيلـه سوف يناله فى الآخرة ثوابـــه وجزاءه •

والقرآن الكريم يبين ان الحياة من غير ايمان ببعث تكون عبثا لا قيمةلهـــا ولا معنى ،ولابد من حياة اخرى وراء هذه الحياة يجازى المرء فيها عن الاحسان احسانا وعن الاساءة جزاء مثلها ، " أيحسب الانسان ان يترك سدى " "١" ، " افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون " "٢" •

ان الانسان اذا لم يشعر بمعنى حياته وغايتها ،سيكون لا محالة فريســة للقلق والحيرة والتشاؤم ،ويصبح كل شئ حوله تافها وممقوتا ينذر بالدمار وسوء المآل •

" لقد نظرت بعض الفلسفات المعاصرة ـ كوجودية سارتر ـ الى الانســان على انه كائن حائر ،وانه وجود يحمل العدم فى صميمه ،بل ان وجود الانســـان عند سارتر مرادف للقلق الى الحد الذى يجعله يقول : " نحن قلق " •

" وسيظل انسان العصر فى هوة الضياع اذا لم يتجاوز القلق الى الايمـان ، وستزداد مشكلاته حدة اذا ظل يمارس حرية كتلك التى يدعو اليها سارتر ،وهـــى حرية من شأنها ان تؤدى الى التردى فى الهوة السحيقة التى يريدها سارتــر ان يؤول اليهاكل وجود انسانى وهى هوة العدم " "٣"

---

١) سورة القيامه ٣٩

٢) سورة المؤمنون ١١٥

٣) ابو الوفا الغنيمى التفتازانى • الانسان والكون فى الاسلام ص ٨٢

ومادية سارتر هذه كالمادية الجدلية في احتقارها للانسان ، اذ ترى وجود الانسان لايعدو الفترة المحدودة التي يظهر فيها على سطح الأرض ثم يصيـر الى تراب كماجاء من تراب ، وهكذا تنتهي قصة الحياة الانسانية دون حكمة او ثمرة • ودون كرامة او كمال •

وما احقر هذا التصور ، وابعده عن الصواب •

اما نظرة الدين فهي تسمو بقدر الانسان بعيدا عن هذه التصورات الهابطة وشتان بين الفناء والخلود ، وبين الضياع والبقاء • وبين الاسفاف والتسامي ، وبين رسالة الانسان في هذه الحياة كما تصورها المادية الجدلية ، ورسالته كما تصورها معالم الوحي الالهي على السنة الأنبياء والمرسلين •

البـــاب الثالــــث

الدين و والانسان

الباب الثالث

الدين و والانسان

الفصل الاول

الدين كما تراه المادية الجدلية

ان الحديث عن الدين في نظر المادية الجدلية يجب ان يقترن بالحديث عن المسيحية المحرفة "١" التى بلغت اوج تحريفها وانتكاسها في القرن التاسع عشر ، وذلك عند ظهور المذاهب والفلسفات التى ارادت ان تعيد النظر فى تفسير الكون تفسيرا جديدا . فمن مثالية تحاول الابقاء على تعاليم الكنيسة "٢" على ما فيها — محاولة ان تجد في الكنيسة ضالتها التى تنشدها ، فتتعثر حينا ، وتمسك بخيوط العنكبوت حينا اخرى ، وهى تسترجع انفاسها الاخيرة لتقف امام القوى من الافكار التى انكرت المسيحية ودينها ، بل والهها . ومن فلاسفة اتجهوا الى البحث عن اله ليس له كنيسة او تكاليف دينية . "٣" ومن مادية لم تجد في الكنيسة الا كل معانى الخرافة والاستغلال ، سواء كان ذلك في مجال العقيدة ام المعاملات ، مما جعلها تفسر الكون تفسيرا ماديا صرفا منعزلا عن كل اثر للدين او للروح فيه . "٤"

---

١) اما الديانة اليهودية فهى محرفة ايضا ، ولكن لم يكن لها الاثر الظاهر في حياة الشعوب نظرا لانها ديانة مغلقة على نفر قليل موزعين فى ارجاء الأرض ، اما الديانات المحرفة الاخرى فهى ديانات محلية وليس لها اثر عالمى .

٢) أمثال سترلنج ١٨٢٠ — ١٩٠٩ ، وتوماس هل جرين ١٨٣٦ — ١٨٨٢ فى انكلترا ، وغيرهما .

٣) أمثال هيجل ١٧٧٠ — ١٨٣١ وشلنج ١٧٧٥ — ١٨٥٤ ، وجوزيف دى مستر ١٧٥٣ — ١٨٢١ م فى المانيا وغيرهم .

٤) امثال فورباخ ١٨٠٤ — ١٨٧٢ ، وكارل ماركس ١٨١٨ — ١٨٨٣ فى المانيا واوجست كونت ١٧٩٨ — ١٨٥٧ فى فرنسا وغيرهم . راجع بتوسع يوسف كرم . تاريخ الفلسفة الحديثة .

لقد اصبح الدين فى اوربا مظهرا خاويا من كل ماله صلة بالسماء ،محاولا ان يعالج مشاكل ارضية بشرية صرفة ،على ضوء تعاليم كنسية محرفة .

ولنسمع لانجلس اذ يقول : " ان الاديان الوضعية القائمة تنحصر فى كونها تعطى اسمى تقديس لتنظيم الحب الجنسى من قبل الدولة ،اى قوانين الزواج ، ومن الممكن ان تختفى هذه الأديان كليا من الغد دون ان يطرأ اقل تبديل على الحب ،وعلى الصداقة ،فالدين المسيحى فى فرنسا قد اختفى حقا من ١٧٩٣ الى ١٧٩٨ م الى حد ان نابليون نفسه لم يستطع ان يعيده الا بصعوبة ، وبعد مقاومة " "١"

والدين فى نظر المادية الجدلية بشرى ،نبت من الأرض ،ولم ينزل من السماء بل صنعه الانسان لنفسه ، وهو بالوقت ذاته شعور وهمى لذات الانسان التى افتقدها . يقول ماركس : " ان الانسان يصنع الدين ،وليس الدين هو الذى يصنع الانسان . يقينا ان الدين هو وعى الذات ،والشعور بالذات لدى الانسان الذى لم يجد بعد ذاته ،او الذى فقدها " . "٢"

وليس الدين من وضع البشر جميعهم باتفاقهم عليه ،بل كان من وضع جماعة من الناس ،هم الذين تسلطوا على الفقراء الذى اقض الشقاء مضجعهم ،وسئموا حياتهم ،فراح مستغلوهم يغرونهم بالدين الذى منحوه لهم ،يعدونهم بيوم آخر لا تعب فيه ولا نصب ،بل سعادة ابدية ،ونعيم مقيم ،لمن صبر على ماهو فيه من البلاء ،وان الحياة الدنيا دار ابتلاء وامتحان ،جعلها الله كذلك كى يختبر صبرهم وايمانهم ،وذلك من اجل ان تصغر الدنيا باعينهم ،ويقل سلطانها فى حسابهم ،فيغرقون فى ظلم المستغلين ،وجشع المالكين ،راضين صابرين .

فالدين اذن لم يستغل الا فى سبيل تخدير الشعوب ،وتثبيطها عن بلوغ مقصدها الشرعى وحقها فى حياة حرة كريمة ،وذلك حتى يتيسر لمستغليه قيادته

---

١) فريدريك انجلس . لودفيج فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ص ٣٢

٢) ماركس وانجلس . حول الدين — مقال نقد فلسفة الحقوق عند هيجل . لماركس . ص ٣٣

وامتصاص خيراته •

يقول ماركس عن الدين " الدين زفرة الانسان المضطهد ••• الدين أفيون الشعوب " "١" •

أما انجلس فهو يفصل ذلك حين يرى ان الدين تخيل وهمي للقوى الخارجية في الطبيعة ، فيعبدها ، ويقدسها فيقول : ان كل دين ليس سوى الانعكاس الواهم في دماغ البشر ، للقوى الخارجية التي تسيطر على وجودهم الوهمي • هذا الانعكاس الذي تتخذ فيه القوى الأرضية ، شكل قوى فوق ارضية • في بدايات التاريخ كانت قوى الطبيعة هي الخاضعة لهذا الانعكاس الذي يتحول لدى مختلف الشعوب الى التشخيصات الاكثر اختلاقا وتنوعا " • "٢"

وطالما ان الدين وهم وخرافة فهو اذن ضد العلم والتقدم في شتى الميادين وليس لديه القدرة على ان يواكب التطور ، والنمو الذي هو سمة كل شيء في الحياة •

يقول ماركس : " كيف نوفق بين البحث العلمي والدين الا بارغام البحث العلمي ان يذوب في الدين تاركا اياه يواصل مسيرته الخاصة • ان اي ارغام آخر لا يستطيع في اي حال من الأحوال ان يكون برهانا " "٣"

وعلى ذلك فالدين في نظر اصحاب المادية الجدلية لا يصلح اساسا لقيام الدول او قيادة الشعوب •

يقول ماركس ايضا : " عليك ان تسلم بأن الدول لا ينبغي ان تبنى انطلاقا من الدين ، بل انطلاقا من السمة العقلانية للحرية " "٤"

واذا اريد قيام حضارة انسانية على اسس علمية مدروسه بعد زوال عالم الخرافة والاوهام ، فينبغي ان ينطلق من مفهوم الانسان الصحيح ، وأساسه الطبيعي ، على

---

١) ماركس وانجلس — نفس المصدر ، ونفس المقال ص ٣٤
٢) ماركس وانجلس — نفس المصدر • مقال ضد دوهرنغ لانجلس ص ١١٢ •
٣) ماركس وانجلس • نفس المصدر • افتتاحية العدد ١٧٩ من صحيفة كولونيا لكارل ماركس ص ٢٠ •
٤) ماركس وانجلس • نفس المصدر ونفس الافتتاحية ص ٣١ •

انه انسان من الأرض ، ويخطط له من الأرض ايضا ، " ان مهمة التاريخ اذن بعد زوال عالم ما وراء الحقيقة ــ الدين ــ هو ان يقيم حقيقة هذا العالم ، وتلك هي بالدرجة الاولى مهمة الفلسفة " . "١"

قلنا في بداية حديثنا ان الماركسية حين انكرت على الكنيسة صنيعها وما ذهبت اليه ، وحملها عليها بهذه القسوة والعنف ، كان لها بعض العذر في ذلك . ولكننا اذ نقول هذا ليس شماتة منا بما لحق بالكنيسة من هزائم متوالية ليس امام الماركسية فقط ، بل امام جميع المذاهب ، والفلسفات التي قامت ضد الدين في اوربا .

ذلك ان السلطة في اوربا بعد ان انتقلت من يد الدولة ، الى يد الاقطاع واصحاب الاموال ، لم تجد الكنيسة بدا من الانضمام الى السلطة الحقيقية ، فانضمت الى معسكر الاقطاع والظالمين فجعلت من الدين مخدرا للشعوب .

واننا لا نحب ان نظلم رجال الدين في اوربا جميعهم ، فان منهم من كان مخلصا فيما يدعو اليه على مقتضى فهمه لعقيدته المسيحية ، كما رسمتها الكنيسة ، وهي فيما تدعو اليه احتقار للحياة المادية ، وتطلع الى الحياة الروحية ، وتطهير النفوس وتزكيتها .

" وعلى أية حال ، لقد وجدت الطبقات الكادحة ، التي تريد ان تصارع ان الدين لا يغذي رغبتها في الصراع ، وان الكنيسة تتخذ منه مخدرا للكادحين ، فاعلنت ثورتها الكاملة على الدين ، وقالت عنه انه مخدر الملايين ، وسواء كان دعاة المذهب المادي مخلصين في موقفهم من الكنيسة ، أم غير مخلصين ، فالحق ان الكنيسة كانت تقف في غير صف الكادحين . "٢"

ويمكننا ان نضيف الى ذلك ايضا تحريفها لعقيدة التوحيد ، وابدالها بعقيدة التثليث التي لم تجد لدى العقلاء استساغة او قبولا ، ثم صكوك الغفران ، وما جنت من مهازل على الكنيسة ، ثم الخضوع المذل لرجال الدين والعمل الاجباري في ارض الكنيسة الاقطاعية ، الى غير ذلك من الأسباب التي فتحت الباب امام الناقدين

---

(١) ماركس وانجلس نفس المصدر . مقال نقد فلسفة الحقوق عند هيجل لكارل ماركس / ص٣٢

(٢) سيد قطب . العدالة الاجتماعية في الاسلام ص٨

لينفذوا الى داخلها وينقضوا بناءها ٠

ولم يقتصر هجوم الماديين على دين دون دين٠ بل كان هدفهم الأديان كلها ،حين سووا في خصومتهم بين الأديان جميعها ،الأرضية منها والسماوية٠ بل لم يفرقوا بين الأديان السماوية ،صحيحها ،ومحرفها ،وذلك بغية ان يصلوا الى اهدافهم ،ومقاصدهم بأقرب الطرق وايسرها ،ألا وهو نزع العقيدة الدينية تماما من الكيان الانساني ،ليكون الانسان اداة عمل ارضية لا علاقة له بالسماء٠

ولا يهمنا ان اصابت المادية الجدلية في نقدها للاديان المحرفة — السابقة الذكر — او لم تصب ،اذ لا نريد ان ندافع عن واقع دين بشرى محرف من جميع جوانبه ،ولكن الدين السماوى الصحيح هو الدين الذى يجب ان يكون محور بحثنا على انه منهج ربانى انزله الله على احد من رسله ،ليكون هاديا للناس ومرشدا! ودين الله واحد الى جميع رسله ٠ انه الاسلام بمعناه العام الشامل " ان الدين عند الله الاسلام "٠ "١"

ونحن حين نقف الى جانب الاسلام كدين سماوى صحيح ،ليس وقوفنا بجانبه لمجرد الدفاع لأنه دفاع ،بل لأنه الدين السماوى الصحيح الذى حافظ على نقائه وأصالته ،وصحة سماعه الى يومنا هذا ٠

لذلك فقد كان هذا الدين نهاية الحق الذى لا يمكن للنقد أن يجد اليه سبيلا ،فهو يوافق جميع مراحل الفكر البشرى ،وسبل تطوره ، وبالتالى فهو لايخالف الحقائق العلمية الصحيحة ،فالعلم ليس قسيما للدين ،بل مكمله ومتممه٠

قلت : اننى لست فى معرض الدفاع عن الدين السماوى الصحيح ،فهو اكبر من نقد الناقدين ،ومدافعة المدافعين ،بل اننى فى موقف الشارح الموضح لحقائق ضرورية لابد للمتأمل من فهمها ،والالمام بها اكمالا للفائدة ، وتوضيحا للمقام ،وهو موضوع الفصل التالى ٠

---

١) سورة آل عمران ١٩

الفصـــل الثانـــى

الديـــن فـى حيـاة الانسـان

هناك اسئلة هامة وخطيرة تتشوق النفس الى معرفة جوابها ، من هذه الأسئلـة :

- متى ظهرت فكرة التدين الانسانى على وجه الأرض ؟
- ما هى ابعادها فى حياة الانسان ؟
- ما مصيرها امام التقدم العلمى ، والتطورات الفكرية المختلفة ؟

تلك اسئلة اثارها المفكرون والفلاسفة ، واجابوا عليها باجابات مختلفـة متباينة ، وقد كان تباين هذه الاجابات واختلافها نتيجة طبيعية لفقدان المنهج المستقيم الذى انزله الخالق جل شأنه ، لهداية الناس الى الحق والرشاد .

ونبدأ بـالاستفسار الأول عن اقدمية التدين الانسانى :

الديـــن والفطـــرة :

يقول العلامة دراز : " على انه لم ينقض القرن الثامن عشر نفسه حتى ظهر خطأ هذه المزاعم — الالحاد والشك — حيث كثرت الرحلات الى خارج اوربـــا واكتشفت العوائد والعقائد والأساطير المختلفة ، وتبين من مقارنتها ان فكـرة التدين فكرة مشاعة لم تخل عنها أمة من الامم فى القديم والحديث ، رغم تفاوتهم فى مدارج الرقى ، ودركات الهمجية . وهكذا ظهر انها اقدم فى المجتمعـات من كل حضارة مادية ، وانها لم تقم على خداع الرؤساء ، وتضليل الدهاة ، ولـم ترتكز على اسباب طارئة ، أو ظروف خاصة ، بل كانت تعبر عن نزعة اصيلة مشترك بين الناس " "١"

---

١) محمد عبدالله دراز . الدين ص ٨٣ .

وان كون الاديان فطرية ومتأصلة فى جميع الجنس البشرى ، لا يمنع من وجود ديانات صنعها الانسان لنفسه ، واستخدمها لحفظ نظام الجماعة ، وضبط تصرفها ـ كالديانات الوضعية ـ ولا يمنع كذلك من وجود ملحدين كثر ذلك العدد أو قل ، اذ أن كل امة لا تخلو من متكاسلين ذاهلين ، قد شغلوا بتكاليف الحياة ، واعبائها الى درجة ان احدهم لا يجد لديه من فراغ الوقت وهدوء البال ما يجعله يرفع رأسه الى السماء ليرى تلك الحقائق العليا الواضحة • كذلك لا تخل الأمة من اناس ساخرين يحسبون الحياة لهوا ولعبا ، ويعتبرون الدين وهما وخرافة •

ان هذا الاستثناء لا يبطل وجود هذه الغريزة فى طبيعة الانسان بصفة دائمة ، اذ اننا نعلم ان غريزة حب بقاء النوع فطرة فى الانسان ، واصل فى طبيعته لكن ذلك لا يمنع من وجود اناس لا يتزوجون ، ولا يطلبون النسل •

ان عقيدة التوحيد فطرة فى الانسان ، تولد معه ، " فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون " • " ١ " وعهد اخذ على بنى آدم منذ وجودهم " واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا " " ٢ " • لكن هناك عقائد غريبة استحدثت بين الناس عبر تاريخهم ، وشابت عقيدة التوحيد بكثير من الوان الشرك والخرافة ، وهذا واقع ليس بالامكان انكاره •

ففكرة التدين من حيث هى غريزة واصيلة فى طبيعة الانسان ، وليس هناك من دليل واحد يثبت انها تأخرت عن ظهور الانسان على هذه الأرض •

يقول معجم لاروس الفرنسى للقرن العشرين : " ان الغريزة الدينية مشتركة بين جميع الاجناس البشرية ، حتى اشدها همجية ، واقربها الى الحياة الحيوانية •• وان الاهتمام بالمعنى الالهى ، وما فوق الطبيعة هو احدى النزعات العالمية الخالدة للانسانية •••

---

١) سورة الروم ٣٠
٢) سورة الاعراف ١٧٢

ويقول بعد ذلك : ان هذه الغريزة لا تختفى ،بل ولا تضعف ،وتذبل الا فى فترات الاسراف فى الحضارة ،وعند عدد قليل من الناس " . "١"

وكتب بارتيلمى سانت هيلر : " وهذا اللغز العظيم الذى يستحث عقولنا ، ما العالم ؟ . ما الانسان ؟ ،من اين جئنا ؟ من صنعهما ؟ ،من يد برهما ؟ ؟ ما هدفهما ؟ ،كيف بدأ ؟كيف ينتهيان ؟ ،ما الحياة ؟ ماالموت ؟ ما القانـــون الذى يجب ان يقود عقولنا فى اثناء عبورنا فى هذه الدنيا ؟ اى مستقبل ينتظرنـا بعد هذه الحياة ؟ هل يوجد شئ بعد هذه الحياة ؟ ماعلاقتنا بهذا الخلود ؟ هذه الاسئلة لا توجد امة ،ولا شعب ،ولا مجتمع ،الا وضع لها حلولا جيدة أو رديئة مقبولة ،او سخيفة ،ثابتة أو متحولة " "٢"

ويقول شاساوان : مهما يكن تقدمنا العجيب فى العصر الحاضر علميا ،وصناعيا واقتصاديا ، واجتماعيا ، ومهما يكن اندفاعنا فى هذه الحركة العظيمة ،للحياة العملية والتنافس فى سبيل معيشتنا ،ومعيشة ذوينا ،فان عقلنا فى اوقات السكون ،والهدوء ـ عظاما كنا او متواضعين ،خيارا كنا او اشرارا ـ يعود الى التأمل فى هذه المسائل الازلية ،لم اوكيف ،كان وجودنا ،ووجود هذا العالم ؟ ،والى التفكير فى العلل الأولى ،او الثانية ،وفى حقوقنا وواجباتنا " . "٣"

ويقول هنرى برجسون "٤" ، لقد وجدت وتوجد جماعات انسانية من غير علوم ، ولا فنون ،ولا فلسفات ،ولكنه لم توجد جماعة من غير ديانه" "٥"

---

١) محمد عبدالله دراز المرجع السابق ص ٨٤

٢) " " " نفس المصدر ٨٤

٣) " " " " " ص ٨٥

٤) هنرى برجسون : ١٨٥٩ ـ ١٩٤١ ـ فيلسوف فرنسى أصبح سنة ١٩٠٠ بالكوليج دى فرانس ،وظفر سنة ١٩٢٧ بجائزة نوبل فى الأدب . ومن مؤلفاته " الزمن والارادة الحرة" ، " المادة والذاكرة " ، " الضحك " ، " التطور الخلاق " وبعضها ترجم الى العربية راجع الموسوعة العربية الميسرة ج ١ ص ٣٤٥ .

٥) محمد عبدالله دراز نفس المصدر ونفس الصفحة .

فالدين أذن فى صميم الفطرة البشرية ، وإنها تحس بقوة مدبرة وراء هذا العالم بنحو من الانحاء . وقد لا تهتدى الفطرة الى هذا الخالق العظيم مرة واحدة ، بل قد تضل طريقها ، فيمتزج تصورها الدينى بكثير من الخرافات والأساطير ، فتتصور الحقيقة تصورا منحرفا ، وقد تلحد فيه ، ولكن مع ذلك يبقى فى احساسها تصور لهذا الخالق سبحانه ، وراء هذا الكون الفسيح ، وذلك لوقع التأثيرات الشديدة على الحس البشرى ، من هذا الكون حيث توقظ فيه دافع التساؤل عن منشئه وخالقه ، والتى يمكننا ان نسميها منبهات الفطرة .

بعض منبهات الفطرة البشرية :

ان هناك ايقاعات ، وتأثيرات تقع على الحس البشري من هذا الكون ،توقظ الفطرة ،وتدفعها نحو السوءال عن سر هذا الكون ،العظيم في جملته ،الدقيق في تركيبه وتنظيمه ، فتوءمن بخالقه ومدبره ،ومن هذه الايقاعات :

أ — ظاهرة العجز البشري :

ب — الكون بضخامته ودقته •

أ — ظاهرة العجز البشري :

ان العجز يرافق الانسان من حين ولادته الى حين موته ،فان الطفل يولد عاجزا عن كل شيء ،حتى عن تناول طعامه ،فانه يحتاج فيه الى من يقدمه له في الليل والنهار ، انه لايستطيع الحياة من غير مساعدة دائمة ممن حوله ،يقدمون له كل شيء يحتاجه من عناية حتى يكبر •

فاذا كبر قليلا ،كبر معه مستوى العجز ،وكثرت جوانبه ،فهو الآن لم يعد عاجزا عن تناول الطعام ،فقد اصبح يتناوله بنفسه ،ودون معين خارجي ،ولم يعد عاجزا عن امساك ماحوله او تحريكه من لعب وادوات ،بل اصبح يفعل ذلك لنفسه حسب ما يحب ويختار •

ولكنه في هذه الفترة من حياته قد داخله العجز من جهات أخرى ،فهو يحب ان ينمو بالطريقة التي يريدها ،ليصبح جسمه على نحو معين من الضخامة والجمال ، وحسن المظهر ،ولكنه يجد نفسه عاجزا عن ذلك كله ،انه يحب ان يطير في الهواء كما شاهد العصفور يفعل ،ويحب ان يمسك بالقمر ، ويحب ان تكون له قوة وعزيمة يصارع بها من هم فوق اقرانه ممن يسيئون اليه ، ويريد ويريد ، ويريد ويحب ان يفعل الشيء الكثير ،ولكنه يجد نفسه دون ذلك قدرة واستطاعة •وبعد ذلك يكبر ،ويظل العجز يرافقه ،ولكنه في هذه المرة اكبر عجزا عن تحقيق ما يريد فهو يريد ان يعرف كل شيء ،وان يحقق كل شيء ، وان يسيطر على كل شيء ، حقا لقد استطاع ان يحقق الشيء الكثير ، ولكن ذلك لا ينفي شعور العجز عنه ، اذ ان الذي حققه لا يقاس بما لم يتسنى له تحقيقه ،ذلك ان آماله اكبر بملايين

المرات مما حققه وانجزه •

وثمة رغبتان لم يسع الانسان لحظة واحدة دون التفكير فيهما ،والسعي لبلوغهما ولم يجد الى ذلك سبيلا • انهما رغبتا الغيب والخلود ،الرغبة في معرفة الغيب الذى لم يحصل بعد ،والرغبة في الخلود الابدى ،والسعادة الدائمة•

ومما لا مراء فيه ،ان الانسان قدحقق بالعلم الشيء الكثير ،من اختراعات وصناعات ، لقد ركب الفضاء ، وصنع الصاروخ ، وصنع ، وصنع •• ولكن هل استطاع ان يمسك بنفسه عن الموت الذى ينتظره في كل حين وهو لا يدرى • بل هل استطاع الانسان ان يعلم الغيب ،ليس الغيب البعيد ،بل الغيب القريب ،بل اللحظة الداخلة عليه من كل باب،هل علم ما سيحصل له بعد ساعات ،ام بعد دقائق ، ام بعد ثوان • لقد عجز عن ذلك كله ، وجهل ذلك كله •

وان هذا العجز يبدو واضحا حين تنفد الأسباب لدى الانسان ،فلا يجد من حيلة الا ان يقف مسلما مذعنا لمسبب الأسباب الذى يملك كل شيء ويقدر على كل شيء•

وكم وجدنا في العصر الحديث من رئيس او زعيم عظيم ،في دولة متقدمة ومتحضرة ،يفاجأ بمرض عضال يعجز الطب فيها عن علاجه ،هنالك يجد الانسان نفسه صاغرا هزيلا بأسبابه التى بين يديه ،وفي حوزته • فمن كان ذا فطرة حية تراه يقف مسلما بالقوى الأعظم ، والفاعل الحقيقي ،الذى بيده كل شيء•

ولقد ضرب القرآن الكريم لذلك مشهدا حيا ،يعرضه وكأنه واقع تشهده العيون وتتابعه المشاعر ،وتخفق منه القلوب ،والافئدة ،يقول سبحانه في سورة يونس "١" " هو الذى يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بريح طيبة " واذ هم في هذا النعيم الآمن ،والمشاعر الساحرة ،والسرور الشامل ، تأخذهم المفاجأة على حين غره " وجاءتها ريح عاصف ،وجاءهم الموج من كل مكان " وترنحت الفلك واضطربت بمن فيها ،ولاطمها الموج رافعا وخافضا ،كريشة في مهب رياح عاصفة ،فسقط في ايديهم ،وظنوا ان لا مناص من الهلاك المحتم " وظنوا انهم احيط بهم " ولا مجال للنجاة حيث تفلتت الأسباب من ايديهم ،وأمعنوا في

---

(١) سورة يونس آية ٢٢ ،ويراجع في ذلك تفسير ظلال القرآن لسيد قطب ج ١١ ص٦٧ طبعة اولى احياء الكتب العربية

الهلاك القريب ،الذى يرونه بأم ابصارهم . وعندئذ فقط،وفى وسط هذا الهول المتلاطم تنسلخ فطرتهم مما الم بها من الويل ،وتنفض قلوبهم ما ران عليها من اوهام وتصورات ،وتنبض الفطرة السليمة بالتوحيد ،الخالص " دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين " .

ولكن الغريب فى ذلك ،انه عندما تهدأ العاصفة ،ويطمئن الموج ،وتهدأ النفوس اللاهثة ،وتسكن القلوب الفزعة الطائرة ،وتصل الفلك بامان الى الشاطئ ويستنشق الناس رائحة الحياة التى كادوا يفقدونها لتوهم ،ثم تستقر اقدامهم على اليابسة ،فماذا يحدث عندئذ ؟!!

يقول الحق سبحانه " فلما انجاهم اذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق " هكذا فجأة ومبافته ،رغم كل شئ .

انه مشهد كامل من جميع جوانبه ،مشهد حادث وملحوظ دائما ،ولكنه مشهد نفس ،ومشهد طبيعة انسانية صرفة ،ونموذج بشرى واقعى لطائفة كبيرة من الناس فى كل جيل ،وفى كل عصر .

انما الالتجاء الى الخالق جل شأنه فى الظروف التى لا تجد الفطرة مناصا من اللجوء اليه ،وهذا أمر عادى بالنسبة الى الانسان المخلوق الذى تحده الأسباب من جميع جهاته ،فاذا نفدت أسبابه العادية التى بين يديه لم يجد بدا من التوجه الى السبب الأعظم ، والمنقذ الأكبر الذى يلوذ به ويحتمى بجنابه . ولكن المشركين والملحدين الذين ران على فطرهم ،لا يعرفون الا العناد والمكابرة . ولذلك يقول الحق سبحانه " قتل الانسان ما اكفره . من اى شئ خلقه ،من نطفة خلقه فقدره ،ثم السبيل يسره ،ثم اماته فأقبره ،ثم اذا شاء أنشره " " ١ " .

---

١) سورة عبس من آية ١٧ — ٢٢ .

ب ـ الكون بضخامته ودقته :

ان الأرض التى نعيش عليها ،هى واحدة من بين الكواكب الأحد عشر ، وهى ما تسمى بالمجموعة الشمسية ،والتى هى جزء من المجرة ،وفى الكون ملايين المجرات •

ومما يثير الروعة فى الانسان ايضا ،ويبعث فيه الدهشة ،هو ما يراه علـى هذه الأرض من جبال عالية ،وانهار جارية ،وسهول واسعة ،واودية عميقة ، وفى سمائها من شمس ،وقمر ونجوم ، واجرام سماوية أخرى •

يقول أ • كريسى موريسون "١" فى كتابه " العلم يدعو الى الايمان" :
" ولو ان حجم الكرة الأرضية كان اكبر مما هو ،أو اصغـر ،او لو ان سرعتها كانت مختلفة عما هى عليه ،لكانت ابعد او اقرب من الشمس مما هى عليه ،ولكانت هـذه الحالة ذات اثر هائل فى الحياة ،من كل نوع ،بما فيها حياة الانسان ،ولما امكن وجود الحياة فوقها " • "٢"

ان الأرض من بين الكواكب التى تسبح فى هذا الفضاء تدور حول نفسها ، وحول الشمس ،وان السعة التى عرفها العلم عن السماء لم تخطر على بال انسان من قبل اذ " ان اقرب نجم الى الأرض يبعد عنها اربع سنوات ضوئية تقريبـــا ، ومعنى ذلك انه يبعد عنا (٢٣) مليون مليون ميل تقريبا •

" ان الضوء يقطع فى الثانية (١٨٦) الف ميل (٣٠٠ الف كيلو متـر) اى انه يقطع فى الدقيقة (١١ مليون و ١٦٠ الف ميل) ،وفى السنة الواحدة من سنينا يقطع (ستة ملايين مليون ميل ،أو ستة آلاف مليار ميل تقريبا) ، وهذه المسافة هى التى اصطلحوا على تسميتها (السنة الضوئية) ،ليعبروا بها عن ابعاد السماء الهائلة •

---

١) موريسون ،أ • كريسى • هو الرئيس الأسبق لاكاديمية العلوم بنيويورك ، ورئيس المعهد الامريكى لمدينة نيويورك •

٢) أ • كريسى موريسون • العلم يدعو الى الايمان ترجمة محمد صالح فلكى ، تصدير احمد حسن الباقورى ،تقديم ،احمد زكى الطبعة السادسة ص ٥٣ القاهره نيويورك ،مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ١٩٧١ م

" فالقمر ،وهو اقرب الاجرام السماوية الى الأرض يصل نوره الينا فى اقل من ثانيتين ،لأن بعده عن الأرض (٢٤٠) الف ميل تقريبا .

أما الشمس ،فيصل نورها الينا فى نحو (٨) دقائق لأن بعدها عن الأرض (٩٣) مليون ميل تقريبا ... " "١"

ذلك هو بعض عالمنا الكبير الذى قال عنه الحق سبحانه : " أأنتم اشد خلقا ام السماء بناها ،رفع سمكها فسواها ،وأغطش ليلها ،واخرج ضحاها ،والارض بعد ذلك دحاها ،أخرج منها ماءها ومرعاها ،والجبال أرساها متاعا لكم ولانعامكم " "٢"

أما العالم الأصغر فهو عالم الخلايا والذرات الذى يتكون منها هذا العالم نجد فيها كمال الدقة ،وجلال الصانع ،يقول فرانك اللن "٣" عالم الطبيعة البيولوجية : " ان البروتينات من المركبات الأساسية فى جميع الخلايا الحية ، وهى تتكون من خمسة عناصر هى الكربون ،والايدروجين ،والنتروجين ،والاوكسجين والكبريت ،ويبلغ عدد الذرات فى الجزئ البروتينى الواحد (٤٠٠٠٠) ذره " . "٤"

---

١) نديم الجسر . قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ص ٣٠٤ — ٣٠٥ طبعة ثالثة بيروت المكتب الاسلامى لبنان ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م .

٢) سورة النازعات من ٢٧ الى ٣٣

٣) اللن ،فرانك . عالم الطبيعة البيلولوجية ،ماجستير ، ودكتوراه من جامعة كورنك — استاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتو بكندا من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩٤٤ ،اخصائى فى ابصار الالوان ،والبصريات الفسيولوجية وانتاج الهواء السائل ،حائز على وسام تورى الذهبى للجمعية الملكية بكندا .

٤) عن كتاب الله يتجلى فى عصر العلم تأليف نخبة من العلماء الامريكيين بمناسبة السنة الدولية لطبيعيات الأرض ،اشرف على تحريره جون كلوفر مونسما ،ترجمة الدمرداش عبد المجيد سرحان ،راجعه وعلق عليه محمد جمال الفندى الطبعة الثالثة ص ١٢ — القاهره نيويورك ،دار احياء الكتب العربية ١٩٦١ .

أما الذرة فهي مؤلفة من جزئيات كهربائية ، سالبة وموجبة ، والموجبة يطلق عليها اسم البروتون ، والسالبة يطلق عليها اسم الالكترون ، وبعض الذرات فيها زيادة على ذلك شحنة معتدلة تسمى نيترون ، والبروتون والنيترون يشكلان نواة الذرة ، بينما الالكترون يشكل كواكبها السيارة ، التي تدور حولها بسرعة هائلة ، وحركة اهليليجية .

ان الجمال والعظمة والابداع ملازم لكل شيء في الكون ، فان قوس قزح في ألوانه ، والسماء بزرقتها ، والنجوم المتناثرة المنتظمة بمواقعها الهندسية والقمر ساعة بزوغه ، وساعة يكون بدرا أو هلالا ، في ليلة صافية هادئة ، والشمس في شروقها وغروبها ، والفجر والأصيل . كل ذلك وغيره ايضا ابداع عظيم ، وخلق رفيع ، وجمال باهر .

" وأيا كان مستوى الانسان من العلم ، والثقافة ، والمدنية ، والرقي ، فالكون يوقع على حسه توقيعات شتى تناسب مداركه ومعلوماته ، وفي كل حالة يروعه ويهزه من الأعماق .. يروعه فيبحث عن الخالق ، هكذا بالفطرة ... انه يدرك من تجاربه ، او يدرك بالبديهة ان كل شيء له صانع ، ومن ثم يبحث عن صانع الكون الأعظم ، الرائع الفسيح . وقد يهتدي في بحثه او يضل ... قد يهتدي الى ان الله هو الصانع ، وقد يضل فيعبد الكون ذاته ، بدلا من ان يعبد الله ، ولكنه في كلتا حالتيه ، يؤخذ بروعة الكون ، لأن في فطرته ، ان يؤخذ بالجمال ، والروعة والجلال ، وفي كلتا حالتيه تكون هذه الروعة عنصرا من عناصر الدين " "١"

(١) محمد قطب دراسات في النفس الانسانية ص ٢٢٠ — ٢٢١

الدين فى حياة الفرد والجماعة :

العقيدة الصحيحة :

قلنا فى الفصل الماضى ان التدين فطرة فى الانسان ، وذكرنا من الدلائل والشواهد ما يؤكد هذه الحقيقة ، ولكن المهم ليس ان يتدين الانسان ، وان يعطى قلبه لأى نحلة عرضت له ، أو ورثها عن آبائه ، انما الجدير بالاعتبار ان يهتدى الانسان الى الايمان الحق ، والدين الصحيح ، ان العقيدة الصحيحة لها دور هام وخطير فى حياة الفرد ، وحياة المجتمع الذى يعيش فيه ايضا . اذ هى السبيل الوحيد لايجاد الاستقرار ، والطمأنينة ، والحب ، والاخوة الخالصة بين افراد النوع البشرى ، وبدونها يصبح الانسان طاقة كبرى ، لكنها معطلة ، بل مدمرة مخربة ، تدرك اثرها تلك الشعوب التى انحرفت عن منهج الله ، واستقت عقائدها ، ونظمها من مناهج ارضية بشرية .

ان العقيدة الصالحة هى الكفيلة بامساك زمام الطاقة البشرية من التبدد والضياع ، ومن الانفلات ، والاضرار ، فهى الحصن الحصين لتلك الطاقات الهائلة ترشدها اذا ضلت ، وتهديها اذا حارت ، اذ " لو افلت نظام الذرة وهى البنية التى يقوم عليها الكون ، لو تفتت نواة الذرة التى تمسك حولها الكهارب المنطلقة فى نشاط دائم كيف يحدث ؟ ، هل يحدث الا الفوضى المدمرة ، والضلال الرهيب ؟ ذلك ما حدث لهذا الجيل من البشرية ، تفتت نواته ، وانطلقت كهاربه المجنونة تصطدم وتتحطم ، وتدمر كل ما تصادفه فى الطرق ....

وهل يمكن ان تكون النواة فى الكيان البشرى غير العقيدة ؟ ... وكذلك الانسان بلا عقيدة ، كتلة هائمة من النشاط المجنون ، نشاط مدمر ، لانه فقد المركز الذى يدور حوله ، وفقد كذلك الرباط الوثيق بين اجزائه ، أو (هو) ميوعة وانحلال ، وتفكك ورخاوة ، وتفاهة سالبة ، كالكهرب السالب ، بلا نواة تشده اليها وتحركه الى هدف معلوم ، وهذا وذاك هو الواقع الذى يعيش فيه البشر فى القرن العشرين . " "١"

---

١) محمد قطب . فى النفس والمجتمع ص ١٠ — ١١ .

الديـن فـي حيـاة الفـرد :

ان الانسان مقود في كل احواله بفكرة وعقيدة صحيحة أو فاسدة ،وهي التي تتحكم في تصرفاته ،وتوجهها الوجهة التي تريدها ، غير انه عندما تصلح العقيدة يصلح كل شيء في الفرد ،تصلح جميع جوانبه ،وسائر طاقاته ، ووجداناته ،ومشاعره ،فلا يصدر عنه الا الأعمال الخيرة ،والتي يرعى فيها حق غيره عليه ،قبل ان يرعى حقه على غيره •

وهي عندما تفسد ،يفسد كل شيء فيه ،فصلاح الدين والعقيدة في الانسان ،قوة باطنة يقاد بها من باطنه لا من ظاهره •

وانه لمن المراء المحض ان نناقش الجدليين الماديين في قولتهم ، ان الدين قد خدر الشعوب ،وروضها على قبول الفقر والظلم ،والهاها بالآخرة عن الدنيا ليستأثر به سادة المجتمع ،ويغتصبوا منه علانية ،أو يسرقوا منه خلسة ، ما طاب لهم ان يغتصبوه او يسرقوه • اذ اننا قلنا مرارا ان المسيحية الحاضرة ، واليهودية المعاصرة لا تمثل الدين السماوي المنزل على عيسى وموسى عليهما السلام بل ان الدين السماوي الصحيح ،هو واحد ومشترك بين جميع الأنبياء والرسل ، في أصل العقيدة ووحدة الهدف • ان دين الله واحد في اصله وغايته ، فلنأخذ الاسلام كدين سماوي صحيح ،وهدف من اهداف الماديين ،اذ جعلوه في مرتبة الديانتين اليهودية والمسيحية المحرفتين اللتين ،يكاد لم يعد لهما أية صلة بوحي السماء ،وان اتفق معهما في اصولهما الصحيحة المنزلة ، وغايتهما المنشودة ، لنرى الى اى حد تصدق دعواهم المزعومة على هذا الدين •

ان الباحث في تعاليم هذا الدين يجد ان الاسلام يأبى للمسلم ان ينسى نصيبه من الدنيا ،ويأمره ان يأخذ نصيبه من طيباتها — وان لم تكن غاية في ذاتها — وقد جاء ذلك في آيات كثيرة في كتاب الله الكريم كمثل قوله تعالى : " وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا " "١" " يا ايها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله " "٢" • " يا ايها الناس كلوا مما في الأرض حلالا

١) سورة القصص آية ٧٧   ٢) سورة المائدة آية ٨٧

طيبـــــا " . "١" " يا ايها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ماكسبتم ، ومما اخرجنا لكم من الأرض " "٢" .

اذ ليس من الاسلام ان يتجرد المسلم من زينة الدنيا ، ويقبل على الآخـرة ، بل هو مأمور ان يأخذ زينته حتى بين يدى الله عز وجل فى عبادته " يا بنـى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ان الله لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق " "٣"

واظن انه لم يخطر على بال عدو من أعداء الاسلام ، أن يصفه بأنه يحســـن الجبن والخنوع والمذلة لاتباعه ، ويطرق اسماعهم كل يوم قوله سبحانه " ان اللـــه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن " "٤" . " وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين " "٥" .

ويسمعون قوله صلى الله عليه وسلم " من مات ولم يغز ، ولم يحدث به نفســه مات على شعبة من النفاق " "٦" . وقولــه أيضا : " الروحة والغدوة فى سبيـــل الله افضل من الدنيا ومافيها " "٧" .

بل ان اعداء الاسلام لم يجدوا من حيلة لاتهام الاسلام ، الا ان يصفـــوه بأنه دين السيف ، أو دين القتال ، ولا مبالغة عند قائلها ، الا ان يقصد بقوله هذا ان الاسلام يعرف السيف ولا يعرف غيره ، أو انه يضع السيف فى غير موضعه .

---

١) سورة البقرة آية ١٦٨
٢) سورة البقرة آيه ٢٦٧
٣) سورة الاعراف آية ٣١ — ٣٢
٤) سورة التوبة آية ١١١
٥) سورة البقرة آية ١٩٠
٦) الحديث عن ابى هريرة رضى الله تعالى عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق " رواه الامام مسلم فى صحيحه فى باب الامارة .
٧) والحديث : عن سهل بن سعد رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : الروحة والغدوة فى سبيل الله افضل من الدنيا ومافيها " ويريد الجهاد فى سبيل الله ، رواه البخارى فى صحيحه فى باب الجهاد .

ولكن السيف في الاسلام لم يكن بهذا المعنى بحال من الاحوال ، فقد كان الاسلام مبتلى بسيوف اعدائه قبل ان يكون له سيف يزود به عن نفسه . ولم يأمر الاسلام قط بتجريد السيف عدوانا على احد ، ولم يشرع السيف الا لمقاتلة الذين يقفون امام الدعوة بالسيف ، وهو ماحصل في القتال بين الاسلام ، وبيزنطه والروم ، اذ لم يقاتلوهم خلافا حول حجة أو اقناع ، بل انهم لم يعلنوا القتال الا بعد ان ابرؤا ذمتهم ، بانذار المتحكمين بتلك الشعوب ، فلما أعرضوا ، وتوعدوا ، وحالوا بين وصول الدعوة الجديدة الى شعوبهم ، عندئذ جرد السيف ، اذ لا محيص من تجريده ، ولا يعتبر ذلك عدوانا وغدرا ، بل احقاقا للحق ونشرا للفضيلة ، والعدل ، واخراجا للناس من عبادة الأرباب المختلفة الى عبادة الله الذي هو احق بالعبادة والقصد .

وان اصحاب الأديان المبعوثين من لدن الله عز وجل ، كانوا ينشدون المساواة الحقة بين البشر ، " ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض " . " ١ "

أجل لقد كان اثر الدين في نفس المؤمن كشعلة وقادة ، تثير فيه روح الانتفاض ، والثورة ، كلما احس بالظلم ، والاعتداء ، اذ أنه دين كرامة وعز ، وإباء " ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين " " ٢ " ولذلك فهو يأبى المذلة والخنوع والرضى بالظلم والعدوان .

واما ان يستخدم الدين طائفة من المستغلين ، القابضين على مصادر الثروة ووسائل الانتاج ، بغية تسخير المجتمع لخدمة مصالحهم ، وأغراضهم الشخصية ، فهذا مما لايسع المعارض ، أن يجد في الاسلام او في تاريخه الحجة على ذلك .

بل ان الاسلام يقول للرجل المغصوب منه ماله ، او حقه ، او المنكوب في

---

١) سورة القصص آية ٥ ـ ٦
٢) سورة المنافقون ٨

عرضه : " من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد " . "١"
ان المسلم لا يستسلم ابدا ،اذ الدين قد وضع السلاح في يمينه ،والأمل في قلبه والاصرار في ارادته ، وكلفه الاستماتة دون حقه الشرعي .

" ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض ،قالوا :الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها " "٢".

ان الله سبحانه لم يبعث انبياءه كي يستريح باسمهم نفر قليل من البشر وانما بعثوا للناس كافة على شتى الوانهم ، ومستوياتهم ،" وما ارسلناك الا رحمة للعالمين" . "٣"

لقد كان في بداية الدعوة الاسلامية سادة الجزيرة العربية ،يربحون من الربا ومن احتكار التجارة ،وطرق الاستغلال المختلفة الشيء الكثير ،فجاء الشرع يحرم ذلك كله ويقول لهم : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقي من الربا ان كنتم مؤمنين" "٤" ،ويقول عليه الصلاة والسلام : لا يحتكر الا خاطىء" "٥"

---

١) والحديث ،عن عبدالله بن عمرو ،رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من أريد ماله بغير حق فقاتل ،فقتل فهو شهيد . واخرجه الترمذي والنسائي وقال الترمذي : حسن صحيح . واخرجه البخاري في صحيحه من حديث عكرمة مولى عبدالله بن عباس رضي الله عنهما عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما ولفظه : من قتل دون ماله فهو شهيد " . وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون اهله فهو شهيد ،او دون دمه ،او دون دينه فهو شهيد " واخرجه الترمذي وابن ماجه ،وقال الترمذي حديث حسن صحيح . راجع مختصر سنن ابي داود للحافظ المنذري.

٢) سورة النساء آية ٩٧

٣) سورة الانبياء ١٠٧

٤) سورة البقرة ٢٧٨

٥) والحديث ،عن معمر بن عبدالله بن فضلة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يحتكر الا خاطىء" . رواه مسلم في صحيحه في باب البيوع .
وروى ابن ماجه عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الجالب مرزوق ، والمحتكر ملعون" . وروى ايضا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من احتكر على المسلمين طعاما ضربه الله بالجذام والافلاس . رواهما ابن ماجه في باب التجارات .

لقد منع الاسلام الاحتكار بجميع انواعه ، ومنه الاحتيال بالمتاجرة بالأعيان سترا للربا الذى يحرمه ، وفى ذلك يقول عليه الصلاة والسلام : " الذهب بالذهب ربا ، الا هاء وهاء ، والبر بالبر ربا ، الا هاء وهاء ، والشعير بالشعير ، ربا الا هاء وهاء ، والتمر بالتمر ربا الا هاء وهاء " . " ١ " .

ولعل من انواع الاحتكار التى يحذر منها الاسلام ان يجتمع المال فى ايدى طبقة من الامة دون غيرهم ، قال سبحانه : كى لا يكون دولة بين الاغنياء منكم " " ٢ " ومن بين المحتكرين اولئك الذين يكنزون الذهب والفضة ، والقناطير المقنطرة حكرا على انفسهم ، دون ان يصل خيرها الى غيرهم من المحتاجين " " والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم " . " ٣ "

وفى خطبة لابى بكر الصديق رضى الله عنه حين ولى الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء فيها " .. وان اقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وان اضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق ... " " ٤ " .

---

١) الحديث رواه الامام البخارى فى صحيحه فى باب البيوع .

٢) سورة الحشر آية ٦

٣) سورة التوبة ٣٤

٤) والخطابة بكاملها من كتاب تاريخ الخلفاء للحافظ جلال الدين السيوطى "واخرج ابن سعد والخطيب فى رواية مالك عن عروة قال : لما ولى ابو بكر خطب الناس ، فحمد الله واثنى على الله ثم قال : أما بعد قد وليت أمركم ولست بخيركم ، ولكنه نزل القرآن ، وسن النبى عليه الصلاة والسلام السنن ، وعلمنا فعلمنا ، فاعلموا ايها الناس ان اكيس الكيس التقى ، واعجز العجز الفجور ، وان اقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وان اضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق ، ايها الناس انما انا متبع ولست بمبتدع ، فاذا احسنت فاعينونى ، وان انا زغت فقومونى ، اقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم " . ص ٤٨

وان المسيحية الصحيحة المنزلة من عند الله عز وجل هى كالاسلام فى اصولها ، فهى لا تجعل للاغنياء ميزة على غيرهم من الناس ، وقد ورد فى انجيل متى قوله : فقال يسوع لتلاميذه : الحق اقول لكم ، انه يعسر على الغنى دخول ملكوت السموات وايضا اقول لكم : انه لاسهل ان يدخل الجمل فى ثقب الابر من ان يدخل غنى ملكوت السموات " . "١"

وان الشريعة الاسلامية قد جاءت للناس كافة ، ولجميع مستوياتهم المادية والعرقية ، اذ لا فضل لغنى على فقير الا بالتقوى والعمل الصالح .

وعلى كل حال فان الغنى سبيل الى التسلط والظلم ، والكبرياء ، مالم يكن محفوفا بالايمان ، وصدق التوجه الى الله عز وجل ، قال سبحانه " ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى " . "٢"

وأيضا فان الحدود فى الاسلام جاءت عامة لا تفرق بين غنى وفقير ، وبين عظيم وصغير ، بل ان التفرقة فى الحدود اشد ما حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين . وجاء فى الحديث عن عائشة رضى الله عنها ان امرأة من بنى مخزوم سرقت ، فقالوا : من يكلم فيها النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يجترئ احد ان يكلمه ، فكلمه اسامة بن زيد ، فقال ان بنى اسرائيل كان اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق الضعيف قطعوه لو كانت فاطمة لقطعت يدها " "٣"

---

١) الكتاب المقدس ، انجيل متى الفصل التاسع عشر آية رقم ٢٣-٢٥ . طبعة جمعيات الكتاب المقدس بيروت ١٩٥١م .

٢) سورة العلق آية ٦ - ٧ .

٣) هذه رواية البخارى فى صحيحه باب فضائل الصحابة ، اما رواية مسلم فى صحيحه " عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، ان قريشا اهمهم شأن المرأة التى سرقت فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة الفتح ، فقالوا من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا ومن يجترئ عليه الا اسامة بن زيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه فيها اسامة بن زيد ، فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اتشفع فى حد من حدود الله ، فقال له اسامة : استغفر لى يارسول الله ، فلما كان العشى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختطب ، فاثنى على الله بما هو اهله ، ثم قال : اما بعد فانما اهلك الذين من قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحد ، وانى والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " رواه فى باب الحدود .

وهكذا يضع الاسلام الحجر الاساسى فى بناء قاعدة المساواة بين النـــاس وهى العدالة الاجتماعية التى لم يحدث ان ارتفعت الى مصاف هذا الافق الرفيع امة من الأمم على مر التاريخ ، غير امة الاسلام : " كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله " . " ١ "

---

١) سورة آل عمران آية ١١٠

الديـــن في حيـــاة المجتمـــع :

أ ـ الدين خير كفيل لاحترام القانون

ان الحياة الاجتماعية المنشودة ، لا قيام لها الا بالتعاون بين اعضائها ، وان هذا التعاون لابد لمن (قانون) ينظم علاقاته ، ويحددها على أسس ثابتة بينة يحدد فيه حقوق الفرد وواجباته ، وان هذا القانون لا بد له من سلطان او وازع يحفظ ذلك القانون ، ويرعى تطبيقه ، ويكفل مهابته في النفوس ، ويمنع انتهاك حرماته واجتياز حدوده .

والسؤال هنا عن ذلك السلطان الوازع ماهو ؟

يقول العلامة محمد عبدالله دراز " انه ليس على وجه الأرض قوة تكافيء قوة الديـــن أو تدانيها ، في كفالة واحترام القانون ، وضمان تماسك المجتمع ، واستقرار نظامـــه ، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه ، والسر في ذلك ان الانسان يمتاز عن سائـــر الكائنات الحية بأن حركاته ، وتصرفاته الاختيارية ، يتولى قيادتها شيء لا يقع عليـــه سمعه ، ولا بصره ، ولا يوضع في يده ، ولا في عنقه ، ولا يجري في دمه ، ولا يسري في عضلاته واعصابه ، وانما هو معنى انساني روحاني اسمه الفكرة والعقيدة .

ثم يقول بعد ذلك : أجل ان الانسان يساق من باطنه لا من ظاهره ، وليست القوانين والجماعات ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لاقامة مدينة فاضلة تحترم فيها الحقوق ، وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل ، فان الذي يؤدي واجبـــه رهبة من السوط ، او السجن ، او العقوبة المالية ، لا يلبث ان يهمله متى اطمأن الى انه سيفلت من طائلة القانون " . " ١ "

والقانون البشري كثيرا ما يعصى بالتحايل على نصوصه ، وقواعده مرجوحـــة ؛ ومن جهة أخرى ان الذي وضع القانون بشر عرضة للخطأ وأعاصير الهوى والشهوات

---

١) محمد عبدالله دراز الدين ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

التي هي من طبيعته ،اما القانون السماوى فيمتاز بامرين : أولا انه يخاطب ضمير المؤمن وقلبه . وثانيا : انه يضمن المصالح جميعها دون التفريط بشيء منها .

وهناك من يقول : ان القانون الاخلاقي الذى يحدد الخير والشر ،ويفصل بين فضائل الأعمال ورذائلها — وهو يحث الناس على ممارسة الأول واجتناب الثاني — كفيل بذلك كله ،ولكننا نقول : اى قانون اخلاقي اتفق الناس جميعهم على وضعه واستمرار صلاحيته ،على مر تاريخهم ..؟ نعم لقد اختلف الناس في تحديد الخير والشر ،والحسن والقبح ،والحق والواجب ،والفضيلة والرذيلة ،اختلافا يعود الى تعدد نظراتهم ،وتباعد مشاربهم.

ولذلك فلا يصلح القانون الاخلاقي لان يكون سلطانا رادعا عاما ،لأنه سلطان نسبي يختلف من شخص الى آخر ،ومن امة الى اخرى .

فالالحاد الذى يعتبر اساس الحضارة والتقدم في المجتمعات الشيوعية ، يعتبر جريمة نكراء في المجتمعات المتدينة ،ومن عدالة في بلد تعتبر ظلما في بلد آخر . بل ان الزنى تلك الجريمة البشعة التى تنكرها الاديان السماوية وتعاقب عليها ، يصبح في المجتمعات الشيوعية عملية بيلوجية صرفة ،وعلاقة بين رجل وامرأة لا صلة لها بدين او اخلاق او تقاليد .

ولذلك يقول العلامة دراز : غير ان الايمان على ضربين (ايمان) بقيمة الفضيلة ،وكرامة الانسانية ، وما الى ذلك من المعاني المجردة التى تستحي النفوس العالية من مخالفة دواعيها ،ولو اعفيت من التبعات الخارجية ،والاجزية المادية . و (ايمان) بذات علوية ،رقيبة على السرائر ،يستمد سلطانه الأدبي من امرها ونهيها ، وتلتهب المشاعر بالحياء منها ،او بمحبتها او بخشيتها . ولا ريب ان هذا الضرب هو اقوى الضربين سلطانا على النفس الانسانية ،وهو اشد مقاومة لأعاصير الهوى ، وتقلبات العواطف ، واسرعهما نفاذا في قلوب الخاصة والعامة"[1] .

---

(١) محمد عبدالله دراز ،نفس المصدر ص ١٠٢ .

ولذلك كله فقد كان التدين بدين سماوى صحيح خير ضمان لقيام التعاون الأمثل بين اعضاء الجماعة ،على أسس وقواعد راسخة من العدالة والانصاف • ولهذا كان الدين ضرورة اجتماعية فضلا عن كونه ضرورة فطرية •

ب ـ الرباط الروحى وتماسك المجتمع

لا يقف رابط الدين بين الناس على تهذيب السلوك ،وتحسين المعاملة ،أو تطبيق قواعد العدل ،ومحاربة الفوضى والفساد فى اوساط المجتمعات فحسب ؛ بل ان له من الآثار والوظائف الايجابية فى حياة الجماعة ،وتماسك بعضهم ببعض ما هو اعمق اثرا ،واكثر ايجابية ،انه الرباط الذى يوحد قلوب معتنقيه برباط المحبة والالفة ،ولا يساويه رباط آخر من جنس او لغة او تاريخ ، او مصالح مشتركة ، انها الاخوة الحقيقية بمعناها الكامل " انما المؤمنون اخوة" "١" • وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : مثل المؤمنين فى توادهم ،وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " "٢".

بل ان تلك الروابط المزعومة من ارض ولغة وجنس وتاريخ ومصالح مشتركة وغيرها مهما كان لها من الاثر فى حياة الأفراد ، فستظل روابط سطحية ، تضم افرادها برباط تتخلله الفجوات ،والثغرات ،والحواجز النفسيه ،والنزعات الاقليمية ،وتبقى مهلهلة باهتة حتى تشدها رابطة الاخوة فى العقيدة الصحيحة ،والمشاركة فى الايمان بالمثل العليا ،والاخلاق الكريمة ،عندئذ تصبح الكثرة وحدة ، والنفوس متقابلة شفافة تعكس صور بعضها بعضا •

---

١) سورة الحجرات آية ١٠

٢) هذا النص فى صحيح مسلم فى باب البر • وهناك رواية أخرى فى مسلم "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا " • وفى رواية البخارى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ثم شبك بين اصابعه" ذكره فى باب الأدب•

" بل كثيرا ما تستغنى هذه الوحدة الروحية عن سائر الوحدات الأخرى ، فتنعقد بها اقوى الوشائج وادومها بين افراد اختلفت اجناسهم ، وتباينت لهجاتهم وتباعدت ديارهم ، وتفاوتت مصالحهم . وكثيرا ما نرى الدول التى تقوم على المصالح المشتركة فى الوطن بين ملل مختلفة ، تضطر الى الاستجاد بما فى مبدأ هذه الديانات كلها من مبدأ التعاون على الخير ، والتناصر على دفع عدوان المغيرين ، ولذلك قيل بحق ، ان الوطنية التى لا تعتمد على باعث من الخلق والدين ، انما هى عصن متداع يوشك أن ينهار " . "١"

ان العلم سلاح ذو حدين ، فكما انه يصلح فى اسعاد البشرية وتقدمها ، فكذلك يصلح لتدميرها وشقائها ، والعقيدة الصحيحة ، او الدين الالهى الحق هو الذى يوجه العلم الوجهة الصالحة ، ويجعله وسيلة تعاون واسعاد للجماعة البشرية ، اذ فى غياب الدين عن مسرح القيادة والتوجيه ، اطلت الدوافع البهيمية برأسها لتعمل بوحى من الهوى والشيطان ، فاستخدمت العلم والتسابق العلمى سبيلا للتفنن فى صنع الاسلحة الفتاكة ، وما (سباق التسلح العالمى) بين الشرق والغرب ، الا دليلا صارخا على غياب الوازع الدينى الذى يهدف الى اشاعة الاخوة والحب ، والتفاهم بين البشر على اساس من التعاون والتعايش السلمى .

ان العلم من غير عقيدة صالحة توجهه ، ومثل عليا تصونه ، وايمان قوى يحفظه من الانحراف والغرور ، شأن طائرة ضخمة ، اوقطار متعدد العربات بدون سائق ماهر مدرب ، انها طاقات عظيمة ، ولكنها خطرة ومدمرة .

يقول روبرت ميلليكان العالم الطبيعى الامريكى : " ان اهم امر فى الحياة هو الايمان بحقيقة المعنويات ، وقيمة الاخلاق . ولقد كان زوال هذا الايمان سببا للحرب العامة ، واذا لم نجتهد الآن لاكتسابه ، أو لتقويته ، فلن يبقى للعلم قيمة بل يصير العلم نكبة على البشرية " "٢" .

---

١) محمد عبدالله دراز . الدين ص ١٠٥ .

٢) المشير احمد عزت باشا . الدين والعلم ، ص ١٧٣ .

الفصـــل الثالـــث

اللـــــه أم الطبيعـــــــــة ؟

يجب علينا ونحن فى بداية هذا الفصل المهم من الرسالة ان نوضح عـدة نقاط اساسية فى هذه الدراسة • بعض هذه النقاط تصويب لاخطاء وقع فيها بعض الكتاب المحدثين ،اما النقاط الأخرى فهى توضيح لبعض الأمور حـــول المفهوم الدينى والمفهوم المادى •

خطـأ وتصويـــب :

الأول ـــ محاولة اعتبار الصراع بين الدين والمادية مظهرا من مظاهر التعارض بين المثالية ، والواقعية ،وزعمهم ان المفهوم الفلسفى للعالم احد امرين لا ثالـث لهما : فهو اما المفهوم المثالى ، واما المفهوم المادى ،فاذا فسرت العالم تفسيرا تصوريا خالصا ،واعتبرت (الأنا) هو الينبوع الأساسى فانت مثالى ، واذا آمنت بواقع موضوعى مستقل عن (الانا) فليس لك الا ان تأخذ بالمفهوم المادى الـذى يقول : ان (المادة) هى المبدأ الأول ،وان (الفكرة) والشعور منعكس عنهـــا ، ودرجة من درجات تطورها •

نقول : ان هذا خطأ فادح ،ولا يتفق مع الواقع بحال ، ذلك ان الواقعية ليست وقفا على المفهوم المادى ،كما ان المثالية ، او الذاتية ليست هى الشىء الوحيد الذى يعارض المفهوم المادى فى الفكر الفلسفى ،بل هناك مفهوم آخر للواقعية هو المفهوم الدينى الذى يعتقد بواقع خارجى للعالم ، وللطبيعة ،ويعود بالروح والمادة الى سبب اعمق فوقهما جميعا •

الثانى ـــ اتهام بعضهم للدين انه يجحد مبدأ العلمية فى الطبيعة ،ويلغى قوانينها التى يكتشفها العلم يوما بعد يوم ،فهم يزعمون ان الدين يربط كل ظاهرة

بالمبدأ الالهى فحسب .

ولقد لعب هذا الاتهام دورا كبيرا لدى الماديين اذ جعلوا فكرة (الله) هى فكرة وضع سبب معقول لما يشاهده الانسان فى الطبيعة ، ويبرر وجوده ، وبذلك تزول الحاجة الى الله (السبب المعقول) ، حين يكتشف العلم حقيقة الاسباب والقوانين الطبيعية . وقد ساعد على ترويج هذا الاتهام محاربة الكنيسة للعلم ومقاومة رجاله .

والحقيقة ان المفهوم الدينى او الالهى ليس معناه الاستغناء عن الأسباب الطبيعية اما معارضة شئ من حقائق العلم الصحيحة ، اذ ان العلم اليقينى ليس قسيما للدين ، بل مكملة ومتممة . وكل ما فى الأمر ان الدين يعتبر الله سببا اعمق وراء تسلسل الأسباب فى عالم الواقع ، ولذلك فلا تعارض بين هذا المفهوم ، وبين الحقائق العلمية التى يطلق فيها للعلم اوسع المجالات ، لاكتشاف نظم الطبيعة وأسرارها ، ويحتفظ لنفسه بالسبب الأعمق فى مبدأ اعلى فوق الطبيعة .

ايضاح لعدة نقاط حول المفهومين :

أولا — تمتاز المدرسة المادية بميزة النفى ، والسلبية لما يبدو لها انه فوق طاقة العلوم التجريبية ، اما النواحى الايجابية للعلم ، والتى تبرهن عليها التجربة فلا يختلف فيها مادى او دينى ، وان كلا منهما يصدق بان الماء يتكون من الاكسجين والهيدروجين ، وبأن عنصر الهيدروجين اخف العناصر فى وزنه الذرى ، وفى كل الحقائق العلمية التى قد تبرهن عليها التجربة .

اذن فى الحقائق العلمية لا تعارض بين مادى ودينى ، بل ان التعارض ينشأ عن مسألة الوجود فيما وراء الطبيعة ، او فيما وراء حقل التجربة ، فالمتدين يؤمن بنوع من الوجود المجرد خارج عن حقل التجربة . والمادى ينكر ذلك ، ويقصر الوجود على حقل التجربة فحسب ، ويعتبر ان الأسباب التى كشفتها التجربة هى الأسباب الوحيدة فى الوجود ، وان الطبيعة مظهر لتلك الأسباب .

والمتدين يبرهن على وجود جانب روحي في الانسان غير الذى ظهر في ميدان التجربة ،ويبرهن ايضا على وجود سبب أعلى فوق مستوى المحسوسات • ويقف المادى مقابل المتدين في نفي الحقائق المجردة ، او انكار اى وجود خارج حدود الطبيعة والمادة ، وليس في نفي الحقائق العلمية الايجابية التى برهنت عليها التجربة •

الثاني : ان التعارض بين الدينى والمادى هو في موقف الاثبات وموقف النفي ،فايهما يقع على مسئوليته الاستدلال والبرهنة على صدق دعواه ؟

ربما يقول بعض الماديين : يقع ذلك على كاهل المتدين فحسب ، لأنه صاحب الاثبات ، وعليه ان يبرهن على صحة دعواه في الثبوت •

لكن الأمر غير ذلك ،اذ ان التدليل والبرهنة يقع على عاتق كل منهما ،فكما ان المتدين عليه أن يبرهن على الاثبات فكذلك المادى هو مكلف بالتدليل على النفي ايضا ،ذلك انه لم يجعل قضية الالوهية او المعانى المجردة موضع شك بل نفاهما نفيا قاطعا ، والاثبات القاطع كالنفي القاطع كل يفتقر الى دليل •

ان المادى حين نفي الوجود المجرد فكأنه ادعى ضمنا انه قد احاط بجميع جوانب الوجود المختلفة فلم يجد فيه موضعا للوجود المجرد ، عندئذ يلزمه ان يقدم دليلا على دعوى الاحاطة وتبرير ذلك النفي القطعي الذى بناه على تلك الاحاطة•

ولكن ماهى طبيعة البرهان الذى يمكن ان يستدل به كل من صاحب النفي والاثبات ؟ ان التجربة ـ كما مر بنا ـ لا تصلح دليلا لكل منهما ،فكما انها لا تصلح لاثبات وجود مجرد وراءها ،فكذلك هى لا تنفي وجوده •

ان العالم الطبيعي اذا لم يجد السبب المجرد في مختبره لم يكن ذلك دليلا الا على عدم وجوده في ميدان التجربة فقط ،واما نفي الوجود المجرد فيما وراء مجالات التجربة ،فليس ذلك من عمل العالم الطبيعي ولا يستنتج من التجربة نفسها •

وتحت اى تجربة يقع ذلك الحكم الذى تعتمد عليه المادية الجدلية بقدم العالم وأزليتـه وأبديته ،طالما يفصلنا عن بدايته ونهايته ملايين وملايين السنين •

ونخلص من ذلك كله الى امرين :

الأمر الأول : ان المادية بحاجة الى دليل على جانبها السلبى كحاجة المتدين الى التدليل على جانبه الايجابى •

الأمر الثانى : ان المادية كالدين من حيث اتجاههما الفلسفى ، لذلك فلا وجـود لمادية علمية أو تجريبية ــ كما يدعون ــ ذلك ان العلم لا يثبت المفهوم المادى للطبيعة حتى تكون مادية علمية ،بل ان التجارب والحقائق العلمية تترك مجالا واسعا لافتراض سبب اعلى فوق المادة ، وان التجربة لا تبرهن على انها غير مخلوقة لسبب أعلى •

واذا كانت التجربة غير صالحة كدليل علمى لكل من المفهومين على السـواء فهل يستطيع العقل البشرى ان يستدل على احد المفهومين ما داما خارجين عـن نطاق التجربة ،أم انه يصبح مضطرا للوقوع فى الشك والحيرة وبالتالى تجميد البحث فى كلا المفهومين والانصراف الى المجال العملى المثمر ؟

والجواب على ذلك : ان البشرية قادرة على دراسة هذه المسألة والانطـلاق فيها من التجربة نفسها ،ولكن على ان لا تكون التجربة دليلا مباشرا ،بل تكون التجربة كنقطة ابتداء فقط ،ثم يوضح المفهوم الدينى الصحيح للعالم ، وذلك على مقتضـى الظواهر التجريبية المستقلة ،اذ أن (المعارف العقلية الأولية) "[١]" ضرورية لكـل تجربة فى أى مجال كان •

فكل نظرية علمية تقوم على اساس تجريبى ثم على ضوء المعلومات العقلية المستقلة أيضـا •

---

(١) المقصود بالمعارف العقلية الاولية : هى الأمور التى لا يطلب العقل دليلا على صحتها • وتطمئن اليها النفس مباشرة • وهى التى تسمى بالبديهيـات مثال ذلك " النفى والاثبات لا يصدقان معا فى شىء واحد " و " الحـادث لا يوجد من غير سبب ، " والكل اكبر من الجزء " ،والواحد نصف الاثنيـن " ••• وهكذا ••••

ان التجربة من حيث هي لا تستطيع ان تقوم بدورها الجبار في بناء العلوم وتطويرها مالم تستند على قوانين عقلية ضرورية اولية • فشأن التجربة في ذلك شأن الطبيب الذى يجرى فحوصا على جسم المريض ، فان هذا الفحص هو الذى يكشف عن هوية المرض ومضاعفاته وأسبابه ، وان هذا الفحص الذى قام به الطبيب لم يكن ليكشف عن هذا كله لولا تلك المعلومات الطبية والمعارف التى احاط بها الطبيب قبل اجراء الفحوص ، فلو لم تكن هذه المعلومات لديه لكان الفحص لغوا اوخاليا عن كل فائدة ، وكذلك التجربة فهى لا تعطى الحقائق والنتائج العلمية الا على ضوء المعلومات السابقة ، او المعقولات الضرورية •

ونستخلص من هذه النقاط النتائج التالية :

أولا : ان المدرسة المادية تفترق عن المدرسة الالهية فى ناحية السلبية اى الانكار المطلق لما هو خارج عن الحقل التجريبى •

ثانيا : ان المادية مسئولة عن الاستدلال عن نفيها ذاك ، كما ان المتدين مسئول عن الاستدلال على الاثبات•

ثالثا : ان التجربة لا يمكن ان تعتبر برهانا على النفى ، لان عدم وجدان السبب الاعلى فى ميدان التجربة ليس دليلا على عدم وجوده فى مجال اعلى لا تمتد اليه طاقة التجربة المباشرة •

رابعا : ان الأسلوب الذى تتخذه المدرسة الدينية للاستدلال على مفهومها الدينى هو نفس الأسلوب الذى تثبت به علميا جميع الحقائق ، والقوانين العلمية• "١"

هذه نقاط هامة اردنا ان نلقى الضوء عليها كمقدمة لدراستنا عن حدوث الكون وأزليته ثم مبدأ السببية ، وهو البحث الذى يمس مسألة الألوهية مسا مباشرا •

---

١) راجع بتوسع نظرية المعرفة ، وبحث المذهب العقلى بالذات فى كتاب فلسفتنا لمحمد باقر الصدر ص٥٩ •

أزلية العالم فى المادية الجدلية

لقد وجدت المادية الجدلية نفسها امام الاعتراف بحدوث العالم ، او المادة انها ستضطر الى الاعتراف بمحدثها ، وخالقها . وذلك طبقا للقواعد العقلية الضرورية التى تقول : لابد للحادث من سبب أحدثه . فماكان لها الا ان قالت بأزلية العالم فى الماضى ، وابديته فى المستقبل ، وذلك حتى يتسنى لها ان تتخلص من الاعتراف بالسبب الأول ، والذى يترتب على هذا الاقرار الاعتراف بمبدأ الاديان التى اعتبرتها المادية وهما وخرافة.

ويستدلون على ذلك بقانون بقاء الوزن والمادة فيقولون : وصل العالم الروسى الكبير أ . ف لومونوسوف الى نتيجة مؤداها انه فى الطبيعة لا يمكن ان يختفى اى جسم ، او عنصر ، ولا ان يظهر من جديد من لا شىء ... ولكن اذا كان الأمر كذلك فان المادة ، والطبيعة ، قد وجدت دائما ، لاننا اذا سلمنا بانه فى وقت من الاوقات لم يكن هناك شىء فى العالم ، أى لم تكن توجد مادة ، فمن اين لهـا ان تنشأ ؟ فهذا يعنى انها لم تنشأ فى اى وقت من الأوقات ، بل وجدت دائما ، وستوجد دائما ، فهى ابدية وخالدة ، ولهذا لم يمكن ان تخلق ، فلا يمكن ان يخلق ما لا يمكن افناؤه ، وبذلك فالمادة لم تنشأ ابدا ، بل وجدت دائما ، وستوجد دائما فهى ابدية ". "١"

ولقد كتب لينين بصدد المفهوم المادى عند فيلسوف العهد القديم هيراقليط الذى جاء فيه أن " ... العالم هو واحد ، لم يخلقه اى اله او انسان ، وقد كـان ولا يزال ، وسيكون شعلة حية الى الأبد ، تشتعل وتنطفىء تبعا لقوانين معينـة ... " فقال : ياله من شرح رائع لمبادىء المادية الديالكتيكية ". "٢"

---

١) سبيركين ، وياخوت . اسس المادية الديالكتيكية ، والمادية التاريخيـة ص ٢٠ — ٢١ .

٢) لينين . الدفاتر الفلسفية ص ٣١٨ الطبعة الروسية عن كتاب ستالين المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ٢٨ .

ولكننا نقول : ان القانون الذى يقرر " ان المادة لا تفنى ولا تستحدث " قانون كيميائى معروف وليس من مكتشفات الديالكتيك ، وهو لا يعدو ان يكون نتيجة لتجارب ظهرت فى مخبر التحليل الكيميائى ، استنتج منها العالم المحلل ذلك القانون هذا من ناحية •

ومن ناحية أخرى ان هذا القانون لا يصلح ان يكون دليلا على كون العالم ازليا او انه ليس له خالق ، وذلك لأمرين :

الأول : ان هذا القانون لا يدل بنفسه ـ اذا صح كما سنبينه ـ على اية اشارة توحى بأن العالم بكامله هو كالمادة التى تحت مخبر التحليل لا يفنى ولا يستحدث ، بل ان القانون أقصى ما يدل عليه هو ان الله الذى خلق العالم او المادة ، واودعها فى هذا الكون ، جعل من خصائصها ان لا تستحدث ولا تنعدم أيضا •

وان جعل هذا القانون شاملا لمبدأ الكون ونهايته ، استنتاج خارج عن نطاق التجربة ، وليس له حظ من العلمية فى شئ ، بل هو محض احتمال فلسفى فقط •

الثانى : ان هذا القانون الكيميائى ليس قطعى الثبوت ولم يرتق بعد الى مصاف القوانين المسلمة ، بل ان العلم قد يثبت خلاف ذلك فى المستقبل ، وقد اثبته فعلا ـ على ما سيأتى بيانه بعد قليل ـ فالذرة ، او الجزء الذى لا يتجزأ بقى من الأمور العلمية ، أو القوانين الكيمائية ردحا من الزمن حتى عصرنا الحاضر ، والذى استطاع العلم فيه ان يشطر الذرة ، بل ويحطمها لتتحول الى طاقة ، فصار قانون الجزء الذى لا يتجزأ فى علم الكيمياء أسطورة من الأساطير التى عفى عنها الدهر ، وأبطلها العلم •

اضف الى ذلك ان دعوى ازلية العالم ، وابديته مخالفة صريحة لمقررات العلم فى العصر الحديث ، حيث اثبتت البحوث العلمية والدراسات الجيولوجية بصورة لا تجعل مجالا للشك ان العالم حدث بعد ان لم يكن ، بل وتحدد الزمن الذى بدأ فيه العالم ، كما ستعلم فيما بعد •

قدم العالم عند الفلاسفة الالهيين

حقا ان الفلاسفة قالوا بقدم العالم ، ولكنهم يعترفون بوجود اللـــه ويقولون بأن العالم لم يزل موجودا مع الله ، ومعلولا له ومساوقا معه ، غير متأخر عنه بالزمان ، مساوقة المعلول للعله ، وان تقدم الله على العالم كتقدم المقدمة على النتيجة ، أي هو تقدم بالذات لا بالزمان ، وان صدور العالم عن الله كان صدورا ضروريا ٠

شبهـة الفلاسفة وردها :

" قالوا لا يمكن صدور حادث عن قديم ، لأن القديم اذا لم يصدر عنـه العالم ثم صدر ، فلابد لهذا الصدور من مرجح ، فمن هو محدث هذا المرجح ؟ ولم لم يحدث العالم قبل حدوثه ؟ وانه لا يمكن ان يحال ذلك على عجز القديـم عن الاحداث ، ولا عن استحالة الحدوث ، ولا يمكن ان يقال لم يكن قبله غـرض ثم تجدد الغرض ، ولا ان يحال على فقد آلة ، ولا ان يقال صار مريدا بعـد ان لم يكن مريدا ، لأن حدوث الارادة في ذاته محال ٠ واستشكلوا في (مدة الترك) التي مضت قبل ان يخلق الله العالم ، فقالوا : ان الله قبل ان يخلق العالم كان قادرا على الخلق ، فكأنه صبر ولم يخلق ثم خلق ، ومدة الترك هذه ان كانت متناهيـة صار وجود الباري متناهي الأول ، ولا يجوز عقلا ان تكون غير متناهية ٠ " "١"

وبعد ان يفصل الغزالي اقوال الفلاسفة ، ويورد حججهم من جميـــع اطرافها ، ثم يبدأ فيرد عليهم من اسهل الطرق وأهونها ، ردا بسيطا موجـزا انبثق من نفس اقوالهم وأدلتهم ، ومن احكام المنطق التي وضعوها ، ومن اعترافهم بوجود الله سبحانه وتعالى فيقول لهم ما خلاصته :

" لقـد استبعدتـم صـدور حادث مـن قديـم ، ولا بـــــد

---

١) ملخص من مقاصد الفلاسفة للامام ابي حامد الغزالي ٠ ص ١٩٠ ، تحقيـق سليمان دنيا ٠ طبعة ثالثة ٠ دار المعارف بمصر ٠

لكم من الاعتراف به ،فان العالم (حوادث) ،ولها اسباب ،فان قلتم ان الحوادث استندت الى حوادث الى غير نهاية ،فهو محال ،وليس ذلك معتقد عاقل ،ولو كان ممكنا لاستغنيتم عن الاعتراف بالصانع ،واثبات واجب الوجوب ،واذا كانت (الحوادث) لها طرف ينتهي اليه تسلسلها فيكون ذلك الطرف هو القديم ،فلابد لكم على اصلكم من تجويز حادث من قديم.

" أما قولكم بصدور العالم عن الله صدورا (ضروريا) فان هذا الصدور الضروري لا يسمى (فعلا) ،ومن قال ان السراج يفعل الضوء ،والشخص يفعل الظل فقد جازف وتوسع في التجوز ،فالفاعل لا يسمى فاعلا بمجرد كونه سببا بل بكونه مسببا على وجه مخصوص ، وهو وقوع الفعل منه على وجه (الارادة والاختيار) ،وصدور المعلول عنه صدورا (ضروريا) لا يكون الا اذا تكافأ المعلول مع العلة ،وليس بين الله والعالم (المتغير) تكافؤ حتى يصدر عنه العالم صدورا ضروريا .

وانتم تعترفون بوجود الله ، وتصفونه ببعض صفات الكمال ،ومن اول صفات الكمال (القدرة والارادة) ،والارادة صفة من شأنها تمييز احد الضدين عن الآخر ،ولولا ان هذا شأنها لاكتفينا بوصف الله (بالقدرة) ، ولكن لما تساوت نسبة القدرة الى الضدين ،(يعني الايجاد والعدم) ،كان لابد من صفة تخصص الشيء عن ضده وهي الارادة " . " ١ "

وهكذا نجد ان قول الفلاسفة الالهيين بقدم العالم نشأ عن شبهة لديهم ، فندها الامام الغزالي رحمه الله ،ورد عليها ،ولم يجعل لهم مناصا من التسليم والانصياع للحق والمنطق .

أما قول الماديين الجدليين فبدع من القول ،لم يقل به احد من العقلاء سواء كان من الفلاسفة او العلماء المحققين ،وان ادعوا العلمية في ذلك فنحن نطالبهم بالتجربة التي دللت لهم على ازليتها لما لم بعد ان اثبت العلم خلاف ذلك .

---

١) عن قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن للشيخ نديم الجسر ص ٨٨ — ٨٩ . بتصرف

الأدلــــة علــى حدوث العالـــم

ان مسألة حدوث الكون ووجوده بعد ان لم يكن مسألة برهنت عليهـــا البحوث العلمية الحديثة ،وكلما تقدم العلم اكثر فأكثر ،اعطانا الدليل القاطع بشكل ادق واعمق ،وأكثر دلالة ،بل ان كثرة الأدلة التى قدمها العلم جعلت المسألة بحكم البديهية العقلية ، لا اثر للشك فيها •

فقوانين الحرارة ،وفناء المادة ، ومعطيات العقل والمنطق كلها قد اعطت الدليل الواضح على قضية الحدوث هذه ،وقد تضافرت جميعها فى التدليل على ذلك • وسنحاول فيمايلى ان نستعرض هذه الأدلة الواحدة تلو الآخر ،وذلك لنرى كيف يقدم كل منها الدليل القاطع على حدوث الكون ،ووجوده بعد ان لم يكن ،وبالتالى انه مخلوق لخالق عظيم مدبر قدير •

قوانيـــن الحـــــراره :

يقول (ادوارد لوثر كيل)[١] الاخصائى فى علم الحيوان والحشـــرات مانصه : " فالعلوم تثبت بكل وضوح ان هذا الكون لا يمكن ان يكون أزليا ،فهناك انتقال حرارى مستمر من الأجسام الحارة الى الاجسام الباردة ،ولا يمكن ان يحدث العكس بقوة ذاتية ،بحيث تعود الحرارة فترتد من الأجسام الباردة الى الأجســام الحارة ،ومعنى ذلك ان الكون يتجه الى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب فيها معين الطاقة•

" ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيموية ،او طبيعية ،ولن يكون هنـــاك اثر للحياة نفسها فى هذا الكون • ولما كانت الحياة لاتزال قائمة ،ولاتـــزال العمليات الكيموية ،والطبيعية ،تسير فى طريقها ، فاننا نستطيع ان نستنتج ان

---

١) ادوارد لوثر كيل : اخصائى فى علم الحيوان والحشرات • حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة كاليفورنيا ،استاذ علم الاحياء ،ورئيس القسم بجامعة سان فرانسيسكو ،متخصص فى دراسة أجنة الحشرات ،والسلامند ،والحشرات ذات الجناحين•

هذا الكون لايمكن ان يكون أزليا ، والا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد ، وتوقف كل نشاط في الوجود .

" وهكذا توصلت العلوم ـ دون قصد ـ الى ان لهذا الكون بداية ، وهي بذلك تثبت وجود الله ، لأن ما له بداية لايمكن ان يكون قد بدأ من نفسه ، ولابد له من مبدئ أو من محرك اول ، أو من خالق هو الاله .

" لايقتصر ما قدمته العلوم على اثبات أن لهذا الكون بداية ، فقد اثبتت فوق ذلك أنه بدأ دفعة واحدة منذ خمسة بلايين سنة . والواقع ان الكون لا زال في عملية انتشار مستمر تبدأ من مركز نشأته " . "١"

ويؤكد العالم (دونالد روبرت كار) "٢" على مسألة تحديد الزمن الذى بدأ فيه هذا الكون ، وان العلم قد توصل الى ذلك بواسطة الوسائل العلمية الحديثة فيقول : اما عن تحديد عمر التكوينات الجيولوجية مثل مواد الشهب وغيرها ، فقد امكن باستخدام العلاقات الاشعاعية ان نحصل على صورة شبه كمية عن تاريخ الأرض ويستخدم في الوقت الحاضر عدد من الطرق المختلفة لتقدير عمر الأرض بدرجات متفاوتة في الدقة ، ولكن نتائج هذه الطرق متقاربة الى حد كبير ، وهي تشير الى ان الكون قد نشأ منذ نحو خمسة بلايين سنة ، وعلى ذلك فان هذا الكون ، لايمكن ان يكون ازليا ، ولو كان كذلك لما بقيت فيه اى عناصر اشعاعية . ويتفق هذا الرأى مع القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية ... " "٣"

---

١) عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم ، ألفه نخبة من العلماء الامريكيين بمناسبة السنة الدولية لطبيعيات الأرض ، ص ٢٩ ـ ٣٠ .

٢) دونالد روبرت كار : استاذ الكيمياء الجيولوجية ، حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة كولومبيا ، مساعد بحوث بجامعة كولومبيا ، استاذ مساعد بكلية شدلتون ، اخصائي في تقدير الاعمار الجيولوجية باستخدام الاشعاعات الطبيعية .

٣) الله يتجلى في عصر العلم ص ٨٧ .

أما عالم الطبيعية البيولوجية (فرانك اللن) "١" ، فانه يسير وفق طريقة السير والتقسيم فيمسألة حدوث الكون ، اذ لابد للمسألة من أن تدخل تحت احد اقسامه ، ثم يحلل الأقسام علميا ،وعلىضوء العقل ،والمنطق فيقول : اذا سلمنا بأن هذا الكون موجود ،فكيف نفسر وجود نشأته ؟ • هناك اربعة احتمالات للاجابة علىهذا السؤال :

— فاما ان يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال•
— واما ان يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم•
— واما ان يكون أبديا ليسلنشأته بداية •
— واما ان يكون له خالق •

ويناقشاللن هذه الاحتمالات الواحد تلوالآخر قائلا : أما الاحتمال الأول — فلايقيم امامنا مشكلة سوى مشكلة الاحساس ،والشعور ،فهو يعنى ان احساسنا بهذا الكون ، وادراكنا لما يحدث فيه لايعدو ان يكون وهما من الأوهام ليسله ظل فيالحقيقة • فالرأي الذي يدعي أنهذا الكون ليسله وجود فعلى وانه مجرد صورة فياذهاننا ، واننا نعيشفيعالم من الأوهام لايحتاج الىمناقشة أوجدال •

أما الرأي الثاني القائل بأن هذا العالم بمافيه من مادة وطاقة قد نشأ هكذا وحده من العدم ، فهو لا يقل عن سابقه سخفا وحماقة ،ولايستحق هو ايضا ان يكون موضعا للنظر وللمناقشة •

والرأي الثالث : الذي يذهب الىان هذا الكون أزلي ليسلنشأته بداية انما يشترك معالرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون ،وذلك في عنصر واحد هو الأزلية •

واذا فنحن اما ان ننسبصفة الأزلية الىعالم ميت ،واما ان ننسبها الى اله حي يخلق • وليسهناك صعوبة فكرية فيالأخذ بأحد هذين الاحتمالين أكثر من الآخر ،ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل علىان مكونات

---

١) مرت ترجمته فيالفصل الثاني من هذا الباب

هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا ، وانها سائرة حتما الى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض ، هو الصفر المطلق ، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة ، ولا مناص من حدوث هذه الحالة ، من انعدام الطاقات عندما تصل درجة حرارة الأجسام الى الصفر المطلق بمضى الوقت .

أما الشمس المستعرة ، والنجوم المتوهجة ، والأرض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على أن أصل الكون وأساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة ، فهو اذن حدث من الأحداث ، ومعنى ذلك أنه لابد لأصل الكون من خالق أزلى ليس له بداية ، عالم محيط بكل شئ ، قوى ليس لقدرته حدود ، ولا بد ان يكون هذا الكون من صنع يديه " . " ١ "

ب — فنـــاء المـــادة

يقول عالم الكيمياء الرياضية (جون كليفلاند كوتران) " ٢ " : " وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد فى سبيل الزوال أو الفناء ، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة ، والآخر بسرعة ضئيلة . وعلى ذلك فان المادة ليست أبدية ، ومعنى ذلك أيضا أنها ليست أزلية ، اذ انها لها بداية . وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية العالم لم تكن بطيئة أو تدريجية ، بل وجدت بصورة فجائية ، وتستطيع العلوم ان تحدد لنا الوقت الذى نشأت فيه هذه المواد ، وعلى ذلك فان هذا العالم المادى لابد أن يكون مخلوقا ، وهو منذ أن خلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة ، ليس لعنصر المصادفة بينها مكان . ثم يقول بعد ذلك : " فاذا كان هذا العالم المادى عاجزا عن أن يخلق نفسه ، أو يحدد القوانين التى يخضع

---

١) عن كتاب الله يتجلى فى عصر العلم ص ١١ .

٢) جون كليفلاند كوتران من علماء الكيمياء الرياضية ، دكتوراه من جامعة كورنل — رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولت — اخصائى فى تحضير النترازول وفى تنقية التنجستين

اليها ،فلابد ان يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادى ،وتدل الشواهد جميعا على ان هذا الخالق لابد ان يكون متصفا بالعقل والحكمة ،الا ان العقل لايستطيع ان يعمل في العالم المادى كما في ممارسة الطب والعلاج السيكولوجي ، دون ان يكون هناك ارادة ،ولابد لمن يتصف بالارادة ان يكون موجودا وجودا ذاتيا ، وعلى ذلك فالنتيجة المنطقية الحتمية التى يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على ان لهذا الكون خالقا فحسب ،بل لابد ان هذا الخالق حكيم عليم قادر على كل شيء حتى يستطيع ان يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره ،ولابد ان يكون هذا الخالق دائم الوجود ، وتتجلى آياته في كل مكان" . "١"

اذا كان هذا هو مدلول العلم وخلاصة نتائجه على لسان علماء هم في قمة الدراسات العلمية من فيزيائية وكيمائية وطبيعية وجيولوجية وغيرها ،فما هو سبب هذا الالحاد المزعوم والاعراض عن مبادئ العلم الأساسية ومعطياته ؟!!

يقول عالم الفسيولوجيا والكيمياء الحيوية (وولتر اوسكار لندبرج) "٢"

" ان ذلك يعود لأسباب عديدة نخص اثنين منها بالذكر.

أولا : يرجع انكار وجود الله في بعض الأحيان الى ماتتبعه بعض الجماعات والمنظمات الالحادية ، والدول ،من سياسة معينة ترمي الى شيوع الالحاد ، ومحاربة الايمان بالله ،بسبب تعارض هذه العقيدة مع صالح هذه الجماعات أو مبادئها .

ثانيا : وحتى عندما تتحرر عقول الناس من الخوف فليس من السهل ان تتحرر من التعصب والأهواء " . "٣"

---

١) عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم لنخبة من العلماء الامريكيين ص٢٦

٢) وولتر اوسكار لندبرج . عالم الفسيولوجيا والكيمياء الحيوية ،حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة جونز هوبكنز ،استاذ فسيولوجيا الكيمياء بجامعة مينسوتا ، استاذ الكيمياء الحيوية الزراعية بجامعة مينسوتا ، عميد معهد هورمسل منذ سنة ١٩٤٩ ،عضو ورئيس جمعيات عديدة لدراسة الطعام وتركيبه الغذائي ، مؤلف سلسلة كتب تركيب الدهون والسوائل الأخرى . نشر كثيرا من البحوث العلمية.

٣) عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص٣٣ .

استـــدلال المتكلميــــن :

اما علماء التوحيد القدامى ،فقد عبروا عن حدوث الكون ، وابتدائه من العدم ، بقدرة الخالق جل شأنه على الشكل الآتى :

نظروا فى هذا العالم فوجدوه ينقسم الى نوعين لاثالث لهما :
نوع يقوم بذاتــه
ونوع آخر لايقوم بذاته ، بل لابد له من ذات يقوم بها •

فمثلا : ان الجدار يقوم بذاته ، ولكن لون الجدار لايقوم بذاته ، بل لابد له من جسم ما يقوم فيه ،والذرة تقوم بذاتها ، ولكن الحرارة لاتقوم بذاتها بل لابد لها من ذات تقوم بها • ولذلك فقد سموا ما يقوم بنفسه جوهرا ،وما لا يقوم الا بالجوهر عرضا • ان الجدار جوهر ،واللون عرض ،والذرة جوهر ، والحرارة عرض والجسم جوهر ، والمرض عرض وهكذا دواليك •••

ثم وجدوا ان الجواهر لاتخلو عن الأعراض بحال من الأحوال ، وان الأعراض تتغير باستمرار ، والتغير دليل الحدوث ، وطالما ان الجواهر لاتخلو عن الأعراض الحادثة ، فتكون الجواهر أيضا حادثة ، ينتج ان الجواهر والأعراض التى يتكون منها هذا العالم حادثة ، فالكون كله حادث •

يقول الشهرستانى : فقد سلك عامتهم طريق الاثبات ، باثبات الأعراض أولا ،واثبات حدوثها ثانيا ، وبيان استحالة خلو الجواهر عنها ثالثا ، وبيـــان استحالة حوادث لا أول لها رابعا ، يترتب على هذه الأصول ان ما لا يسبقـــه الحوادث فهو حادث " • "١"

وخلصوا من ذلك الى وضع المقدمات التالية :

---

١) الشهرستانى • نهاية الاقدام فى علم الكلام ، حرره الفرد جيوم ص١١

١ — ان العالم مكون من جواهر وأعراض

٢ — وان الجواهر لا تخلوا عن الأعراض

٣ — وان الأعراض متغيرة

٤ — وان كل متغير حادث

٥ — وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث

ينتج عن هذه المقدمات ، أن العالم المكون من هذه الأعراض والجواهر هو حادث ، وليس بأزلى . والحادث لابد له من محدث وهو الله .

وان صفة التغير من أهم ميزات هذا الكون ، فالعقل لا يحيل تشكل كل شيء في الكون على غير ما هو عليه ، ومعنى ذلك ان كل شيء في الكون قابل للتغير ، ومادام يتغير اذن فهو حادث لأن المتغير لا يكون أزليا .

يقول صاحب العقيدة النظامية : العالم كل موجود سوى الله تعالى وهو أجسام محدودة متناهية ، وأعراض قائمة بها كألوانها وهيئاتها في تركيباتها وسائر صفاتها . وما شاهدنا منها واتصلت به حواسنا وما غاب منها عن مدارك احساسنا ، متساوية في حكم الجواز لها بلا شكل يحاين او يفرض منا ، صغر او كبر ، وقرب أو بعد ، وغاب او شهد . والعقل قاض بأن تلك الأجسام المتشكلة لا يستحيل فرض تشكلها على هيئة أخرى ". "١"

اذن فهى ممكنة التشكل بهيئات أخرى ، وطالما هي كذلك فهي متغيرة والمتغير حادث ، والحادث يفتقر الى محدث له ، والمحدث هو الله تعالى .

---

١) الجوينى ، امام الحرمين ابو المعالى عبد الملك . العقيدة النظامية ، صححها ، وعلق عليها محمد زاهد كوثرى ، الناشر مطبعة الانوار ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م . ص ١١ .

شبهـــات ثلاثـــة :

ونحب ان نختتم حديثنا عن مسألة حدوث الكون ، بكلمة للشيخ الجسر اوردها صاحب كتاب قصة الايمان ، تحدث فيها عن ثلاث شبه للماد يين تحول بينهم وبين الاعتقاد بالله عز وجل ، وكيف خلق الكون من العدم ، ثم يحلـل تلك الشبهات ويناقشها على ضوء العقل والمنطق فيقول رحمه الله :

" انى رأيت لكم شبهات ثلاثة تحول دون اعتقادكم بوجود الله تعالى ، وبأنه خلق الكون من العدم :

الأولى : عجز العقول عن تصوركنه هذا الاله العظيم الذى ليس كمثله شيء .

الثانية : قولكم : ان عقولنا لا يمكن ان تتصور حصول شيء من لا شيء ، أى خلق المادة من العدم .

والثالثة : قولكم : أنه لو كان نظام الكائنات بقصد وحكمة لكانت علامات القصد والحكمة تامة فى كل شيء ، ونحن نرى فى العالم أشياء لا تنطبق علـــى القصد والحكمة ، بل اشد ما تكون انطباقا على الضرورة .

أما الشبهة الأولى : فالجواب عليها ، انكم اذا نظرتم الى منزلتكم فى العلـــم وجدتم انكم وانتم اعاظم العلماء ، لاتزالون على شاطىء بحر عظيم لا تعـــرف نهايته ، ولا يسبر غوره ، وطالما اعترف اكابركم بالعجز والتقصير فى معرفة كثير من أسرار الكون ، وحقيقة المادة التى بين ايديكم ، ترونها باعينكم ، وتذوقونهـا بألسنتكم ، وتشمونها بانوفكم ، وتصرفونها فى طرق الحياة والعيش ، وانتم حتى اليوم لم تعرفوا حقيقتها وكنهها .

كما انكم عاجزون ، ومقرون بالعجز عن معرفة حقيقة الحياة ، وحقيقـــة العقل والادراك ، وغاية ما اوصلكم اليه التفكير انكم قلتم انها ظاهرة من ظواهر تفاعل اجزاء المادة . فاذا كان هذا شأنكم وانتم العلماء فى معرفة اقرب الأشياء لكم ، والصقها وامسها بكم ، فهل تطمعون أن تصلوا بعقولكم الى معرفـة حقيقة الله تعالى ؟ !!! ....

ثم يقول الجسر للماديين نفسما قاله الفيلسوف الالماني (ليبنتز) "١"

(واذا كانت عقولكم لم تتمكن من تصور هذا الاله ، فلا يلزم من ذلك عدم وجوده ، اذ أن كثيرا من الحقائق لم تتمكنوا من تصورها حق التصور ، وتكون في الحقيقة موجودة ، ويقوم الدليل العقلي على وجودها ، والجزم منكم بأنه لا يمكن وجود شيء متصف بتلك الصفات بريء من الجسمية والمادية قد نشأ معكم من (قياس التمثيل) بما اطلقتم عليه من الأشياء ، وهذا القياس ليس دليلا قاطعا ، بل هو دليل خادع يخدع العقول حتى يجعلها تحكم على الشيء باحكام غيره مع الفارق بينه وبين ذلك الغير • فعدم اقتداركم على تصور الاله لا يفيد استحالة وجوده ، وقياسكم اياه على ما شاهدتموه في العالم المادي هو قياس مغلوط ، لوجود فارق بينهما • ويكفي العقول ان تستدل على وجود الله وصفاته بآثاره ، وكل ما في العالم من وجود ونظام ، واتقان ، واحكام ، دلائل قاطعة على وجوده وعلى علمه وقدرته وحكمته)•

أما الشبهة الثانية : وهي كلال العقول عن تصور خلق العالم من العدم ، فيقول الجسر رحمه الله في جوابها : ان عدم تصور حقيقة الأمر لا يكون دليلا على عدمه في نفسه ، وما منشأ هذا العجز عن تصور ايجاد شيء من لا شيء الا (قياس التمثيل) (أيضا) لانكم لم تشاهدوا شيئا خلق من لا شيء ، ولكن عدم مشاهدة حدوث شيء من لا شيء لا يلزم منه ان ذلك محال ••• ولا تقاس قدرة الله على قدرة البشر ، لأن الفرق بين القدرتين عظيم ، ونحن نقر بالعجز عن ادراك كيفية خلقه للعالم من لا شيء ، ولكن العجز عن تصور حقيقة الشيء الذي قام الدليل العقلي على وجوده لا ينافي الاعتقاد بوجوده •

---

١) جوتخرد فيلهلم ليبنتز ١٦٤٦ ــ ١٧١٦ م ، ولد بلبيزج لأب قانوني ، واستاذ الأخلاق بجامعة المدينة • درس الفلسفة القديمة في الجامعة ، ثم قرأ قصصا وتواريخ وكتبا فلسفية وعلمية أخرى ، ونال درجة الدكتوراه من جامعة اندروف في القانون برسالة موضوعها (مشكلات القانون) • راجع تاريخ الفلسفة الحديثة ليوسف كرم ص ١١٩ •

وأما الشبهة الثالثة : وهى قولكم انكم ترون فى الكون أشياء لا تنطبق على القصد والحكمة ، بل هى اشد انطباقا على الضرورة . فالجواب عليها : اننا نشاهد من أسرار الله فى مصنوعاته الحكم الباهرة ، ولم تزل تظهر لنا يوما بعد يوم حكمة بعد أخرى ، مما كان خافيا علينا دهورا طويلة ، فاذا شاهدنا شيئا لم تظهر لنا فيه حكمة ، لم نعتقد انه وجد عبثا ، بل نقول : ان الاله حكيم والدليل على كونه حكيما ماشاهدناه من آثار حكمته ، وما نزال نطلع عليها يوما بعد يوم .

واذا تأملتم فى قصور العقل البشرى وعجزه عن ادراك كثير من الأمور المادية المشاهدة لنا ، وقارنتم بين هذا العجز ، وبين قدرة الله العظمى وحكمته لم تستغربوا اختفاء حكمة بعض الأشياء عن عقولنا ...

ويضرب الجسر لذلك مثالا رائعا فيقول : وانتم اذا نظرتم الى الحيوانات الصغيرة وجدتم ان لها من الادراك مايكفيها لتأمين معيشتها ، ولكن هل تنتظرون منها ان تدرك حقيقة الانسان ، وتتصور تفاصيل أعضائه ووظائفه .... وأسرار أعماله ومصنوعاته ، وتآليفه ومخترعاته ومبتكراته ، أو تعلم كيف اخترعها ، وأوجدها ، ولماذا صنعها ؟!!!.

والانسان اقل من تلك الحيوانات الصغيرة علما وقدرة بالنسبة الى علم الله وقدرته وحكمته ، بل ان الفرق بين العلمين ، والقدرتين ، والحكمتين أعظم بكثير . فعلينا اذا نازعتنا نفوسنا وطلبت منا التعرض لمعرفة خلق العالم ، ولماذا خلقه ، وما الحكمة فى كل شئ نشاهده ، ان نعترف بعجز عقولنا البشرية ويكفينا لمعرفته أو الاقرار بوجوده ، وقدرته ، وحكمته ، ما دلتنا عليه آثاره ، وما شاهدناه من انوار الحكمة فى اكثر تلك الآثار ". "١"

---

١) الجسر ، نديم . قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ص ٢٠٥ - ٢٠٦ . المكتب الاسلامى ، الطبعة الثالثة ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩م .

السببيـــــة :

حقا ان مبدأ السببية — في حد ذاته — من المبادئ الثابتة التي بقيت على مدار التاريخ محل اتفاق بين الناس جميعهم مؤمنهم وملحدهم ، ولم يمار في ذلك الا مريض العقل أو معتوه . وهو ان دل على شيء فانما يدل علـــى ان التطلع الى الأسباب والمسببات كان نتيجة طبيعية لميزة الادراك ، والعقـــل الذكي الذي خص بها الانسان دون غيره .

ونحن لا نختلف مع الماديين على أن قانون السببية من المبادئ العلمية الضرورية والتي لا مناص للانسان من الرجوع اليها والتصديق بها في كل مايصادفه في حياته .

وفي هذا البحث سنعمد الى توضيح عدة نقاط أولها مفهوم السببيـــة في المادية الجدلية وما يلزم عن القول بها كقانون عام في الكون ، ثم هل كان اخذهم للقانون تطبيقا وتعميما على مقتضى مفهومهم له ، ثم عن مفهوم هذا القانون فـــي الدين وابعاد استعمالهم له كقانون عام شامل .

السببية في المادية الجدلية :

قلنا ان المادية الجدلية تؤمن بقانون السببية على انه ضرورة انسانيـــة وقاعدة علمية لاغنى لكل مفكر عنها ، ولابد لكل باحث من الرجوع اليها .

يقول سبيركين وياخوت " نواجه دائما في نشاطنا سؤالا عن علل هذه الظواهر أو تلك ، وهو أحد الاسئلة التي تساعدنا على تبيين الطبيعة الداخليـة للظواهر التي تجري حولنا ، والتوصل الى جوهرها . ولم يكن عبثا ما كتب الفيلسوف اليوناني القديم ديمقريطس يقول : (لأفضل أن اجد السبب الحقيقي ولو لظاهرة واحدة من أن اصبح قيصرا على بلاد فارس) "[1] .

---

١) سبيركين وياخوت . اسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ٨٥

ولكن ماذا يعنى مفهوم السبب عندهم يا ترى ، يقولون : " نعرف من الخبرة انه من لا شئ لا ينتج شيئا ، وكل ظاهرة لها مصدرها ، أى ما يولدها ، وهو الذى يسمونه (السبب) " "١"

وقد جعلت المادية الجدلية من هذا القانون مبدأ عاما يصدق على كل شئ فى الطبيعة ، حيث أخضعت له جميع الظواهر الكونية ، على ان كل شئ فى الوجود له سببه الخاص به ، وان حصلت حادثة ولم نحط بسببها ، فليس ذلك يعنى انها من غير سبب ، بل لابد من البحث عن سببها واكتشافه ، اذ أنه قانون لا استثناء فيه ، ولا شذوذ .

قالوا : والسمة التالية للسببية تنحصر فى أنها تحمل طابعا عاما ، وقانون السببية قانون عام للعالم المادى ، وهذا يعنى انه لا توجد ظاهرة واحدة لا تخضع لهذا القانون ....

ومن خبرتنا الشخصية نعرف أن قانون السببية ليس له استثناءات ، فاذا حدث شئ فابحث عن السبب ، وبدونه لا ينشأ شيئ فى العالم ، وليس صدفة المثل الشعبى الذى يقول (لا دخان بلا نار) . ويقول المؤلف بعد ذلك : وفى الحياة العملية نبحث دائما عن سبب الحوادث التى تحدث " . "٢"

انه كلام منطقى ومعقول ، اتفق البشر جميعا على التسليم به والاذعان لمقتضاه وابعاده لأنه ـ كما مر بنا ـ ضرورة انسانية ، وبديهية عقلية لا يجادل فيها الا مكابر أو مجنون .

وبعد هذا العرض لنظرية المادية الجدلية فى الأسباب ، نعود الى مسألة أخرى هى تطبيق هذا القانون فى دنيا الواقع ، والحياة العملية ، لنرى

---

١) سبيركين وياخوت . نفس المصدر ص ٨٦ .

٢) " " " " ٨٨ .

هل أخذت به المادية في التطبيق كما أخذت به نظريا .

وهنا نجد سؤالا يفرض نفسه ، وهو مثار خلاف جذري بين المادية الجدلية من ناحية والفلسفات والأديان السماوية من ناحية أخرى .

والسؤال مفاده : ماهو السبب الكامن وراء هذا الوجود من سماوات وأرض ونبات وحيوان وانسان و ، و ، و .. ؟

وتراهم يجيبون بأن هذا من الأمور الميتافيزيقية التي لا نشغل عقولنا بها ، ولا نعرف الا هذا العالم الطبيعي المادي وقد وجد ولا خالق له ، وبالتالي فليس له سبب أول أوجده .

وقد كتب لينين بصدد المفهوم المادي عند فيلسوف العهد القديم هيراقليط الذي جاء فيه ، (" ... والعالم هو واحد لم يخلقه أي اله ، أو انسان ، وقد كان ولا يزال ، وسيكون شعلة حية الى الأبد تشتعل وتنطفيء تبعا لقوانين معينة) ، فقال ياله من شرح رائع لمبادئ المادية الديالكتيكية ". "١"

وهكذا فقد نفى لينين السبب الأول في الكون وأنه ليس هناك خالق أو اي اضافة غريبة كانت سببا في ايجاد هذا الكون بما فيه من أشياء . وهذا انكار صريح للقانون الذي قرروه لتوهم عندما وقفوا في تفسيره عند حدود معينة لم يقدروا على تجاوزها ، وذلك لأن تجاوز هذا الحد يعني اعترافهم بخالق هذا الكون ، وبالتالي اعترافهم بالأديان ، وما قام مذهبهم الا للقضاء على الأديان والمعتقدات.

تناقض واضح لاجدال فيه ، كان يجب ألا يقع لولا أنه سيؤدي حتما الى نتائج عكسية لما يهدفون اليه وهو نزع العقيدة الدينية من عقول الناس وذلك لتحقيق اغراض استراتيجية بعيدة لا تقوم الا في عقول قطعت صلتها بالسماء والتصقت بتراب الأرض ، تتعفر بطينها وتتهم من شهواتها .

---

(١) لينين . الدفاتر الفلسفية ص ٢١٨ الطبعة الروسية .

وربما من باب الاستطراد أن نسأل : اذا نفيتم وجود اله أو أى اضافة غريبة وراء هذا الكون ، فهل المادة أو الطبيعة تصلح لأن تخلق نفسها بنفسها وبالتالى فهى خالقة ومخلوقة ؟ ..

ولعل معترض أن يقول : ان هذا الوصف للطبيعة لا يرد على تصورنا لها ، ذلك اننا نقول بقدم العالم وأزليته ، وهذا يرد على من يقول بحدوثه ووجوده بعد ان لم يكن ، ونحن لم نقل بذلك .

والجواب : ان البرهان العلمى قد قطع بحدوث الكون "١" ، وانه قد بدأ من زمن محدد ، علاوة على تحديد عمر الطبيعة الزمنى ، فلا مجال اذن لمراء أو جدال فيه ، وهو قول ملزم طالما قرره العلم وأثبته العقل ، فالاعتراض باطل ولا وجه له .

وهنا سنعرض الى نقطتين هما :

أولا : هل تصلح الطبيعة أن تكون خالقا ؟

ثانيا : هل نفى الاله الخالق متفق مع مبدأ السببية ، الذى جعل الماديون منه قانونا عاما فى الوجود ؟

الطبيعة لا تخلق :

الطبيعة فى اللغة الخلق والسجية ، غير ان مفهوم الطبيعة فى مذهب الماديين خلاف ذلك ، اذ أن الطبيعة عندهم لا تعدو أن تكون أحد مفهومين :

المفهوم الأول : انها عبارة عن :

أ — الأشياء ذاتها فالجمادات ، والنبات ، والحيوان ، وهى التى يمكن لمسها وقياسها .

ب — الأشياء التى لا يمكن قياسها أو لمسها ، وهى مع ذلك موجودة ، وهى عواطفنا ورغباتنا الخ ... "٢"

---

١) راجع ص ١٧٢

٢) راجع بتوسع مقدمة الباب الأول (الطبيعة)

ومع ذلك فانه يمكن ارجاع العنصرين الى عنصر واحد ،اذا علمنا ان العنصر الثانى نتاج عال للعنصر الأول ،ومنبثق عنه • اذن فمفهوم الطبيعة عند هؤلاء الماديين هى الجماد والنبات • والحيوان ••• الخ •

اما المفهوم الثانى للطبيعة عند بعضهم الآخر "١" فهو صفات الأشياء ، وخصائصها ،فان هذه الصفات من حرارة وبروده ،ورطوبة ويبوسه •• الخ ••• وهذه القابليات من حركة وسكون ،ونمو وافتذاء ،وتوالد كل هذه الصفات ، والقابليات هى ما تسمى بالطبيعة •

وسواء كان القول الأول أوالثانى صادقا فى تعبيره عن الطبيعة فهل يصلح أحدهما ، أوكلاهما لأن يكون خالقا للطبيعة ومحدثا لها ؟•

أما القول الأول فلايخرج بالطبيعة بالنسبة لخلق الوجود عن تفسير الماء بالماء ، فالأرض خلقت الأرض ،والسماء خلقت السماء ،والصفات صنعت نفسها ، والأشياء أوجدت ذاتها ،فهى الحادث والمحدث ،وهى المخلوق والخالق فى الوقت ذاته ،وبطلان هذا بين ،فهو اما ادعاء بأن الشئ وجد بذاته من غير سبب ، وقد تبين لك فساده بقانون السببية •

واما ادماج الخالق بالمخلوق فى كائن واحد ،والسبب بالمسبب ، وهو من التهافت والتناقض بحيث لايحتاج الى الوقوف والشرح •

" أماالقول الثانى : وهو الاعتماد على قابليات الأشياء وخصائصها فى التكوين فنقول : ان الذين يعزون الخلق الى تلك القابليات والخصائص لايعدون عن كونهم وصافين لتلك الظواهر ،لايعرفون كنهها ،ولم يكلفوا انفسهم عناء البحث من حقيقتها ،ولو فعلوا ذلك لوجدوا ان القابليات التى اعتمدوا عليها فى خلق الشئ سراب خادع يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا •

---

١) احتمال عقلى •

" ولايضاح ذلك بالطريق العلمي نضرب المثال التالي : نضع حبة في التراب ،ونسقيها بالماء فتنتفخ ،وتنفلق ، فيظهر فيها الرشيم ، ويندفع منه الجذر الى أسفل ،والساق الى أعلى . وتنشأ الأوراق فالازهار فالثمار وتكون الحبة قد انتجت تفاحة مثلا .

فالقابلية التي كانت في الحبة هي الانتفاخ الانفلاق وظهور الرشيم ... ولولا هذه القابليات المتوالية لما اطردت تلك الظاهرة الحيوية ، ولما نشأت عنها الثمرة . فلنأت الى هذه القابلية بالذات نبحث عن حقيقتها ،اذ لو لم تنتفخ الحبة وتنفلق لما نشأ شيء ،فمن الذي أنضجها وفلقها ؟ ولو كان للحبة عقل وتدبير لقلنا ان عقلها هو الذي هيأ لها ذلك . ولو أن الماء هو الذي نفخها وفلقها لأمكن للماء أن ينفخ الحديد ويفلقه ،اذن فلابد من مؤثر وقبول لتأثير ذلك المؤثر . واذا كانت الحبة بذاتها انتفخت وانفلقت لا جدلا فلماذا لم تجمد وتضمر بدل الانتفاخ والنمو ؟ ... لكي يحصل التكاثر والبقاء؟!!

هذا يحتاج الى عقل وادراك ،ومنهاج مرسوم من قبل تلك البذرة ، والبذرة لا تملك شيئا من ذلك ، فكيف اذن حصلت ثمرة بعينها ؟ !

فمن الذي نفخ الحبة ؟ ومن الذي فلقها ؟ ومن الذي أدى الى التوالد ؟ ومن الذي جبل الخلية على الانقسام ؟ ...الخ . كل هذا التحقيق لا تصل اليه نظرة الطبيعيين القصيرة بل المقتصرة على وصف الظواهر ، دون الذهاب الى أسبابها ،بل المخطئة في جعل الصفة المنفعلة شيئا فاعلا ،والقابلية مؤثرا ، والظاهرة المجهولة عاملا مؤثرا ، فالانتفاخ صفة نشأت عن المؤثر الخارج عن الشيء وعن قبول اثره في ذلك الشيء ، والانفلاق صفة والامتداد صفة .. " [١]

وهذا يبدو واضحا في تعبيراتهم حين يقولون : طبع النبات على ذلك وانتفخت الحبة وانفلقت ، ونمت او اثمرت . أو تميل الخلية الى الانقسام ،

---

١) هويدي ،حسن . الوجود الحق . ص٥٥ — ٥٦ — ٥٧ طبعة ثالثة المكتب الاسلامي بيروت .

وتجدها جميعها مبنية للمجهول ،لجهل الفاعل الحقيقى فى ذلك كله ،فكأن المادى أغمض عينيه عن السبب الحقيقى وبنى الفعل للمجهول تخلصا من الاعتراف بالخالق جل شأنه •

اذن فالمادية الجدلية لم تحقق مبدأ السببية فى ميدان الواقع كما قرروه فى النظرية ،وذلك لأن تطبيق القانون حسب مقتضى قواعده الطبيعية سيصل بهم الى الاعتراف بسبب هذا الكون الأول وخالقه من العدم ،وهم لا يريدون أن يقولوا ذلك لأنه يجرهم الى القول بالأديان الصحيحة لانها من عند خالق الكون ، وأن مذهبهم قد قام على انكار الأديان جميعها — كما مر بنا سابقا — ، وهم لا يجدون مناصا من الخروج عن قاعدتهم ، وان تبين بطلانها ،ذلك لأن مذهبهم بنى على قدم العالم ، فتنهار المادية الجدلية بانهياره ،وقد تستغرب قولى بانهيارها بهذه السرعة ولكن اقول : " ان عقدا من النظام لو بلغ ألف حبة لانفرط كله بحل العقدة الأولى ، وان لم ترد ذلك فاحذف من المادية الجدلية كل ما بنى على أساس (قدم العالم) من الأحكام ، فأول حكم تهدمه من أحكامها الأساسية الحادها فى الخالق وعند القول بخالق الوجود تنشأ احكام اخرى تهدم أحكامها الفرعية ، دون ان يكون البحث موجها الى الفروع الخاصة ، ولكن بروز الحقيقة فى الأصل يهدم بصورة عفوية كل باطل فرعى " "١"

ومن هذا كله يتبين لنا واضحا ان المادى الجدلى مكابر وليس مناقشا ومتعصب للباطل وان ظهر له الحق كوضح النهار •

وصدق البوصيرى حين قال :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

---

١) حسن هريدى ،الوجود الحق ص ٣٠

السببية في مفهوم الدين :

ان الذى فهم السببية حق فهمها ، وطبق قانونها حق تطبيقه هو الدين ومن وافقه من الفلاسفة والعلماء ، اذ هم لم يقفوا بالسببية عند حدود معينة ، يحصرون مداركهم ضمن اطارها ، بل يسيرون مع السببية الى آخر مراميها ، ويصلون معها الى آخر مقرراتها .

والانسان منذ ان امتاز بالادراك ، واشراق اشعة عقله على هذا الوجود وهو يتساءل عن مبدئه ومنتهاه . انه يتساءل من اين اتى والى اين يصير وهو اذ ينصرف فكره الى أن وروده المباشر من نطفة ابيه أو من رحم أمه ، فهو لا يقتنع بهذه النظرة السطحية القريبة دون النظر الى المبدأ الأول ، والبحث عن السبب الأساسى وراء هذا الوجود والتى ترجع اليه جميع الأسباب .

يقول العلامة دراز " غير ان العقول حين تنفذ بنورها من نطاق هذا العالم الحسى سعيا الى الاطلاع على مبدئه ومصدره ، وعلى مصيره وغايته ليست على درجة واحدة فى هذا السعى ، فأما العقل القانع المتعجل فانه يقف عند أدنى مبادئ الغيب وأقرب غاياته مكتفيا فى كل فصيلة من الظواهر الكونية المتشابهة بأن يلمح من ورائها مبدأ يدفعها وينظمها ، ومن أمامها قبلة معينة تتجه نحوها ، وقلما يعود الى السؤال عن منشأ كل واحد من المبادئ ومآله ، أو الى السؤال عن مبدأ الكائنات جملة ، أو عن وجهتها الكلية ، من حيث هى كتلة واحدة ، ذات وظائف متساندة ، وهكذا تتعدد فى نظره القوى المدبرة أو الالهة المقدرة فللريح اله ، وللخصب اله ، وللحياة اله ، وللموت اله ، وللحرب اله ، وللشعر اله ....

وأما العقول الواعية ، الطليقة المتسامية التى تسعى الى هدفها على بصيرة فيما تطلب وفيما تأخذ وفيما تدع غير متحرجة فى السير ولا متناقضة فى الحكم فانها من جهة ترى ان مطلبها أسمى من أن تحده حدود المكان أو تقيده

قيـود الزمـــــان "١"

ان هذا الدافع العميق الممتزج في النفس الانسانية للتعرف علـى أسباب الأشياء ، وبالتالي على السبب الأول في هذا الكون وصانعه هو الشغل الشاغل خلال فترات تاريخ الانسان ، حيث نشأت احكام متفاوتة ، ونظريـات متباينة فيها مخطئ ومصيب .

اننا نرى المطهر ينهمر من السماء والأرض تنبت الأعشاب والاشجـار ، وهي بدورها تنتج الأزهار والثمار ، وان الماء مكون من (هيدروجين واكسجين) وان الانسان منذ ان فتح عينه على هذا العالم لم يشاهد حادثا من غير سبب حتى صار هذا المعنى بحكم الواقع من البديهيات التي لا يتصور العقل خلافه ، ولا يأبى الاقرار به الا عقل مريض ، أو عقل قاصر ، شأنه شأن الطفل الذي يكسر الاناء ثم اذا سئل اجاب انه انكسر بنفسه . ولهذا فقد وجدنا ذلك العربـي الذي ادرك هذه السببية بفطرته الصافية حيث قال عبارته المشهورة (البعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، أفلا تدل على العليم الخبير ؟ !)

قلنا ان هذا المبدأ اصبح من المبادئ البديهية ومن اوليات المحاكمات العقلية والقضايا المنطقية .

اذن فقولنا : (لابد لكل حادث من محدث) أمر يقيني لا يقبل العقل غيره ، وبالتالي محال على حادث أن يحدث بذاته ، وعلى شئ ان يوجد بغيـر موجد واليه الاشارة في القرآن الكريم " أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون " "٢"

نقول : بناء على هذه القاعدة ان عالمنا هذا من أرض وجبال وشجـر ودواب وكواكب وشموس ، لابد له من محدث ، وان هذه الحوادث الفرعية الكثيرة مندفعة عن أسباب ، وهذه الأسباب مندفعة عن اسباب أخرى أقل مـن

---

١) محمد عبدالله دراز . الدين ص ٩٨

٢) سورة الطور آية ٣٥

الأولى ،ولابد ان تصل بالنتيجة الى مسبب لجميع هذه المسببات ، ومحدث لجميع هذه الحادثات ،لأننا كلما رجعنا الى الأصل الذى اندفعت عنه المسببات ،قلت العوامل الدافعة ،حتى نصل اخيرا الى مسبب واحد كنظرك الى أغصان الشجرة المتعددة المتشابكة ، فكلما ذهبت تبحث عن أسبابها ، ذهبت الى قليل من كثير ،حتى تنتهى الى ساق واحدة . "١"

اذن فالوقوف بقانون السببية عند حدود معينة هى حدود المادة او الكون وبالتالى انكار محدث للحوادث ،وموجد للوجود تناقض مع مقررات العقل ،واقامة على الخطأ .

ان قول الجدليين الماديين بقدم العالم وأزليته لايقضى على هذا القانون ويخرجه من دائرة الحق الى الباطل ،طالما ان العقل يمليه ،والواقع يؤيده ويقرره الا اذا كان الداعى الى هذا القول الاستكبار عن كل قديم ،أو عقوقا للمنطق السليم ،أو جريا مع كل هوى سقيم شأن المرضى والحمقى والمغرورين .

وقد مر بنا البرهان الملزم بالقول بحدوث العالم ونفى قدمه ،وذلك بشهادة العلماء الغربيين وغيرهم من اساطين العلم والمعرفة قديما وحديثا .

" وجملة القول ان العقول السامية تشرئب دائما من وراء الحقائق الجزئية الزائلة الى حقيقة كلية أزلية . حقيقة لا يحويها شئ من العلوم والمعارف ، ولكن تتشوق اليها كل العلوم والمعارف ، وتلك هى الحقيقة التى تفردها الأديان العليا بالتقديس ،ولا تنكرها سائر الأديان ، وان اشتركت معها فى هذا التقديس بعض الحقائق الجزئية الفانية " "٢"

ولذلك فلا يبقى مجال للقول بأزلية العالم ،وبالتالى لابد من الاقرار بحدثه ،ومخرجه من العدم الى الوجود ،ومن حيز الامكان الى حيز الفعل ، وما دون ذلك سفسطة وتضليل .

---

١) حسن هويدى . الوجود الحق ص٢٧ .
٢) محمد عبد الله دراز . الدين ص٩٩ .

وفـي الختـــام :

وفي نهاية هذا البحث نحب أن نلقى نظرة مجملة على كل من مفهـوم الدين ،والمادية الجدلية للكون والانسان فنقول :

ان الطبيعة أوالكون فيمفهوم الدين هو كل شيء ما عدا الله عز وجـــل ، وهو حادث بعد ان لم يكن بقدرة الخالق جل شأنه . ومن خصائص هذا الكون أن اجزاءه مترابطة متصل بعضها ببعض بأسباب وعلل لا تنفك عنه ،تجعل منـه وحدة مترابطة . وهو في الوقت نفسه يحتوى على حركة دائمة وتطور مستمـــر ، ولكنها حركة تدريجية موافقة لمقررات العقل والواقع . وان هذا الكون له نهاية محدودة لا يتعداها ، حيث تبدأ مرحلة جديدة من صور الوجود (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار " "١" . انه يوم القيامـــه عالم يغاير تمام المغايرة عالمنا الدنيوى الذي نلاحظه .

اما الانسان فهو مخلوق من بين المخلوقات في هذا الكون ، ولكنـــه مخلوق فريد . فهو حقا من تراب الأرض ،ولكنه في الوقت نفسه نفخة من روح الله . وهذا الازدواج في التركيب جعل منه مخلوقا متميزا عن غيره ، وجديرا بأن يقوم بالخلافة التى اسندها الله اليه في هذه الأرض ، يستثمرها ويعمرها ، ثـم يتأمل في بدائع صنعها ، وجلال خالقها ، فحق له ان يكون اهلا لحمل الامانة التى ناء عن حملها كل شيء الا هو ،فكان موضع تكريم لخالقه سبحانه ،اذ اودع في فطرته القدرة على التحسين والتطوير ، فكان ذلك سببا في دفع عجلة التطور نحو الامام ولن تقف مادام هناك طبيعة بشرية حية وعقل مفكر .

وهو حين يحسن ويطور ما لديه من عدد وآلات يتأثر بها من قريـــب أو بعيد وذلك راجع لمرونة فطرته وحيويتها ،ولكنه مع ذلك مايلبث ان يعود الى أصل طبيعته ،واتزان فطرته .

---

١) سورة ابراهيم ٤٨

انه مخلوق عاقل وذكى ، يتأمل فى الكون بأسبابه وعلله ، فيتجه الى الخالق جل شأنه فيعبده ،وذلك لأن فطرته تدفعه الى التساؤل عن منشأ هذا الكون ، وأهدافه البعيدة ، فضلا عن سر وجوده هو نفسه ونهاية مآله وبالتالى عن القوة المدبرة القادرة وراء ذلك كله فيتصل بها ويعبدها وذلك هو التدين •

أما المادية الجدلية فهى لاتختلف عن الدين فى اتصال اجزاء الطبيعة بأسبابها وعللها "١" ولكنها تقف بالأسباب والعلل فى حدود الطبيعة والواقع الموضوعى لاتتعداه ، مجافاة للحق ، وعقوقا لمقتضيات العلم والعقل ، وذلك لأن الأخذ بقانون السببية على اطلاقه يؤدى الى نتائج عكسية لا تتفق ومذهبهم المادى ، ولذلك قالوا : بأن العالم أزلى وأبدى ولم يخلق ، لأن ما لا يمكن احداثه او افناؤه فليس بمخلوق •

وقد اتضح جليا خطأ هذا الفكر بعد ان اثبت العلماء حدوث العالم وأنه فى طريقه نحو الفناء والزوال ،وبالتالى فهم يجزمون بأن له خالقا اخرجه من العدم الى الوجود ،وخط فيه من آيات الابداع وجمال الصنع ما لا يخطر ببال •

وهم يرون أن فى الطبيعة حركة وتطورا مستمرا ،ولكنها حركة نا تجة عن صراع المتناقضات فى محتوى اجزاء الطبيعة ،وهذه الحركة تتطور بقفزات تحدث فجأة يسمونها الانقلاب أو الدفعية فى الحركة ،وقد اوضحنا من قبل بشكل لايجعل مجالا لريب ان اجتماع المتناقضات كما فهمها الجدليون أمر مستحيل فى عالم الواقع ، وكذلك بمفهوم الحركة الطبيعية فى الكون كما يراها المحققون من العلماء ، وماقصدهم من وراء ذلك الا اهداف سياسية يرومون تحقيقها ويسعون لبلوغها •

---

١) انقانون السببية حقيقة شرعية ،ولكن قد دل الشارع على ان هذا القانون وان كنا نلتزم به ونقف عند حدوده كبشر فى واقعنا المحدود ،فان رب العالمين والمشرف على السبب والنتيجة معا لا تحكمه هذه العلاقة ، فهو يستطيع بدونها ان يخلق ،وان يحقق من النتائج مايشاء قال سبحانه فى سورة آل عمران " قال رب انى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ،قال كذلك الله يفعل مايشاء " آية ٤٠

صلة
وقد وجدنا من خلال البحث ان القول بالتناقض والقفزات خرافة ، ليس له اى/ بما يسمونه العلمية ، وبالتالى يفقد المذهب سنده العلمى الذى يزعمه طالما سقطت قواعده الأساسية فى فهم الكون . أما الانسان فهم يرونه على انه حلقة من حلقات المادة فى هذا الكون ، يتأثر بعوامل الاقتصاد ، ويستجيب لها فى شتى اطواره ، ولذلك يمكن وصفه بأنه (حيوان اقتصادى) . وهو من الأرض نشأة واليها نهايةً ، وبالتالى فلا علاقة له بعالم مغاير لعالمه الأرضى ، وطالما هو من الأرض فلا يخطط له الا من الأرض ، وكل ماعدا ذلك من امور غيبية يجب القضاء عليها ومحاربتها ، لأنها ليست من طبيعته ، بل طارئة عليه وغريبة عنه .

وقد بينا بطلان هذه النظرة المجحفة حيال هذا الانسان ، وانها نظرت اليه من جانب واحد فقط ، وفرضت عليه مفاهيم ليست فى كيانه ، فصار فريسة للقلق والاضطراب ، والحيرة والضياع ، واسيرا للشهوات يتمثل فى قول الشاعر :

تمتع من شميم عرار نجد — فما بعد العشية من عرار

وأخيرا وبعد هذا العرض المجمل لكل من المفهومين الا يحق لنا ان نسأل من الجدير بالتقديس والاعتبار والقدرة على الخلق والايجاد ، أإله قديم أزلى حى خالق قدير مريد عالم متكلم سميع بصير ، بسائر صفات الكمال والجلال ، وقد قام الدليل العلمى والعقلى والفطرى على ذلك ، أم اله حادث جامد قاصر لاعقل له ولا ارادة ولاسمع ولا بصر ولاحياة ، وليست له اى صفة من صفات الاله الحق وهو الى الزوال والفناء بالادلة العلمية القاطعة التى برهنت على ذلك ؟ !!!

" قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون " "١"

" ايشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون " "٢"

"ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين ، الى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون ، ويل يومئذ للمكذبين " "٣"

---

١) سورة الانعام ٩١

٢) سورة الاعراف ١٩١

٣) سورة المرسلات من ٢٠ الى ٢٤ .

المراجـــــــــــــــع

قائمة المراجع

حرف الألف

ـ الاجتماع الديني ، مفاهيمه النظرية وتطبيقاته العملية
احمد خشاب ، الطبعة الثالثة ، دار الحمامي للطباعة ، ١٩٦٤ .

ـ اسس الاشتراكية العلمية ـ المادية الديالكتيكية
جماعة من الأساتذة السوفييت ، الطبعة الثالثة ، نقله عن الروسية
فؤاد مرعي ، وبدر الدين السباعي ، وعدنان جاموس ، اصدار
دار الجماهير ، دمشق ، ١٩٧٣ .

ـ اسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية
سبيركين وياخوت ، ترجمة محمد الجندي ، دار التقدم ، موسكو .

ـ الاسلام والأوضاع الاقتصادية
محمد الغزالي السقا ، الطبعة الثالثة ، دار الكتاب العربي بمصر ،
١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢م .

ـ الاسلام في وجه الزحف الأحمر
محمد الغزالي السقا ، مكتبة الأمل ، السالمية ، الكويت .

ـ الاسلام والمنهج التاريخي
احمد علبي ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٥ .

ـ الاشتراكية ، دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحي
احمد شلبي ، الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٨ .

ـ أصول الفلسفة الماركسية
جورج بولتزر ، جي بيس ، موريس كافين ، تعريب شعبان بركات ،
المكتبة العصرية ، بيروت وصيدا .

— أفيون الشعوب المذاهب الهدامة
عباس محمود العقاد • مكتبة الانجلو مصرية •

— الانسان بين المادية والاسلام
محمد قطب • الطبعة الثالثة • دار احياء الكتب العربيـــة ١٩٦٠ •

— الانسان ذلك المجهول
الكسيس كاريل • تعريب شفيق اسعد فريد • موءسسة المعارف ، بيروت ١٩٧٣ •

— الانسان والكون فى الاسلام
ابوالوفا الغنيمى التفتازانى • دار الثقافة للطباعة والنشـــر ، القاهرة ، ١٩٧٥ •

حـرف البـــاء

— بيان الحزب الشيوعى
كارل ماركس ، فريدريك انجلس • دار التقدم ، موسكو •

— بين الدين والعلم
عبدالرزاق نوفل • دار مطابع الشعب •

حـرف التـــاء

— تاج العروس
الزبيدى ، محب الدين ابو الفيض السيد محمد مرتضى الحسنـى الواسطى • المطبعة الخيرية ، مصر ١٣٠٦ هـ •

— تاريـــخ الخلفـاء
السيوطى ، جلال الدين عبدالرحمن بن ابى بكر • تحقيـــق محى الدين عبدالحميد • الطبعة الثالثة • مطبعة المدنـــى ، القاهره ، ١٣٨٣ هـ ــ ١٩٦٤ م •

— تاريخ الفكر العربي الى ايام ابن خلدون
عمر فروخ . مطبعة دار العلم للملايين، بيروت ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م .

— تاريخ الفلسفة الحديثة
يوسف كرم . مكتبة دار المعارف ، مصر .

— ترتيب القاموس المحيط
طاهر احمد الزاوى الطرابلسي . مطبعة الرسالة ، القاهـــرة ، ١٩٥٩ م .

— تطور الديالكتيك عبر التاريخ ، وقانونه الأساسي وحدة وضال المتضادات .
نسيب نمر . دار الرائد العربي ، بيروت .

— التطور والثبات فى حياة البشرية
محمد قطب . الطبعة الخامسة . مكتبة وهبه ، القاهرة ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م .

— تهافت الفكر المادى التاريخي — بين النظرية والتطبيق
محمد البهى . الطبعة الثالثة . دار الفكر للطباعة والنشـــر والتوزيع ، بيروت ، ١٣٩٢هـ — ١٩٧٣ م .

— تهافت الفلاسفة
حجة الاسلام ، ابو حامد الغزالي . المطبعة الخيرية ، مصـــر ، ١٣١٩ هـ .

حـرف الجيـــم

— جاهلية القرن العشرين
محمد قطب . مكتبة وهبه ، القاهره .

حرف الحاء

- حكمة الدين
  وحيد الدين خان . ترجمة ظفرالله خان . دار الفكر ،بيروت .

- حول الدين
  كارل ماركس ،فريدريك انجلس . نقله الى العربية زهير حكيم .
  دار الطليعة ،بيروت ، ١٩٧٤ م .

حرف الخاء

- خصائص التصور الاسلامى ومقوماته
  سيد قطب . الطبعة الثانية . دار احياء الكتب العربية ،
  القاهره ، ١٩٦٥م .

حرف الدال

- دراسات فى النفس الانسانية
  محمد قطب . دار القلم

- الدين ،بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان
  محمد عبدالله دراز . مطبعة السعاده ،مصر ، ١٣٨٩ـ ١٩٦٩ .

- الدين فى مواجهة العلم
  وحيد الدين خان . ترجمة ظفرالله خان . مراجعة عبدالحليم
  عويس . الطبعة الثانية . المختار الاسلامى للطباعة والنشر والتوزيع ،
  القاهرة ، ١٩٧٣ .

- الدين والحضارة الانسانية
  محمد البهى . الطبعة الثانية . دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٤ـ
  ١٣٩٤ .

حرف الشين

- شرح العقيدة الطحاوية ، فى العقيدة السلفية
  قاضى القضاة العلامة صدر الدين على بن على بن محمد بن ابى العز
  الحنفى . مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض .

- الشيوعية نظريا وعمليا

كاريوهنت • دار الكتاب المصرى ، القاهره •

حـرف الضـاد

- ضد دوهرنغ ، ديالكتيك الطبيعة

كارل ماركس • فريدريك انجلس ،الطبعة الالمانية ،موسكـو ١٩٣٥ •

حـرف العيـن

- العدالة الاجتماعية

سيد قطب • الطبعة السادسة • طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه ، ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٤ م •

- عرض موجز للمادية الديالكتيكية والمادية التاريخية

بودوستينك وياخوت • دار التقدم ،موسكو •

- عسر الحضاره

سيغموند فرويد • نقله الى العربية عادل العوا • منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومى ، دمشق ، ١٩٧٥ •

- العقيدة النظامية

أمام الحرمين ،ابوالمعالى عبدالملك الجوينى • صححها وعلـق عليها محمد زاهد كوثرى • مطبعة الأنوار ، ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨م•

- العلم يدعو الى الايمان

أ ،كريسى موريسون • ترجمة محمود صالح الفلكى • الطبعـة السادسة • مكتبة النهضة المصرية ،القاهره ، ١٩٧١ •

حـرف الفـاء

- الفكـر الاسلامى المعاصر وصلته بالاستعمار الغربى

محمد البهى • الطبعة الرابعة • مكتبة وهبه ، القاهره •

— فلسفتنا

محمد باقر الصدر . الطبعة الخامسة . دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م .

— فى النفس والمجتمع

محمد قطب . دار الشروق ، بيروت القاهره ، ١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م .

— فى ظلال القرآن

سيد قطب . الطبعة الأولى . دار احياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاه .

حرف القاف

— قاموس الشيوعية

كاريوهنت . ترجمة عمر الاسكندرى . دار الكتاب المصرى ، القاهره .

— قراءات فى المادية الجدلية

كارل ماركس . فريدريك انجلس . لينين وآخرون . تحرير قيس الشامى دار الطليعة ، بيروت .

— القرآن الكريم

— قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن

نديم الجسر . الطبعة الثالثة . المكتب الاسلامى ، بيروت ، ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م .

— قضايا المادية التاريخية

انطونيو غرامشى . ترجمة فواز طرابلسى . دار الطليعة ، بيروت .

— قضية الألوهية بين الفلسفة والدين

الجزء الأول : الله ذاتا وموضوعا ، والجزء الثانى : الله والانسان عبد الكريم الخطيب . دار الفكر العربى ، ١٣٨٢ — ١٩٦٢ .

حـــرف الكـــاف

— كـــارل ماركـــس

ايسيا برلين . ترجمة عبد الكريم احمد . راجعه محمد سامي عاشـــور وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر ، المؤسسة المصرية العامــــة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهره .

— كتـاب دائرة المعارف

المعلم بطرس البستاني . مؤسسة مطبوعاتي اسماعيليان ،تهران .

— الكتـاب المقـــدس

طبعة جمعيات الكتاب المقدس ، بيروت ، ١٩٥١م .

— كتب السنـــه النبويـــة

صحيح مسلم والبخاري والمسانـد الأخرى .

حـــرف الـــلام

— لسان العرب

ابن منظور ، ابو الفضل جمال الدين محسن بن مكرم . دار صادر للطباعة والنشر ،دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٦م — ١٣٧٥هـ .

— اللـــــــــــــه

عباس محمود العقاد . مطابع الأهرام التجارية .

— اللـــه جل جلاله

سعيد حوى . دار الدعوة ، بيروت ١٣٨٩هـ — ١٩٦٩م .

— الله يتجلى في عصر العلم

الفه نخبة من العلماء الامريكيين بمناسبة السنة الدولية لطبيعيـات الأرض . اشرف على تحريره كلوفر مونسما . ترجمة الدمرداش عبد المجيد سرحان . راجعه محمد كمال الفنـدى . الطبعة الثالثة . دار احياء الكتب العربية ،القاهره ،نيويورك ١٩٦٦م .

— لمحة عن تطور المجتمع منذ بدء التاريخ
ل. سينقال . المكتبة الاشتراكية ، دمشق .

— لودفيج فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية
فريدريك انجلس ، دار التقدم ، موسكو

حـرف الميـم

— المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية
جوزيف ستالين . دار دمشق للطباعة والنشر .

— الماديـة والثـورة
جان بول سارتر . الطبعة الثانية . دار الآداب ، بيروت ١٩٦٦ .

— الماركسيـة والايدلوجيات
جورج طرابلسي . دار الطليعة ، بيروت .

— الماركسيـة والثـورة
جان بول سارتر . ترجمه عن الفرنسية عبد المنعم الحفنى . الدار المصرية ، القاهره .

— محيـط المحيـط
المعلم بطرس البستانى ، مؤسسة مطبوعاتى اسماعيليان ، تهران .

— مختارات جديدة نصوص حول الموقف من الدين
لينين . ترجمة محمد كبه . راجعه وقدم له العفيف الأخضر . دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٢ .

— مخطوطات كارل ماركس لعام ١٨٤٤
ترجمة محمد مستجير مصطفى . دار الثقافة الجديدة .

— مذكرة المذاهب الفكرية المعاصرة
يحى هويدى . اصدار جامعة الملك عبد العزيز ، مكة المكرمة ١٣٩٣ — ١٣٩٤ هـ .

— المرشد السليم فى المنطق الحديث والقديم
عوض الله جاد حجازى • الطبعة الرابعة • دار الطباعة المحمدية بالازهر ، القاهره •

— مع الله ،دراسات فى الدعوة والداعية
محمد الغزالى السقا • الطبعة الثالثة • ملتزم الطبع والنشر ، دار الكتب الحديثة بمصر ،١٩٦٥ — ١٣٨٥ •

— معالـــم تاريخ الانسانية
هـ ،ج ،ولز • ترجمة توفيق جاويد • مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهره ،١٩٦٧ •

— معيار العلم فى فن المنطق
حجة الاسلام الغزالى • ابو حامد محمد بن محمد • اشرف على طبعه وتحقيقه حسين شراره • دار الاندلس للطباعة والنشر ،بيروت •

— مقارنة الاديـــان (٢ ـ المسيحية)
احمد شلبى • الطبعة الثانية • مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٥ •

— مقاصـــد الفلاسفـــة
حجة الاسلام الغزالى • ابو حامد محمد بن محمد • تحقيـــق سليمان دنيا • الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ،القاهرة •

— الملـــل والنحـــل
الشهرستانـــى ،ابو الفتح محمد بن عبد الكريم بن ابى بكر احمد • تحقيق محمد سيد كيلانى • شركة مطبعة ومكتبة مصطفى البابى الحلبى وشركاه ، ١٣٨٧ — ١٩٦٧ •

— مشـارع الفكـر الحديـث
جود • تعريب عباس فضلى خماش ،تنقيح عبد العزيز البســـام • طبعة المجمع العلمى العراقى •

— الموسوعة العربية الميسرة

باشراف محمد شفيق غربال ، دار العلم ، ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر .

حرف النون

— نظام الاسلام ـ العقيدة والعبادة

محمد المبارك ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر، بيروت ، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م .

— نظرة ماركسية فى تاريخ الفلسفة

ى ،كليابيتش ، ترجمة حنا عبود ، دار الطليعة ، بيروت .

— نهاية الاقدام فى علم الكلام

الشهرستانى ،ابو الفتح محمد بن عبد الكريم بن ابى بكر احمد .
حرره وصححه الفرد جيوم ، يطلب من مكتبة المثنى ، بغداد .

حرف الهاء

— الهلال الشهيد

ريمون شارل ، منشورات المعهد الدولى للبحوث والدراسات الشرقية باريس ، ١٩٦٢ .

حرف الواو

— الوجود الحق

حسن هويدى ، الطبعة الثالثة ، المكتب الاسلامى .

ـ=ـ=ـ=ـ=ـ=ـ

ق/١